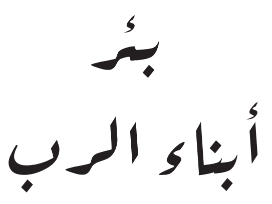
رواية

أغنيات إليـاسين

بئـر أبنـاء الرب 2

محمد البشير




بئر
أبناء الرب



الكتــــاب: أغنيات إلياسين

المــؤلــــف: محمد البشير

تنسيق داخلي: سندس فخري

الطبعة الأولى: يناير 2020

رقم الإيـداع: 2019/28104

I . S . B . N: 978-977-992-073-3

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com



«أغنيات إلياسين»

محمّد البشير




عصير
الكتب
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى أبي وأمي...

علَّني أكون ولدًا صالحًا، بارًّا بوالديه...

وإلى حارة العطشانين ..

وحكايات خِضر وزينب

إن تكُن كلماتُ الحُسين...

وسُيوفُ الحُسين...

وجَلالُ الحُسين...

سقطت دون أن تُنقذ الحقَّ من ذهبِ الأمراء...

أَفَتَقْدِرُ أن تنقذ الحقَّ ثرثرةُ الشعراء؟!

أمل دنقل

مقدمة الكاتب

عندما حلَّ الظلام!

(١)

قبل أن أتلو عليك مقدمتي المعهودة... انظر هنا...

*** بدء المشهد ***

في خيمة الزعيم أوزريانو – سابقًا – اقترب بأدبٍ جمٍّ، وظلَّ ثابتًا كصنم من فرط الهيبة والرهبة، حتى أذَّن مؤذنٌ له أن اقترب... فاقترَبَ.

كانت عيناه الصافيتان منتفختين على غير العادة من فرط البكاء، وتسللت في أصابع يديه رعشة غريبة، وجلده الآدمي القاسي كان يلفحه صهد الحرج... جثا على ركبتيه أمام جسدٍ سمينٍ يجلس فوق عرشٍ صُنع خصيصًا من جريد النخيل!

طأطأ رأسه، وقبَّل ظاهر اليد اليمنى قائلًا:

- امنحني البركة... مولاي.

تبسَّم صاحب الجسد السمين، واللحية العظيمة، واللغاديد الضخمة، والصوت المهيب الحنون في الآن نفسه، وقال:

- خيسيه... الابن الضال... بوركت يا وليدي، وسدَّد الرب الرحيم خُطاك!

ابتسم خيسيه ابتسامة ضئيلة، وعلى الرغم من ضآلتها فإنها كانت تمزج بين محبته العظيمة واشتياقه لمولاه، وبين أسفه الشديد على فقدان الزعيم أوزريانو العظيم، وللغرابة الشديدة كانت ابتسامته أيضًا تحمل مسحة من الأسف على ما حدث بإلياس وآل لوراسيا!

يقول ذو الجسد السمين ضاحكًا:

- لم يُبدِ آل لوراسيا أية مقاومة تُذكر، كنت أعرف أنهم ضِعاف، ولكن لم تخطر ببالي تلك الدرجة من الضعف!

ألقى في فمه تمرةً قاسية، وطحنها بأضراسه، ثم تبعها بدبس تمرٍ خاص لا يُصنع إلا لكبير الأهواز فقط. مولاهم، وربهم، وروحهم الأقدس، صاحب المقام الأعلى والشأن الرفيع، والصفاء المنير... القدير قسورة بن جلمود!

***

أنا لا أجيد انتقاء الحروف والكلمات، فاعذروني، وتغاضوا عن ركاكة حديثي وغرابته، فما حدث كان مريبًا، وغامضًا، وغير معقول بالمرة!

ما حدث وقتها في لوراسيا لم يكن له تفسير آخر سوى أنه... عبث!

يقول قائل:

«كان اليوم مرحًا ومبهجًا، والنفوس منتشية بالانتصار والاتحاد، في صباحه البعيد انتقمنا من الجنية الملعونة شر انتقام، وهدمنا البئر اللعين، منبع الفتن وسر العبث وقاذف الكراهية، وفي أمسه الحزين... شربنا الخمر الشمالي لأول مرة مُذْ ولدتنا أمهاتنا، وتراقصت أمام أعيننا نهود عزيزة غالية، واستمعت آذاننا، وطرِبت نفوسنا لغناء النبي الجديد، وموقظ العصر الحديث: إلياس بن أبيه، كان يومًا لم تشهده لوراسيا وأهلها من قبل، ولن تشهده أبدًا بعد ما حدث؛ لأن ما حدث فيه من الندرة التي تجعله لا يحدث في الوجود سوى مرة...

فقط مرة واحدة!»

وشهِد شاهدٌ من أهل لوراسيا فأتبع...

«توَّجنا الأسطى زيان ملكًا واحدًا توحدت من تحت بريق تاجه لوراسيا للمرة الأولى منذ الموجة العظيمة، ولكن يبدو أن الزمان لم يشأ، وأن للرب المتكبر رأي آخر...

أو للمالح والنجم الأكبر والزلزال...

أو للأم الحنون!

لم أعد أعرف... ولم يعد أحد في لوراسيا يعرف شيئًا...

فقد الناس إيمانهم فجأة كما اكتسبوه فجأة، واختفى النبي إلياس من بينهم فجأة كما ظهر من قبل بين أظهرهم فجأة!

هكذا لوراسيا وأحوالها وتقلباتها دومًا، عبث يتبعه عبث، يتخلله عبث يفصل بين كلاهما عبث آخر وآخر في سلسلة لا متناهية من العبث السرمدي اللامتناهي!»

وقفتُ صامتًا واجمًا أستمع وأنا مطرقٌ رأسي، تتلألأ عيناي مما حدث على الأرض التي لم أعش فوق ترابها يومًا، ولكنني – وبالرغم من ذلك – أنتمي لها...

صرخ ثالثٌ في جزع واضح...

«أيها الرب المتكبر...

لقد آمنَّا بك! فأين أنت منا؟ وأين نحن منك؟»

لم أتمالك نفسي هنا، أحسست بثقل من الحزن يجثم فوق صدري كالجبل، غصة في الحلق ليس لها دواء... هنا وجب البكاء!

***

كان الناس يلهثون من فرط الضحك، يبتلعون ريقًا ذابت فيه الخمور بأنواعها، يتراقص في أعينهم بريق نيران المشاعل مع أجساد الراقصات العرايا من حانة السيدة ليزا، كل شيء يوحي

بالسعادة والانتشاء، كل شيء مثالي حتى تلك اللحظة... اللحظة التي هجم فيها ذلك الجيش الأبيض الغفير بالسيوف والنبال والحِراب والأغلال، زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وعمِل السيف فيهم ما عمِل، وطال منهم من طال، وفرَّ من الناس من كان له حظ...

أما من لم يكن له نفس النصيب من الحظ، فلا تسلني عمَّا حدث له!

ووقف من بعيد مقاتل يتشح الثياب البيضاء نفسها، يعتلي موضعًا حتى يراه الأحياء من القوم، ثم صرخ بصوت جهورٍ قائلًا...

يا آل لوراسيا الأوغاد، من رعاة وصفر وبني أصهل ملاعين...

اليوم يوم الملحمة...

واليوم تعود الأرض لأسيادها، اليوم يومٌ يعلو فيه صوت الأهواز مجددًا.

انتهت الليلة بضحايا بالمئات، بل بالآلاف، فلوراسيا بأسرها كانت مجتمعة في تلك اللحظة المشئومة، أُسر الملك زيان ومعه المُعلم بنيامين وآخرون، وقُتلت الخالة جليلة بضربة سيف مباغتة كان القصد منها رقية...

رقية!

تلك التي قادتها ليزا نحو قارب صغير يتأرجح فوق موج الشاطئ الغربي، كانت تبكي، تعتصر قيثارة إلياس في يمناها، وجسد صغيرها فوق كتفها الأيسر يبكي من شدة قبضتها عليه!

إلى أين ذهبت بقاربها رقية؟!

أترى في الأرض موضع غير أراضي لوراسيا المعظمة؟ هل تركت لنا الموجة العظيمة بقاعًا أخرى؟!

لا أحد يدري... حتى الآن!

***

أتذكر حينما حدث هذا؟

«في الجانب الغربي من الجبل الأبيض...

ذلك الجبل الثابت، الشاهد على ما يحدث في لوراسيا من فتن وعبث، لكنه صامت، صابر، لا يبدي اعتراضًا!

ضحكات جهورة جلجلت، ودوى صداها في جوف الجبل، كان رجلًا واقفًا، له أنف مقوس، وظهرٌ منحنٍ، وأعين دائرية متسعة كأعين البقر، كان يضحك ضحكًا هستيريًّا، وعلى

وجهه وسخٌ أسود... في يديه كان يحمل مصباحًا تتراقص ظلال شعلته على أحجار النفق الضيق الذي شقه بنفسه منذ أمدٍ بعيد...

ظل الرجل يصرخ من شدة الفرح:

«وجدته، وجدته، أنا الذكي لا أنتم، سأصبح أغنى رجل في لوراسيا بأسرها، هذا الفحم كله لي... هذا الكنز لي أنا وحدي!»

يبدو أن أحدهم قد عثر على سببٍ آخر لإشعال نيران الفتنة في لوراسيا المعظمة من جديد!»

كان هذا منذ سنواتٍ عدَّة، عندما اكتشف ذلك الأحمق ذو الأنف المقوس حجارة غريبة تسمى فحمًا، واستخرجها من جوف الجبل الأبيض العتيق، في ذلك اليوم المشئوم الذي عاد فيه الأهواز إلى أراضي لوراسيا مرة أخرى، حاكمين لا محكومين، أسياد لا عبيد، أين أوزريانو اليوم؟ ينظر شوكة الأهواز التي حطم أسطورتها بنفسه وهي تعلو وتقوى مرة أخرى!

أعلن الرجل عن اكتشافه في زهو وتكبر شديدين، كان مختالًا، ومسرورًا، ظنَّ أنه سيحكم أرض لوراسيا بالفحم كما حكمها من كان قبله بالماء... ولكنه كان مخطئًا منحوسًا،

فما إن أعلن للناس عن فحمه المكتَشف ومنجمه المنغمس في جوف الجبل حتى أصدر قدير الأهواز - قسورة بن جلمود - أمرًا بالاستيلاء عليه، واستخراج ما في جوفه من كنوز...

وأهدى إدارة المنجم وفحمه والعاملين عليه هدية مدفوعة الثمن لرجل ما، لم يره الناس في لوراسيا من قبل.

رجلٌ حميٌّ، شديد حمرة الوجه، سريع الغضب والنفور والملل، قاسٍ وجلفٍ، تكاثرت من حوله الأقاويل حتى امتزج حابلها بنابلها.. قيل: لأنه مولاهم الحق، وقيل: لأن القدير قسورة مدين له بالكثير، ما حجم هذا الكثير؟ لم يعرف أحد!

أما ما أجمع عليه الناس حقًّا فهو أنه أمير في بلادٍ بعيدة، بلاد اللالوراسيا المجهولة، بلاد لم تطأها قدم لوراسي من قبل، بلاد تناقلوا اسمها العجيب من ألسن الأهواز إلى آذانهم حتى ترسبت في الأذهان... إيفريقيانوس!

قالوا عنها بأنها نقيض لوراسيا تمامًا، في كل شيء، وكأنها عالمٌ موازٍ، فهناك نرى التكنولوجيا في أوج ثورتها، حيث الصناعات قائمة والآلات، وحيث الشوارع تضاء ليلًا، والخيول تجر خلفها عرباتٍ فخمة من الخشب، وحيث البيوت دائمة الدفء؛ إذ بُنيت من حجارة خاصة، كل شيء هناك كان على نقيض هنا...

غير أنها تشابهت ولوراسيا في الحمق نفسه، والعصبية العمياء نفسها، لا للقبيلة كما هو حال آل لوراسيا، وإنما للعرق الأوحد ولون البشرة! فالناس هناك أبيض وأسود، وكالعادة أحنى السود ظهورهم فامتطاهم البيض بلا تردد...

ولا حول ولا قوة إلا بالله!

دعنا من الحديث عن أرض إيفريقيانوس الآن، فلها نصيب فيما هو آتٍ.

وبالحديث عن ذلك الأمير القادم من أرضها، أو المحارب، أو الأدميرال كما يحب هو أن يسمى... فقد استغل المنجم استغلالًا أمثلَ؛ فاستخرج منه فحمًا قدر ما استطاع، وتوسع في استخدام ذلك الفحم، مستغلًا ما قدُم به من إيفريقيانوس من آلات حديدية ثقيلة؛ فأنشأ المصانع، وأنشأ خطوط السكك الحديد، حيث فزع الناس فزعًا شديدًا حينما سمعوا صافرة القطار لأول مرة، وظنوها حربًا قد أعلنتها عليهم ملائكة الأرباب منتقمين، فيما ظَلَّ هو في مقدمة العربة الأولى ينظر إلى الناس في سخرية ويضحك!



يا قارئي...

إن لوراسيا الآن لم تعد كـلوراسيا التي عرفتها قبل الأهواز، تغيرت تغيرًا كبيرًا، وتلاشت تدريجيًّا أممها الثلاث، فاختفى بنو الأصهل؛ إذ استحوذ الأهواز على الغرب لعلَّةٍ ما لم يبدوها، ولكنها كانت من البداهة غايةً في الوضوح؛ إذ إنهم ينتقمون ممن شرَّدهم وطردهم من الأرض أول مرة!

وأما أبناء الرب فوا أسفاه على ما أصابهم...

كانت حملة مهولة شنَّها عليهم جند الأهواز ومحاربو الأدميرال، استمرت أكثر من شهر كامل، من دار لدار، ومن زقاقٍ لزقاق، ومن حي لحي، ومن قرية لأخرى، حتى لم يبقَ في الشمال دارٌ يسكنها لوراسي إلا قُبض عليه...

وسلسلوهم في سلاسل طويلة وثقيلة وصدئة، وتم السبي المذل المخزي لآل الشمال من السكندريين ومن تبقى من محتقري السبطيين، يسحلون سحلًا، يجرُّون خلفهم ذيول العار والانتكاس، مسيرة مذلة، وسبيًا كوصمة عارٍ في تاريخ ليس بالمشرف، من أقصى الشمال زحفًا وحتى قاع الجنوب...

وتراكموا والرعاة جنبًا إلى جنب، وعزلوهم عن القرى والمقاطعات والمحطات والحياة بأسرها بجدار عازل

طويل وكالح، يمتد من مشرق إلى مغرب، في منتصف الغابة الكثيفة، تتخلله بوابات ثلاث، وبين كل مسافة ومسافة ثمة موضع أمن وحراسة؛ فانعزلوا كالمجذومين، واستُحقِروا واستُذِلوا بعد عزٍ وتمكنٍّ، وهانت كلمتهم واستُصغِرت بعد عُلوٍّ ونفاذ أمر...

وسبحان من يُغيِّر ولا يتغير!

تشتتوا وساحوا في بقاع الجنوب، تزاحموا بين حقوله ووديانه، ثم خرج من هنا أناس اتخذوا إلياس إلهًا يُعبد بعد أن قالوا نبيًّا، ومن هناك أناس ينادون بإعادة بناء البئر، واستخراج هيكل الجنية المدفون تحت أنقاضه وإحيائها مرة أخرى!

وعاد من عاد لعبادة الآلهة القديمة كالنجم الأكبر، والمالح، والزلزال...

أما الرب المتكبر فلم يبق على دينه من آل لوراسيا سوى قلة قليلة ضئيلة تؤول إلى العدم!

وكما قيل على لسان أحدهم...

فقد الناس إيمانهم فجأة، كما آمنوا فجأة!



لو عاش «أسبرتاك»، لو لم يصلبوه...

لصار في العهد الجديد

ربًّا لملاك العبيد!

كل العقائد – كلها – قامت تندد باللصوص

ثم انتهت – عجبًا – إلى أيدي اللصوص.

أوزير، كونفوشيوس، بوذا، زرادشت

موسى، وعيسى... كم تطول القائمة!

ستموت آلاف العقائد

لتجيء آلاف العقائد

وتظل أرض الناس ملأى باللصوص...

لزوم ما يلزم نجيب سرور

يا قارئي...

في حكايتنا ما فيها من جنون وعبث، وما فيها من إسقاطٍ لا يعقله إلا من يحسن الإبصار، في حكايتنا نقصُّ صِراع الأديان، وتعارض الاعتقاد، وتشتت الأرباب، وتصارع المذاهب، في حكايتنا نقص عن خطيئة الإنسان الكبرى، بعد الإيثار وحب النفس والأنانية... خطيئة الجمود الفكري، وإرث المعتقدات دون التفكر في ماهيتها الحق...

دون تحمل عناء التفكير والتأمل، واتخاذ القرار...

الكاتب: محمد البشير

ديسمبر ٢٠١٨

اللوحة الأولى

موتى على قيد الحياة

(١)

قال الناس... غضب المالح والنجم الأكبر والزلزال!

وقال آخرون... لم يقبل الرب المتكبر توبتنا!

وقال قلة تؤول للعدم... إن كل شيء قد خُط في كتاب الأقدار منذ زمن الزمن.

ذلك القدر الغريب، الذي سُجل في كتاب عتيق سماه الأقدمون باللوح المحفوظ، وقالوا إن الرب المتكبر كتبه بنفسه بعدما خلق القلم أول مرة، وقال له آمرًا: اكتب.

فكتب القلم ما هو كائن وما سيكون، وكان نصيب لوراسيا عبثٌ وجنون!

ومضت سنوات كُثُر...

تغيرت لوراسيا كثيرًا، حكمها أقوامٌ غلاظ، الأهواز اسمهم، أما أصلهم فهم سكان الغرب الأقدمون، قيل بأنهم يتقنون لغة الجان، ويجيدون فنون السحر، وصناعة التمائم والأحاجي،

حياتهم وطبيعتهم بدوية، يحبذون الصحراء ورمالها وأجواءها القاسية المتقلبة، ويعيشون على ثمار نخيلها، ولحوم نوقها، وليالي الشواء، وأسواق الجواري، ومنافسات الشعر، يشربون خمرًا من دبس التمر، لم ولن يُصنع أجود منه في لوراسيا، قومٌ وإن قست قلوبهم على أعدائهم وغلظت فإنهم فيما بينهم متراحمون متوادون لا تفوت بعضهم نائبة بعضٍ، ولا فرحه أبدا، يتشاركون في الحزن قبل الفرح، ويحافظون على الدماء صافية بالزواج من بعضهم البعض، كبيرهم ومولاهم هو القدير قسورة بن جلمود، للوهلة الأولى ومن قسوة الاسم يُخَيَّلُ إليك بأنه رجل غليظ جلف قاسٍ وحاد الطباع، لم تعرف الرحمة لقلبه مسلك أبدًا...

وهذا صحيح!

غير أنه كذلك على الأعداء فقط، أما مع أبناء عشيرته وقبيلته العظمى فكان بلسمًا شافيًا وترياقًا يطلب ويفتش عن مجالسه وأحاديثه، يدمن الابتسام وطيب الكلام وحسن المعشر، يملأ المكان من حوله مرحًا وبهجة بروحه الخفيفة ونكاته المرحة، وبالرغم من حرصه الدائم على قليل الطعام، والاكتفاء ببضع تمراتٍ وشربة ماء؛ فإنه كان شديد السمنة، مفرط الكرش، قصير القامة، تحسبه جِوالًا إن رأيته من بعيد، وكان مزواجًا له من النسوة ما فاق المئة، ومن الأولاد ما شاء الله، ومن الجواري ما لا يُعَدُّ ولا يُحصى... هكذا قيل عنه!

ولكنه بالرغم من الزيجات العديدة والجواري الكثيرة، فقد كان زاهدًا، متصوفًا يعشق الخلوات، وصفاء النفس مع بارئها كما يقول، يؤمن أن للكون الواسع من حوله قوة عظمى خفية، سرًّا عظيمًا لم يكتشفه أحد من قبل!

أو لعلهم اكتشفوه وأهملوه!

كان للأهواز سلطة وشوكة عالية قوية باغية، لم تنكسر قط، ولم تترنح لحظة إلا على يد الزعيم الأصهلي الخالد... أوزريانو.

دار الزمان على الأهواز مرة، وعلى أوزريانو أخرى، وها هي كفة الميزان تميل ناحيتهم من جديد؛ فعادوا إلى لوراسيا متشحين البياض، لونهم المميز، يشهرون السلاح ويصرخون في حمية وزئير قد نسيته آذان لوراسيا... اليوم يوم الملحمة!

ولكن...

من أين أتى الأهواز؟ وكيف أتوا؟

الحق أقول لكم... كان للأهواز رحلة عجيبة بعدما شردهم أوزريانو العظيم، وطردهم من الأرض شر طردة، وولى عنهم مدبرًا بعدما كسر شوكتهم ورحل. عبر الأهواز الصحراء فرارًا من سيف أوزريانو العظيم، وظلوا قرب الساحل الشرقي للوراسيا لا يعرفون لهم وجهة! حتى انتشلتهم سفنٌ شراعية ضخمة مرت من بعيد؛ فلمحهم أحد أفراد طاقمها من منظاره،

وكانت هجرتهم إلى أرض وطؤوها أول مرة، أرض غريبة في الحافة الأخرى من الكون، أرض تسمى... إيفريقيانوس.

في إيفريقيانوس ذاق الأهواز الأمرَّين...

ولأنهم سُمر البشرة ذوو طول وبنية قوية؛ استعبدهم آل إيفريقيانوس مع العبيد السود سنواتٍ طوال، ولكنهم آنفوا من ذلك وأبوا، وهاجوا وماجوا، وكانت لهم ثورات عدة على مرِّ السنين التي قضوها هناك مغللين في الأصفاد، خاضعين من الذل غرباء، حتى أتى قائد عسكري: الأدميرال فيدل، وهو رجل من أغنياء القوم في إيفريقيانوس، يقوم برحلة حول البلاد للترويح عن نفسه، واكتشاف الغرائب، وسماع الحكايات المدهشة؛ فهو مهووس وولِع بكل ما هو غريب وجديد، أثارته فكرة أن هناك أراضٍ أخرى غير إيفريقيانوس، وأن هناك أقوام آخرون يعيشون، ويأكلون، ويرقصون، ويتناكحون، ويتناحرون في ميادين القتال!

لم يكن فيدل ذا أهمية بين قومه، بالرغم من ثرائه الفاحش، وبالرغم من وسامته المفرطة، فعيناه الزرقاوان لم يُرَ مثلهما، وشعره أشقر وهَّاج، لم يكن يميل إليه أحد من أبناء جنسه وقومه، كان منبوذًا، نفيًا دون نفي، ربما لسرعة غضبه؟! وربما للمكر في ملامحه ونبرته؟! وربما لبلاهته وحماقته في بعض الأوقات، على كلٍّ، لم يكن للأدميرال فيدل تلك الهالة من

الرهبة والهيبة التي يحبها، لم يكن وجوده يخطف الأنظار، ويثري حديث الناس وتهامسه، بالرغم من بطولاته العسكرية، وارتقائه لرتبة الأدميرال في سنٍ أصغر من أقرانه، كان وجوده دومًا باهتًا بينهم، بالكاد يشعرون به، ولهذا كان دائمًا ما يلجأ للمثير، ما يجذب إليه الأنظار، ويصرخ في الوجوه من حوله: أنا هنا...

تحمس الأدميرال فيدل غاية الحماس بعدما سمِع من الأهواز حكايتهم، وماضيهم السحيق، وأسطورتهم المسلوبة فوق أرض لوراسيا على يد أوزريانو، وتكفل بهم وأعلن دعمه وتأييده لهم، فآواهم بادئ الأمر، وضمن لهم المأكل والمسكن والثياب التي طالبوا بها، ثم صنع لهم سفنًا تحملهم مرة أخرى إلى لوراسيا غزاة محاربين يطلبون مجدًا ضائعًا، وجهزهم بجهازهم وأسلحتهم، ثم قال لهم قبل أن يغادروا:

كل شيءٍ بثمن...

فضحك مولاهم قسورة، وقال مؤمِّنًا:

- وللأهواز ذاكرة لا تنمحي!

كان ذلك بعدما راقب الأهواز أحوال لوراسيا عن كثب، ورأوا ما أصابها من أعاجيب وما لاقت من أهوال، وبالصدفة الغريبة... ساقتهم الأقدار نحو صبيهم التائه منذ هزيمتهم

على يد أوزريانو... خيسيه!

كان مُدَمَّرًا، محطمًا، تائهًا ووحيدًا بالرغم من الصحبة التي وجدوه داخلها، واستطاعوا الاتصال به، وإحياء سيرة الأهواز بصدره، وإشعال فتيل الانتقام بقلبه، فساندهم الفتى بسهولة ويسر، كان مطيعًا، وبدا كأنه بحاجة لهم أكثر من حاجتهم له!

وكان ما قد كان...

أما خيسيه فأرشدهم إلى ميقات يوم معلوم، يومٌ يتغيب فيه آل لوراسيا عن الوعي، وتنكشف عورتهم، ويسهل اقتناصهم، ثم تطوع بالتخلص ممن جمع آل لوراسيا تحت راية واحدة حتى يشتتوا مرة أخرى فلا تقم لهم قائمة، ولا يصرخ من بينهم داعيًا للقتال فيتوحدوا من حوله ويقاوموا!

قتل خيسيه إلياس، وألقى بجثته تحت حطام البئر اللعين، تمامًا حيث كانت الجنية راقدة رقدة اللحود، فتعانقا عناقًا أخيرًا، تمنته الجنية في محياها كل يوم، ونفر منه إلياس في اليوم مئة مرة... تعانقا، وتلامست أفئدتهم الساكنة، الصامتة، لا فتيل حب يشعلها ولا حياة، تعانقا، وامتزجت دماءهما اللحظة كما امتزجت في لحظة أخرى، في لحظة ظلت ذكراها مشتعلة في ذهن الجنية...

أما إلياس... فنسي!

وأما الأهواز فأعدوا العدة، وباغتوا القوم في الميقات

المعلوم، وتكفلوا بقطع باقي الرؤوس، فألقوا القبض على الملك الذي لم يهنأ بتاجه الجديد: زيان، ومعه المعلم بنيامين الذي أيقظ في الناس وعيهم بحقوقهم، ومعهم قلة قليلة أبدت مقاومة يخشى منها فيما بعد، ثم زجوا بهم في سجون صُنعت خاصةً لهم!

أوفى الأهواز بوعدهم، وصدق مولاهم قسورة بن جلمود كلمته للأدميرال فيدل، فأتى الرجل إليهم بعد شهور من قيام دولتهم، وانبساط حكمهم، وإحكام قبضتهم على أرض لوراسيا، أتى على ظهر سفينة ضخمة، يتبعها أسطول عتيد يحمل فوق ظهره آلات قدم بها خاصةً من إيفريقيانوس لاستغلال ذلك المنجم الثمين، بحجارته العجيبة التي تسمى فحمًا، وعزم على إنشاء صناعاته هنا، فأنشأ سككًا حديدية تجري على قضبانها عربات خشبية تدور بدخان الفحم المحترق، وأنشأ مصانع للغزل، وحياكة الملابس القطنية ذات التصاميم العجيبة التي أطلق عليها اسم: بذلات للرجال، وفساتين للنساء! وأنشأ كذلك مصنعًا في أقصى شرق لوراسيا، قرب الصحراء، لإعداد خلطة سرية مميتة أعدها الأدميرال فيدل بنفسه، وأطلق عليها اسم البارود، وتصنيع آلات بتصاميم معينة تحشى بهذا البارود، ويضغط على صمام أمانها؛ فينطلق البارود من صمامها مفرقعًا قاذفًا

لهيبه الحارق، وأطلق عليها اسم البنادق.

أتى الأدميرال فيدل إلى لوراسيا بالخير والشر معًا، وظل ولعه وهوسه بالجديد والغريب كما هو، فأنشأ المعامل الكيميائية والأبحاث؛ وموَّلها من ماله الخاص، وظل يحلم بإنشاء أسطول كامل للإبحار في كل نواحي الأرض، يأتيه بإجابة شافية على سؤاله الذي طالما أرق نومه: هل على ظهر الأرض قومٌ آخرون؟!

***

الناس في لوراسيا يعبدون آلهة شتى، عاد أقوام لعبادة المالح والنجم الأكبر والزلزال مرة أخرى، ولكن ليس بنفس الشغف القديم، ولا بنفس العقيدة المنصرمة والمنهدمة على يد إلياس بن أبيه ورفاقه الآخرين، فقد أحدث الرفاق الجدد شقًّا غائرًا في جدار تلك العقيدة فتصدعت وآلت للسقوط، لكنها لم تسقط، وإنما عاد لها من عاد؛ لأنه فقط أحس بحاجته إلى معبود! أحس بشوقٍ تقوده فطرته إلى ذلك العظيم القوي الذي يدبر له الأمور، ويجري له السحاب ويطوي من تحت أقدامه الأرض، أحس الناس بحاجتهم إلى حائط يرتكنون عليه... لكنهم أخطأوا اختيار الحائط!

وأقوام آخرون... قادتهم عقولهم في بادئ الأمر إلى الإيمان بنبوة إلياس، قالوا بأن الرب المتكبر قد أرسله لهم بغتة آتيًا من العدم، كما أرسل الأنبياء للقوم الآخرين قبل الموجة العظيمة، ثم بعدما انتهت مهمته، وتمت رسالته، عاد النبي الكريم إلى جوار ربه مرة أخرى مبتسمًا سعيدًا بما أنجزه، وبما أحيا في صدور الناس من إيمان!

ثم قادتهم عقولهم رويدًا رويدًا إلى عبادته، فقالوا بأن الرب لم يرسل نبيًا قط، بل إنه تجسد لهم في صورة إلياس؛ لأنه رب رحيم، ولأنه أراد أن يمحى من أذهان الناس قولهم بأنه متكبر... فارتدى ثيابهم، ونام فوق جريدهم، وأكل من صحنهم، وشرب معهم من نفس البئر...

ولأنه بهم رحيم... ثار معهم، وقادهم في ميدان القتال نحو نور الحق والهدى واضعًا لهم خطة محكمة، ومنهجًا واضحًا، وصرخ بهم محمسًا، وانتزع بأيديهم نشوة الانتصار من قلب الظلم والطغيان...

ولأنه رب رحيم... أطربهم بقيثارته الإلهية، وناشدهم بألحانٍ ملكوتية، وأسمعهم غناءً نورانيًّا، وصَبَّ في أفئدتهم من نبع حكمته ما أعجز العقول عن التحمل، وعندما آمنوا به، وصدقوه، وعادوا لدينه وأحبوه...

رحل في هدوء وسكينة وسلام...

لأنه السلام، والأمان، والمحبة... ولأنه الرب الرحيم!

وهكذا... تحول إلياس من غريب، إلى حكيم، إلى نبي... إلى إله! وبنيت له معابد شتى، وصنعوا له تماثيل كثيرة، وقدموا له القرابين، وأقاموا له الصلوات والأعياد، وسجدوا بين يديه باكين، نادمين، آسفين، وترهبن منهم كثير، خاصةً من عاصروه، وعاينوه، ورأوه رأي العين، واستمعت آذانهم لكلماته وأغنياته، وقاتلوا بجواره، وانتشوا معه بنشوة الانتصار... وأقاموا له مجالس ذكر وإحياء لسيرته وتعلم سنته، وكتبوا سيرته وحكاياته في أناجيل محفوظة في صدور العابدين وفي المعابد... ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وأما الآخرون، والأشد ضلالًا، بقايا آل الإسكندر الفانين، فتغنوا بأيام ستيفان السكندري، وأيام الجنية والعنقاء، وأيام البئر المهيب...

بئر أبناء الرب!

تلك الأيام التي كانت لهم كعصرٍ ذهبي، بل نحاسي؛ ففي تلك الحقبة انتصر النحاس على الذهب، وعلت شوكة السكندريين، ليس على السبطيين وحسب، بل على لوراسيا بأسرها... مصمصوا شفاههم، وجففوا دموعهم المنهمرة

بعد تذكر الأيام الماضية، وتأمل ما آل إليه المآل، وكيف تشتت السكندريون في البقاع المختلفة، وكيف عادوا في الأرض أذلاء، مستضعفين، جبناء، يقاتلون من وراء الجُدُر، لا يقوون على المواجهة ولا على المصارحة، يداهنون كما هي العادة، ينفثون بالنفاق سمًّا في صدور الناس، ويشعلون نيران الفتنة بين الحين والآخر، هكذا كانوا على مر العصور، وهكذا تناسى الناس اسم أبناء الرب ونزعوه عنهم، وردوا عليهم اسمهم الأول... الصُفر!

ذاق الصُفر الأمرين: مرار حكم الأهواز وسيطرتهم على لوراسيا بأسرها، ومرارة انتقام من تبقى من الرعاة وبني الأصهل، كانوا يبغضونهم كبغض الموت أو أشد، ورأوا فيهم سببًا لكل ما حدث في لوراسيا من أعاجيب، وكل ما يحدث من شدائد، وكل ما سيحدث من أفاعيل لا يعلمها إلا رب جدير بالعبادة!

حاول الصفر التوحد مراتٍ عدة، حاولوا البقاء سويًّا وإن كانوا قلة، ونادوا بإحياء الجنية مرة أخرى، وإعادة بناء البئر واستخراج الهيكل... طامحين في استعادة عصر الأمجاد مرة أخرى بعودة الجنية وبناء البئر، ولكنهم كانوا دائمًا ما يفشلون، مشتتين، مضطهدين في بقاع لوراسيا كلها، ومنذ انهدم البئر

على رأس الجنية، لم تقم للصفر فوق أرض لوراسيا قائمة، ولكن ظل وجودهم ملموسًا، ودعوتهم للتوحد واستعادة المجد الضائع باقية...

وهمسهم في غياهب الظلمات... يُسمع!

***

في صباح يومٍ ما...

دبت الحياة في أرجاء لوراسيا مع نور الشمس، واستيقظت مع دبيب الأقدام والأعين الناعسة، تحركت الصحون داخل المطابخ، وصاح الديك بعد الثلاث حتى غلب الملل بقية الحيوانات في الحظيرة... انتشرت المناجل في الحقول، وتحركت المعادن والمطارق في الورش والمصانع، وتبادلت الألسن عبارات الصباح والمزاح الخفيف، وانتقلت تحيات السلام من يدٍ لأخرى.

افترش البائعون الأسواق بالبضائع المختلفة، وتكاثر المشترون تدريجيًّا، وساعة تلو أخرى تعالت هتافات السلع وأصوات الفصال والجدال والقسم بأغلظ الأيمان بجودة السلع البائرة!

استيقظ أحدهم وهو يلعن الأيام والأسباب والناس أجمعين، رافضًا اليوم الجديد، شاعرًا بملل من الدنيا بأسرها، وبنقمٍ بالغ لاذع على الحياة، واستيقظ آخر في شوقٍ ليومٍ

جديد، ومغامرة جديدة يطمح أن تخبئ له سعادة ما... هكذا الناس دومًا في كل عصر ومكان.

اشتعل الفحم في المداخن، وبدأت المطارق تصنع من الحديد أشكالًا، وبدأت عجلات القطار في الدوران والانطلاق، عبر قضبان الحديد المتوازية، والممتدة بطول لوراسيا وعرضها، واضعة في كل مدينة محطة باسمها، وأطلقت صافرته العالية وانطلق... ولا عزاء للمتأخرين.

كان يومًا عاديًا من أيام مملكة لوراسيا الهوزية، حتى وقف أحدهم في منتصف المحطة، والقطار يطلق صافرته منذرًا بالرحيل، وعلا صوت الرجل بالنذير، وقال:

«يا أيها الناس، خذوا حذركم، لقد رأيت منذ أيام فوق الجبال العتيدة في الجنوب جرذًا يسحب صغاره نحو قمته... يا قوم... فيضان ماء قادم، والرب حافظ!»

من ملابسه ولكنته في الكلام لم يكن صعبًا أن نستدل على بدويته، ولوجوده في محطة شمالية، حيث الناس لا يلقون بالًا للبدو وخزعبلاتهم، لم يكترث له أحد، ولم ينصت له نفر... وما انتظر الرجل الغريب منهم ردًا، فما إن انتهى من نذيره حتى هرع ناحية القطار مهرولًا ليكمل رحلته حول البلاد نذيرًا!

صدقت نبوءة البدوي... وغرقت لوراسيا بعد أيام تحت السيول المنهمرة بلا توقف أو هدنة. سالت الأودية، وغرق أناس كثر ودواب، وماتت محاصيل لم يقدر لها النمو...

في الجنوب المهمش، المستحقر، المستعبد، حيث فقراء القوم، من رعاة وبني أصهل وصفر، لا يهم الآن من أي أمة أنت، بل من أي طبقة، ولأي طبقة تنتمي، إن كنت غنيًّا فهناك العاصمة الهوزية في الغرب، والشمال الأرستقراطي، وإن كنت كأصحابنا وغالبيتنا... فالجنوب يرحب دومًا بالفقراء والبؤساء!

غرق الجنوب في السيول ووابل الأمطار المستمر لأيامٍ دون انقطاع...

وفي الغرب، حيث مقر الأهواز، وعاصمة لوراسيا الجديدة، سقطت الخيام على الرؤوس من هول العاصفة ومن شدة الأمطار، فزع الناس من ذلك فزعًا شديدًا، وخافوا على أنفسهم وذويهم من الهلك... إلا قسورة!

في ظلمات الليل، والناس نيام يحتمون بالمقاومة البائسة المتبقية في أقمشة خيامهم وأوتادها، كان القدير قسورة تحت المطر، راكعًا، يرتدي إزارًا يستر عورته فقط، تتساقط عليه زخات المطر بشدة، فوق صلعته التي نادرًا ما يراها أحد، فهو حريص على التعمم طوال الوقت، والوقت وقت صفاء،

والخلائق نائمون، لكنَّ من يناجيه قسورة لا تأخذه سنة ولا نوم، كان مشتاقًا، ابتلت لحيته البيضاء حتى تقاطر منها الماء، وابتلت وجنتيه من البكاء، ورفع أكفه متضرعًا...

رباه...

رب الأرباب، ورب الضعيف قسورة

من ذا يكون قسورة!

من أنا؟ ومن أكون!

أنا الذي أسجد للرب الرحيم مالك المُلك والملكوت

أنا الذي أمرض وأشيخ وأموت

أنا الذي جئت من قطرة ماء كالمطر... وإلى جيفة أنتهي

أنا العدم في المبتدى... وأنا العدم في المنتهى

إلهي...

كم تكذب المظاهر، وكم قناع نرتدي، والسر في علمك

كم تتشابه وجوهنا، وتختلف منازلنا...

وكم يمشي في الأسمال والخرق من هم فوق الثريا منزلة!

يا ربي عبدٌ قد هوى...

عشِق الهوى... حتى تفتت الحشى والأضلع!

لهفي على ذلك اليوم، الذي تنكشف فيه الأستار
ويعرف الإنسان فيه من يكون...

كان يبكي من شدة الخوف والرهبة، يتضرع، ويغتسل بالمطر من وسخ البدن، ويغتسل بالدمع من أدران الدنيا وصراع الحيوات...

وناداه المنادي بداخله، ألقى في روعه ما سمع، وأحل على قلبه السكينة والرضا، وقال من لا تحسن الكلمات وصفه...

عبدي...

أنت مني...

أنت تليني، وكل شيء في الوجود يأتي بعدك

لا شيء يقدر عليك إذا عرفت قدرك، ولزمت مقامك

أنت أقوى من السماوات والأرض، والجنة والنار، والحروف والأسماء

إذا تحققت بسرك تحققت بي

أنا الذي منه كل شيء...

أنا الذي أبديت كل شيء

وأنا الذي إليه كل شيء

لم يكن صدى الكلمات بداخله هيِّنًا، كاد ينفجر من شدة ضيق الصدر بعظم الكلمات وثقلها، كاد يتلاشى، يفنى، ينعدم... يذوب بنور المحبة والصفاء والكمال، أحس بنورٍ يضوي داخله، كان قنديلًا في تلك اللحظة النادرة، كان شديد التوهج!

اشتد هطول الأمطار أكثر حتى جرت السيول من تحت أقدامه السمينة، ترنح مرات عدة، ولكنه لم يكترث، واستأنف ابتهاله ومناجاته لرب الأرباب كما يطلق عليه، ذلك الذي يقسم بالأيمان المغلظة بأنه موجود، يسمع صوته ويشعر به، اشتد السيل أكثر حتى ضعفت مقاومته وكاد يسقط... لولا أن يدًا من خلفه أسندته... يدًا بالرغم من صلابتها وقسوتها فقد كانت عليه حانية...

كان هذا ابنه البكري «صخر»، كانا شديدا التشابه حتى ظنهم البعض توأمًا، ولم يكن فارق السن بينهم بالكبير، فقط اثنتا عشرة سنة! كانا كإخوة، خليلين، كانا رفيقين أكثر من كونهما أبًا وابنه...

- ما الذي تفعله في تلك الساعة يا أبي، أخرب عقلك باكرًا!

ضحك قسورة وقال:

- بل استوى واكتمل نضجه... دعاني حبيبي فلم أقوَ على عصيانه!
- إن النواحي بأسرها تهلك، وأنت في ملكوتك الخاص... هيا بنا!
- اتركني قليلًا...
- كدت تهلك لولاي...

قاطعه:

- بل لولاه.

تبسَّم صخر، ومسح عن عينيه تراكم الأمطار، وتعلق بذراع أبيه، وجذبه بلطف محفزًا، فضحك من ذا قسورة، وأطاع.

وفي الشمال الجديد، حيث استقر الأدميرال فيدل، ودعا من قومه من دعا، فأتى المهاجرون الأرستقراطيون من أرض إيفريقيانوس في شوق ولهفة لاكتشاف الأرض الجديدة، وهاجر معهم كل من لم يستلذ الحياة على الأرض الأخرى من البيض فقط، فالسود مستعبدون إلى قيام الساعة!

أتى المهاجرون، وأتوا بعاداتهم معهم، في الشمال استقروا، وأنشئوا بيوتًا على طرازهم الخاص، وأقام لهم الأدميرال فيدل مطاعم وكازينوهات ومسارح، واستحدث أنظمة جديدة لم تعهدها لوراسيا من قبل، فأنشأ البريد الداخلي المتنقل بين محطات لوراسيا عبر القطار، والبريد الخارجي بين لوراسيا

وإيفريقيانوس عبر السفن، وأنشأ نظام الشرطة ورجال الأمن، ووضع لائحة بالمحظورات والممنوعات وكتبت على أوراق ووزعت في أماكن الزحام والتجمعات حتى يراها العامة.

كان كل نظام يستحدثه الأدميرال فيدل يطبق بادئ الأمر في الشمال والغرب، ثم ينتقل ببطء شديد تجاه الجنوب، وبالطبع بموافقة الملك اللوراسي قسورة بن جلمود فلا يمكن للأدميرال فيدل أن يتصرف دون أن يأذن له الملك بذلك، صحيح أن الأهواز بأسرهم مدينون لهذا الرجل بالبقاء على قيد الحياة واسترداد ما هو لهم، إلا أن الحق حق، وكل شيء بقدر.

لم تتأثر أرض الشمال بالفيضان تأثرًا شديدًا، كانت الأمطار تتساقط على رؤوسهم بغزارة حقًّا، لكنهم أعلى بقعة في لوراسيا؛ ولذلك انحدرت السيول في اتجاه المنخفض العظيم والجنوب دون أن يتأثر الشمال بها، لم يتأثر إلا منجم الفحم المدفون بجوف الجبل الأبيض، خاف العاملون به على أنفسهم، وناشدوا الأدميرال فيدل بكل الآلهة والأرباب؛ فاستجاب بعد طول جدال وفصال ومناقشات عدة، وتوقف العمل في المنجم رسميًّا حتى توقف الأمطار.



(٢)

أغنيات إلياسين

«يا سيداتي... يا أميراتي الحِسان...

إني أتيت إلى الوجود كما يجيء الأنبياء!

لا... لست أنتحل النبوة، غير أني مثلهم

في مذود يومًا ولدت!

في قريتي «أخطاب»...

حيث الناس من هول الحياة

موتى على قيد الحياة!

لا الأرض غنت لي، ولا صلَّت لمقدمي النجوم

ولا السماء تفتحت عن طاقة القدر السعيد

ولا الملائكُ باركوا مهدي...

ولا هبطت تصفق فوق رأسي بالجناحين

حمامة...

قالوا: غرابًا ظل ينعق يومها فوق النخيل...

حتى انفجر!

وعرفت أن الشمس لم تعبر بقريتنا...

ولا مر القمر

بدروبها من ألف جيل

ولا العيون تبسمت يومًا لمولودٍ... ولا دمعت لإنسان

يموت...

فالناس من هول الحياة...

موتى على قيد الحياة!»(١)

❀❀❀

في الوقت الذي كانت دولسين تصرخ فيه من شدة الهلع والخوف والقلب المفطور، والوقت الذي كانت هراوة الشاويش ذي الملامح المزمجرة والأسنان الفضية اللامعة تهوي بكل ما أوتيت من صلابة وقوة على مؤخرة رأس إلياسين؛ فانفجرت الدماء منها انفجارًا لا يبدي رحمة!

في تلك اللحظات، تخاذلت القناديل والمصابيح الخائفة المرتعشة وأظلمت...

(1)لزوم ما يلزم نجيب سرور.

ولم يعلم أحدٌ ما حدث في جوف الظلام...

***

- ها أنت تقفز للنهاية، هلا حكيت من البداية.
- ولمن أقول؟!
- هذي صفوف السنطِ والصبارِ تنصتُ للحكاية
- ألها عقول؟!
- ماذا يضيرك... ألقِ ما في القلب حتى للحجر
أوَليس أحفظ للنقوش من البشر![1]

***

لم يعِ ما فاته من العمر... من أين أتى؟ وكيف نشأ؟ ومن أي شجرة سقطت ورقته اليابسة وتناقلتها الريح؟ لم يعِ إلا اللحظة التي ألقت الريح ورقته فوق أرض بائرة بعيدة في الحد الثاني من المنطق، على عتبات الكون، بعد حدود العقل والممكن، حيث الخيال على مرمى البصر، وبين أكوام العبث، وأكوان الجنون واللامعقول... وضعت يافطة على جانب الطريق تشير إلى العدم!

«أخطاب»

(1)لزوم ما يلزم نجيب سرور.

هو اسم تلك المقاطعة، أو البلدة، أو إن شئت فالقرية التي فتح عينيه يومًا فوجد نفسه فوق أرضها، وبين أناسها، وهبَّات نسماتها، يستنشق نفس العبير، ويطأ التراب عينه، وتهتز أردافه الصغيرة اليافعة معهم على رنين الأغنيات نفسها، لكنَّ عينيه الرماديتين ظلت تذكره دائمًا بأنه لا ينتمي إلى أخطاب، بأنه غريب، أو علَّه عابر سبيل قد نسي وجهته بعدما توقف هنيهة ليستريح، فطالت راحته، ولكنه موقن بأن وقت الرحيل آتٍ لا محالة!

المساء هادئ، وستار الليل مرصع بالنجوم الملتفة حول القمر، وعلى ناصية شارع كبير من شوارع أخطاب كانت حانة العمَّال ترقب المارة والعابرين، الحياة خارج الحانة شديدة السكون والهدوء، ومن داخلها تعج بالصخب، والغناء، والرقص، وتصافح كؤوس الخمر، وتطاير النبيذ، وتبادل السباب والنكات البذيئة، والصيحات المتناقلة من فم لآخر ومن أذن لأخرى...

وعلى مسرح الحانة الصغير المقابل للبار الواسع، وتحت دائرة الضوء المنبعثة من القنديل العجوز، جلس العم نَجم وعلى رأسه قبعته القشية المألوفة، بعدما برم شاربه الطويل، وابتسم؛ فظهر نابه الحديدي المميز، وضرب الأرض بحذائه الطويل ذي النعل القاسي كما هي عادة أهل أخطاب، صاح في السكارى المتعبين من العمل من حوله، وضرب بأصابعه أوتار قيثارته الملتصقة إلى صدره بحزام جلدي أصيل، وبدأ

بغناء أغنياته المحفوظة بين أهل القرية عن ظهر قلب، ورفع السكارى قبعاتهم القطنية والصوفية المميزة، والتي يطلقون عليها اسم الكاسكيت الأخطابي، وبدأوا يدندنون ويغنون بإيقاع ثابت خلف غناء العم نجم الرئيسي، وعزف الصغيرين الواقفين على المسرح من خلفه، الفتى ذي الأعين الرمادية المميزة إلياسين، وابنة العم نجم اليافعة دولسين.

مرت بهم الأعوام تلو الأعوام، والحال واحد، في الصباح يعمل العم نجم في ورشة النجارة الخاصة به على صناعة القيثارات، تناوله دولسين ما يحتاج إليه من مواد، وتدرج إلياسين عبر السنوات في معاونته حتى أصبحا يصنعانها سويًّا كتفًا إلى كتف، وفي المساء يقف العم نجم وحده تحت ضوء القنديل الهزيل فوق مسرح حانة العمَّال العتيقة، ومن خلفه يحمل إلياسين قيثارته، وتنفخ دولسين في نايها الحنون؛ فيصنع ثلاثتهم سيلًا عذبًا رقيقًا من الأنغام، يكللها نَجم بصوته الخجول، وبأشعاره التي تطرق أبواب القلوب؛ فيهيم السكارى المتعبون خلف أغنياتهم، ويتفاعلون، ويبكون، ويفرحون، ويرقصون، وتسافر عقولهم سفرًا إلى الأراضي التي نسجها لهم خيال العم نجم في أشعار أغنياته من خياله الخصب الخالص.

كان ذلك اليوم يوم أحد، وهو يوم العطلة الرسمية لعمَّال مناجم الفحم، يومٌ يأتي الرجال فيه إلى الحانة متزينين، عطورٌ فواحة، لحى مهذبة، وثياب مهندمة، وأكياس اكتظت بنقود عمل الأسبوع الشاق التعيس، يلتفون حول البار الواسع كما تلتف البهائم حول شاطئ النهر.

حلَّ المساء سريعًا، وامتلأت الحانة بروادها، امتلأت كؤوس الخمر بالنبيذ والجعة والمشروبات، وتراصت أطباق المقبلات المجففة، وانخفضت الأضواء إلا من ضوء القنديل الذي وقف تحته نَجم يداعب أوتار قيثارته مع النغمات المنبعثة من خلفه...

ثم أنشد بصوت معاتبٍ حزين...

يا قمر يا رغيف بعيد...

النهاردة الحدّ عيد

الفقير ليه مش سعيد؟

والغُناي ليه مبسوطين!

يا قمر يابو عُمر لسَّه... العباد عـ الحانة كابسة

عايزة تنسى... عايزة تنسى

والغُناي لو يسكروا... يبقى لاجل يفكروا

يسرقوا مـ المسروقين![1]

تلك الليلة لم يطرب الرواد من الأغنية ولم يتفاعلوا ويرقصوا، دعك من أن الإيقاع كان هادئًا لا يشجع على الرقص، فلقد كانت الكلمات حقًّا قاسية، يدوي رنين صداها في الصدور المتعبة؛ فتنفطر منها القلوب الحزينة بكاءً على الحال والمآل وضنك المعيشة والأيام، تلك الليلة لم يسعد الرواد بالأغنية الجديدة مقدار ما حزنوا على أنفسهم، وتلك هي المزية التي يحب الناس العم نجم لأجلها، كان العم نجم صوتهم وصوت ضمائرهم اليقظان الذي لا يعرف النوم ولا الخمول، كان صادقًا، ثابتًا، يقينًا كشعاع الشمس الذي يخترق الغيوم في يوم شتاءٍ كئيب، كان العم نجم نجمهم المرشد في صحراء الحياة المضيعة، كان قنديلًا، وكانوا يلتفون جميعًا حول ضيائه في أحلك الليالي وفي غياهب الظلمات، يستدفئون بصوته، ويستبشرون بأغنياته، ويطمئنون بابتسامته الخجولة التي تخبرهم بأن في ليالي الظلمات وغياب القمر حلمًا وليدًا، وأن هناك أملًا بعيدًا، وفجرًا جديدًا...

❦❦❦

---

(1) من قصيدة الخواجة لامبو لعبد الرحمن الأبنودي.

اخلع نعليك إنك في زنزانة المعاتيه المقدسة...

حيث الظلام أوج الضياء، والموت سر الحياة، والفناء بريد الخلود...

هنا... في زنزانة المعاتيه، حيث اجتمعت الأضداد واتحدت في ليالٍ مظلمة مقفرة بلا قمر، هنا زنزانة المعاتيه المقدسة، هنا الآمال الزائفة، والحدائق الخربة، والأرواح التعسة، والجسور المحطمة، وبقايا الإنسان، هنا الإنسان الحق، دون أي زيف أو تجميل للحقائق المتعسة، هنا... حيث خلع الإنسان ثوب إنسانيته الشريف، وارتدى البهيمية في وضح النهار... هنا حيث البقاء يعني الدمار، حيث أن التنفس بذاته ألم شديد وعذاب! إذ إن التنفس يعني أنك ما زلت على قيد الحياة، وأنك ما زلت في زنزانة المعاتيه!

في جوف لوراسيا، فوق المنخفض العظيم، على مرمى حجر من الصحراء المحرقة وعلى مد البصر من كوم الحطام المشئوم، حيث البئر اللعين راقد رقدة اللحود الأبدية شاهدًا على ما جرى من قبل بين الأمم الثلاث المنهزمة، قبل الزمان والإنسان والنسيان، وقبل تحطم الجسور، وقبل انخراس الضمير، وضياع الصوت في فضاء من العدم، وقبل بدء الكون، وسماع ضجيج الحياة، وصخب الأحياء... فوق تلك البقعة المشئومة من أرض لوراسيا المعظمة، بنى الأدميرال فيدل بأمر مباشر من الأهواز مشروعه الأكبر، وإنجازه الأعظم،

حيث زنازينه المهولة المفزعة التي أطلق عليها اسم... زنزانة المعاتيه!

في زنزانة المعاتيه ما فيها من أفاعيل يشيب لها شعر البدن بأكمله، وفيها ما لا يطيب ذكره من أصناف التعذيب والانتقام. بنيت تلك الزنزانة الضخمة مباشرةً فور أن استولى الأهواز على لوراسيا وتملكوا زمام أمورها، لم تُبْنَ كي يُرسل لها المجرمون والسفلة والخارجين عن القانون وغيرهم، وإنما بُنيت حتى يكون من دخلها عبرة لغيره!

في زنزانة المعاتيه لم يمت أحد من قبل ولن يمت، فتلك ليست الحكمة من بنائها كما أشار إلى ذلك القدير قسورة صاحب الفكرة بنفسه، بل إن من دخلها يومًا لا بد له من يوم يخرج فيه منها، ويراه الكون بأسره ويلحظه، ويأسف له وعليه.

البهو كبير وفسيح لا انتهاء له، وعلى جانبيه اصطفَّت الغرفات الكئيبة المبنية بحجارة مرصوصة مصمتة، لا ريح تخرج منها، ولا هواء يدخلها إلا ما استطاع أن يتسلل من أسفل الباب الحديدي الصدئ العتيق، ومن أسفل الغرفات غرفات أخرى تحت الأرض، لا يُسمع لها صوت، ولا يُعرف لها طريق، يدخلها المرء فيُنسى ويمحى من ذاكرة لوراسيا والأحياء تمامًا كأنه لم يُولد قط!

في أقصى الرواق كانت غرفة شديدة الضيق نتنة الرائحة لا ملجأ ولا منجى منها، ولا متنفس، ولا بصيص نور أو أمل... نام فيها مقرفصًا - إذ إن ضيقها لا يسمح له بالتمدد - واحتمى بساقيه المضمومتين نحو صدره، وأسند ظهره المحني العجوز إلى صقيع الجدار من خلفه مستسلمًا لدوامات الأحلام والذكريات.

هو أقصر الملوك عمرًا في تاريخ الإنسان، لم يرتدِ التاج الملكي على رأسه إلا وانتُزع منه في لحظتها، لم يُمهل حتى لينظر كيف يبدو والتاج على رأسه! من أسطى إلى ثائر، ومن ثائر لملكٍ، ومن ملك إلى معتوه كبير يصرخ من زنزانته الكئيبة؛ فيتردد صدى صرخاته في الرواق الضيق تحت الأرض...

«أنا الملك...

ملك اللحظات والهفوات والغفلة...

مملكتي بُنيت في لمح البصر، وتلاشت في لمح البصر...

وأناسي ناسٌ ينسون! ذاكرة كالأسماك، شعب تجمعه بكلمة، وتفرقه بكلمة!

وبقيت وحيدًا لا أملك من زادي غير الحرمان...

الليل طويل لا يفرغ...

والموت عليل لا يحضر، والغد ثقيل لا يخطو إلا بأذان...

والشمس حرام في وطني... وطني لم تصمد أركانه، بقي الكرسي مع التاج...

وضاعت الأوطان!

وطني مسجون بجواري!

غير أن الجدران تمنعه من سماع صراخي وبكائي...

أنا الملك يا وطني... أنا الملك أيها الأهواز الملاعين... أنا الملك زيان قاهر السكندريين والعنقاء والجان، ومحرر الإنسان من قيد العبودية في جحيم المناجم وقيظ النجم الأكبر... أنا الملك زيان!»

يسمعه البعض فيسخرون، يضحكون ويهيجون بالصراخ والنواح والاستهجان بالصافرات الكالحة المنفرة، فيزيد صراخًا وعنادًا واستكبارًا، يصرخ مجددًا «أنا الملك»، فيأتيه الصدى الساخر...

«وأنا إلياس... وأنا خيسيه... وأنا ستيفان».

ويقلد أحدهم صوت المخنثين، فيصرخ متغنجًا «وأنا الأم الحنون»، فيضج السجناء في نوبات ضحكٍ هستيري متصلٍ يقضون به على سأم الانتظار اللامنتهي، لا ينقطع إلا على صوت هراوات الحرس، وعويل ذئابهم ونباح كلابهم

وحيواناتهم المفترسة، فيأتي الحارس الهوزي المعهود، يفتح زنزانة الأسطى زيان وعلى وجهه علامات الأسى والشفقة، يدنو منه حالمًا، يهدهد كتفه بروية وابتسامةٍ هادئة، فيقول له الأسطى زيان باكيًا وكأنما قد خارت قواه...

«أي بني... ألا تعرفني؟!

أنا ملك اللحظة، وتعيس الحظ الأبدي...

أنا زيان الشمالي... كبير أسطوات مناجم النحاس والذهب، وزعيم ثوار عمال المناجم، وثالث الرفاق الجدد، كان إلياس وخيسيه صديقيَّ، يحادثاني كما أحادثك الآن، كان إلياس رفيقي، قاتلت بجواره، وهتفنا سويًّا...

ما الذي حدث يا بني؟»

فيبتسم الحارس وهو يمط شفتيه يمصمصهما، ثم يسأل...

- أنت الملك زيان حقًّا؟!

فيهز زيان رأسه بشدة؛ فتهتز لحيته الشعثاء معه، وتتطاير الدموع من عينيه ووجهه مصدقًا على سؤال الحارس الذي يربت على كتفه برفقٍ مرة أخرى، ثم يسأله...

- ألا تعرفني؟

فينفي الأسطى زيان، وعيناه تشي بالسؤال المنتظر... من أنت؟!

- أنا الرب المتكبر.

تنقلب الملامح الحالمة المشفقة في غمضة عين إلى تهكم وتشفٍ لا تصفه الكلمات، يلقيها الحارس في وجه الأسطى زيان بسخرية لاذعة ينخرط بعدها والمساجين في نوبات الضحك المتعالية مرة أخرى، ثم يهوي بهراوته بكل قسوة على جسد زيان المترهل السمين، ويركله ركلًا في جانبيه، وتنفلت منه رباطة جأشه؛ فيضرب ما شاء الله له أن يضرب، وزيان العجوز لا يجد حيلة سوى التواري خلف ذراعيه المرتعشتين المنتفختين من كثرة الضرب، ويخفي وجهه كي لا يصاب، ثم يتقوقع على نفسه متواريًا في الركن الصغير للزنزانة الكئيبة مستسلمًا متواريًا حتى يسأم الحارس من الضرب فينصرف، فيعود زيان لسيرته الأولى، يبكي حاله ويشكو الزمان!

حتى أتى يومٌ قريب، وبعد الحدث اليومي المعهود، ونواح الملك المعزول، وتهكم المساجين المعاتيه، فتح الزنزانة حارس هوزي بالزي الأبيض الثابت، والأحزمة الجلدية حول الخصر ومن أعلى الكتف، والهراوة القاسية في يساره، وباب الزنزانة ينفتح بيمينه، كان الحارس غير الحارس، الوجه غير الوجه، واليد حانية، هدهد الحارس الجديد كتف

الأسطى زيان، وسار بأنامله على خصلات شعره المشعثة، نظر إليه الأسطى بنفس النظرة الحزينة، ولكنه صُعق لما رآه!

- جاك!

نطق بها وكأنها مفتاح الفرج، تلعثم اللسان وتقافزت الحروف تائهة، لم تتراص بشكل جيد وسط النشيج الذي انفتح فجأة فور أن رآه! بكى الرجل العجوز بكاءً لم يبكِ مثله قط، وكأنه حصاد السنوات، كبكائنا على الصدر الذي خُلق كي نبكي فوق نبضه، بكى الأسطى زيان كثيرًا وهو يتمعن بأعينه الدامعة التي كادت تهلك من شدة البكاء في وجه الفتى جاك الذي لم يعد فتى كما كان... قد شاب كثيرٌ من شعره، ونمت له لحية كثة، واكتسب وجهه صلابة وجلادة لم يكتسبها من جحيم المناجم وصراخ الأسطوات، صلابة وجلادة جعلت وجهه شديد السماكة، ثقيل الحركة، ترتسم التعابير عليه بصعوبة شديدة، فتراه يضحك وما بوجهه علامات ضحك، ويبكي وما على صفحة الوجه تعبير يُذكر!

همس جاك في أذن العجوز الباكي بأمرٍ مشفق...

- تمالك نفسك أيها العجوز، ولا تشي بأمرنا، غدًا لناظره قريب...

فنظر إليه الأسطى بعدما جفف دموعه، وطأطأ رأسه مجيبًا، ثم استند للجدار الذي اختفى صقيعه فجأة، وانغلق الباب مجددًا، وعاد الظلام للزنزانة الكئيبة مرة أخرى، غير أن لمعة برقت من أعين الأسطى أنارت الزنزانة، وقضت على ظلامها التعيس! لم يعد لسانه قادرًا على التحدث، وكأنما كفته النظرة الباسمة في هذا الموقف، كم كان اللقاء لذيذًا حارًّا، انتظره الأسطى منذ سنوات على نيران لظى المحرقة، آهٍ لو رأيتم ما رأى، وشعرتم بما شعر به، لعلمتم كيف أن نظرة باسمة لم تدم لثوانٍ كانت كافية أن تسعد قلبًا تفتت من شدة الحزن والأسى، قلبٌ تجرع العلقم مع كل نفسٍ، ورأى التعاسة في لون الصباح، وعلم أن الآتي ليس خيرًا فاستبطأ الموت، فعاجل الموت الفرج... عاجل الموت الفرج...

وهكذا الأيام تمضي تحت شمس لوراسيا المعظمة!



(٣)

تعالت صافرة القطار في محطة أرض الشمال المحتل من قِبل الأدميرال فيدل ومواطنيه من مهاجري أرض إيفريقيانوس العجيبة التي لا يعرف عنها حتى الآن شيئًا. كان واقفًا ببذلته السوداء المعتادة ذات القصاصات والشرائط الذهبية أعلى الكتفين، ترقد تحت إحداهما قبعته العسكرية مطوية في سلام، وتثاقل الصدر بنياشين البطولات التي لم تحرز، والمعارك التي لم يشارك بها، ولم يعاصرها حتى، ولكن هل سيفتش أحد خلف كل نيشان؟!

البخار الكثيف كاد أن يذهب بالأبصار، ثوانٍ معدودة انقضت، وانقضى معها بخار القطار بعدما مر من خلاله الفوج الملكي الكبير بالثياب البيضاء المميزة للأهواز التي لا تفرق بين غنيهم وفقيرهم، ابتسم الأدميرال فيدل وهو يمدُّ يده مصافحًا القدير قسورة الذي كان يمشي بتؤدة وعلى مهلٍ يجر

خلفه إزاره، وبِكره صخر، وأخاه رمَّاح، وبقية الفوج الهوزي الكبير.

على الناحية الأخرى من رصيف المحطة كان عمَّال السكة الحديد ذوو الثياب الزرقاء الموحدة مكدسين تحت مظلة واحدة، تشرئب أعناقهم كي ترى كيف يبدو ذلك المدعو قسورة، وما هي حقيقة أسطورة الأهواز قاهرة لوراسيا بأممها الثلاث، تزاحموا وتجمهروا حتى كاد أن ينكفئ على وجهه، من بينهم رجلٌ هزيل الجسد، متوسط الطول، يميل إلى القصر، له شعر فاحم شديد السواد والكثافة، ولحية كثة ثائرة، وعين كحيلة بلا كحل، سوداء كأنها ظلمات عصر الأم الحنون وستيفان السكندري، مليح، حسن التقاسيم والملامح، وطيب القول والعمل، كان العامل الأشهر بين عمَّال السكة الحديد، وكان لينًا، هينًا، رقيقًا، عذبًا، سهل الإرضاء والاقتناع، أحبوه حبًّا جمًّا، ولمحبتهم له ولحسن صورته وسريرته أسموه الحسن، ولشدة هزله ونحافته صغروا اسمه ليكون مناسبًا مع هيئته، فكنُّوه بالحُسين، كان الحسين واقفًا كغيره على الرصيف المقابل يرقب المشهد المهول، والاحتفاء العظيم الذي أبداه الأدميرال فيدل بعد أن انحنى بنفسه ليبدي تحية الإجلال والتقدير لملك لوراسيا الهوزية القدير قسورة بن جلمود وحاشيته الغفيرة، وزلت

قدمه النحيفة من شدة الاندفاع والتجمهر فكاد أن يسقط على القضبان الحديدية أسفل منه، لكن أيادي عديدة امتدت في وقتٍ مناسبٍ لتلتقطه، وتمنعه من ارتطام لن يتحمله جسده الهزيل، فشكر لهم الحسين ذلك بوجهٍ يكاد يستعر من شدة الحياء، وبوجنتين ملتهبتين، وبصوتٍ خافتٍ لا يكاد يُسمع، ثم ولى مدبرًا، ولم يعقب حتى انتهى الموكب، وغادر الفوج والحواشي، وعادت المحطة إلى سيرتها الأولى.

في أفخم فنادق الشمال على الإطلاق، حيث كل ما يدور بذهنك حاضر ومتاح مهما كان نادرًا، ومهما كان متناقضًا، نساء وخمور وملاهٍ ليليةٍ ومعابد، صخب وهدوء، ازدحامات وتجمعات مكتظة بالبشر، وخلوات لا يسمع فيها صوتٌ لنفس!

نزل الفوج الملكي الهوزي بأكمله في جناح أعد لهم خصيصًا، تحمس رماّح بما شاهده من أمور تذهب لب العقل لا تتوفر في الغرب بتلك الجودة على الأقل، وكان شديد الشوق واللهفة لزيارة الحانة الكبيرة، وذلك أنه سمِع أقوالًا تزعم أنها أشد فتنة من حانة السيدة ليزا! وأما خيسيه فلازم صخر الذي فضَّل النوم باكرًا حتى ينتهي من تلك الزيارة التي قدمها على مضض، هو لا يعلم لِم أصر ذلك الديك الأحمر – كما يحب هو أن يطلق على الأدميرال فيدل – على القدوم

إلى الشمال، وتكلفتهم عناء السفر والمسير ولو بالقطار، هم الملوك لا هو، ولذلك كان حريًّا بالقدير قسورة ألا يجيب دعوته المهينة تلك، وأن يأمره هو أن يأتي خاضعًا ذليلًا يقدم فروض الولاء والانحناء والطاعة، ثم يعرض حاجته بكل أدب وخضوع يرقب من طرفٍ خفي وجوههم، ثم يبتسم عندما يستمع لكلمة الرفض الأليمة، فيعود إلى الشمال الذي استحوذ عليه كالأفاعي مخزيًّا خائب الرجاء...

لكنه القدير قسورة على كل حال، بتصرفاته الملائكية، وحكمته النورانية، ورفقه الزائد عن الحد، لا يرفض طلبًا من أحد، ولا يغلظ القول على كائن من كان، لقد ابتسم حين سمع احتجاجات صخر ولعنه وذمه للأدميرال ونواياه، وقال بهدوء شديد إن من مكارم الأخلاق ألا ترفض دعوة من دعاك، وكيف أجاب الدعوة قسورة؟ ها هو يرفض النوم في غرف الفندق وعلى أسرَّتها الوثيرة الدافئة الحانية، ويفضل النوم في خيمته التي جلبها خصيصًا من الغرب حتى يفترشها في ركنٍ هادئ من حديقة الفندق، يتوسد تحت ظلالها البائسة كومة من الخيش والصوف الذي يرتع فيه البق والبراغيث بعدما قام بغرس وتد صغير بجوارها يعقل فيه زوجًا من صغار الماعز جلبهم معه في رحلته... غريب أمرك أيها القدير قسورة!

في الصباح...

التف الجمع حول مائدة الإفطار، المضيف والضيوف، عدا رمَّاح الذي أتى متأخرًا متكاسلًا يفرك عينيه بكلتا يديه كما كان يفعل في صغره من أثر النعاس، ثم دنت من خلفه نادلة المائدة تتعمد أن تلصق ثدييها بكتفه وهي تملأ كأسه بالخمر الشمالي، فابتسم رمَّاح مواريًا صفحة وجهه عن الأعين المبحلقة، يواري بفخذيه ما بين ساقيه، ولم يكترث أن الحيوانات المنوية ما زالت تتقافز في إزاره منذ البارحة!

– أرى الوجوه موردة، وللأنفاس شذى فواح.

قالها فيدل مداعبًا رمَّاحا، فضحك ولم يعقب، بل مدَّ يده نحو عروس المائدة، وكان غزالًا مشويًا، ثم التهم من لحمه بنهمٍ شديد، وغاب بتلذذه عن الحديث الذي دار في المجلس، ولم يفق إلا على وجه أخيه صخر المحتقن يتساءل زافرًا:

– هلا أخبرتنا سر الدعوة وأرحتنا؟
– انتظرت منك هذا السؤال البارحة (ضحك بشدة وهو يخترق أعين صخر، ثم قال بجدية أكثر) لا شيء أحب إلي من الصراحة والحديث المباشر، واختصارًا للوقت فقد دعوتكم كي أعرض عليكم أعظم الأفكار التي داعبت خيالي على الإطلاق.
– وما غير ذلك سيكون سببًا لرؤيتنا!

ألقاها صخر وكأنما فهم المراد منذ الأزل، وأشاح بوجهه بعيدًا فعاجله القدير قسورة بنبرة هادئة هامسة، وهو يضرب على كتفه برفق...

- هلا سمعنا الفكرة أولًا، علَّها تستحق المسير!

استجاب صخر لأبيه، وتنحنح الأدميرال قبل أن يشرع في عرض فكرته الجديدة، والتي كانت عبارة عن مدينة ضخمة، عاصمة جديدة كما أطلق عليها، تنهض فوق المساحات الشاسعة الممتدة للمنخفض العظيم، قطعة من فردوس السماء كما وصفها الأدميرال، قصور وأكواخ رائقة تتهادى فوق أنهار من العشب الإستبرقي المحبب للأنظار، وملهى كبير في المنتصف فيه يغاث الناس وفيه يعصرون، وحوارٍ من جنات النعيم، بنحورٍ مرمرية، وأثداء مدللة، وخصور مصبوبة صبًّا، وفرق موسيقية وصخب وضجيج وطرب، أموال تنفق هنا وهناك، وملذات تستنفد في النعيم الجديد الذي يحلم الأدميرال بإنشائه فوق أرض المنخفض العظيم.

- والبئر؟!

تساءل خيسيه لأول مرة مذ جلس، فانزعج من السؤال فيدل وكأنما استنكره، أو كأنما استقبح أن يكون هذا هو أول ردٍ على مشروعه العظيم الذي يحلم به؛ فحنق أشد الحنق وارتسمت

فوق جبهته آحاد الضجر، لكن ذلك لم يمنع القدير قسورة من الحديث فقال بسمت الحكماء...

- من الصعب استغلال أرض المنخفض العظيم، فهي الأرض الوحيدة التابعة للأمم الثلاثة، ونحن لا نريد إشعال نيران الحرب مجددًا.
- ليست المشكلة في الأرض فقط، بل في زنزانة المعاتيه التي هي على مقربة من المنخفض، والأكثر أهمية هو كوم الحطام اللعين الذي يرقد فوق أرض المنخفض العظيم منذ سنوات، ولم يقدر أحد على المساس به.

قالها صخرٌ فأتاه الرد...

- زنزانة المعاتيه... أها!

نطقها فيدل بخبثٍ، وكأنما يرمي لشيء ما، ثم تساءل وهو يتلاعب بلسانه بين فلجات أسنانه...

- عن أي حطام تتحدثون؟ أي بئر... وأي أمم ثلاثة؟!

قال رمَّاح:

- حطام البئر... إنهم يقدسونه تقديسًا إلهيًّا، الصفر والرعاة وبنو الأصهل!
- البئر... بئر أبناء الرب.

قالها خيسيه، فقال فيدل متجاهلًا...

- إن المدينة الجديدة ستجذب أغنياء إيفريقيانوس دون تردد، وستكون مصدر ثراء للمملكة ولكم، وستـ...

قاطعه صخر...

- إن مدينتك التي ستبنيها فوق حطام بئر أبناء الرب المنهدم لن تجذب لنا أموال سفهاء إيفريقيانوس فحسب، بل إنها ستوقظ الأحقاد الدفينة في صدور من تبقى من الأمم الثلاثة نحو الأهواز، وربما ساقتنا نحو حروب وثورات نحن في غنى عنها...

ضحك فيدل ملء شدقيه، فاستنكر صخر ضحكاته...

- ولِم الضحك!
- أنا لم أسمع بهؤلاء من قبل... أليسوا هم صعاليك الجنوب!

ثم بشيء من الجدِّ قال:

- يا قوم أنتم الآن ملوك، فإن ظللتم متوجسين خيفة من رعاع الجنوب ومن غضبهم؛ فاتركوا البلاد لهم يحكمونها بقوتهم وبطشهم الذي تخشونه وأنتم في أوج قوتكم، وهم في شدة ضعفهم!

نطق رمَّاح، وكان خيسيه قد همَّ بالكلام فقال...

- إن المساس بحطام البئر سيشعل نيران الغضب في الجنوب، وسينهي شتاتهم الذي تسبب في ضعفهم حتى الآن، وسيتوحدون ضدنا، وهو ما يجعلنا في خطر شديد.

ونطق من بعده خيسيه...

- إن آل الجنوب منقسمون إلى حزبين كبيرين، عبيد إلياس وهم من تبقى من الرعاة وبني الأصهل، والصُفر الذين تجمعوا حول ساحرهم صاموئيل السكندري... وكلا الحزبين يقدس حطام البئر لغرض يخصه، فعبيد إلياس يهيمون شوقًا وعشقًا في كل شيء مسَّه أثر إلياس، وحطام البئر يذكرهم بتوحدهم تحت رايته، والصُفر يرون في البئر رمزًا للعصر النحاسي الذي أنشأه ستيفان السكندري ساحرهم الهالك، وكِلا الحزبين وإن كانا أشد عداءً لبعضهما من عداوتهما لنا، ولكن أي اقتراب من الحطام سيجعلهما أشد عداءً لنا مما سبق!

وأردف صخر مؤمنًّا...

- بل ربما قادهم للاتحاد ضدنا!

فابتسم فيدل هازئًا وتساءل...

- وما الذي يخيفنا منهم إن هم غضبوا أو أشعلوا ثورات؟! ما زلت لم أفهم سر جبنكم يا قوم، نحن ملوك الأرض

لا هم، نحن الأغنى والأقوى، نملك رجالًا مدربين وهم صعاليك ضعفاء، نملك رصاصًا وبنادق، وهم أضعف من أن يحملوا السيوف، فليغضبوا كما شاءوا، وإن صدر عنهم أي شيء سنبيدهم في الحال!

قال رمَّاح متحفزًا...

- إن الأهواز لم يكونوا قط جبناء، وسل عنَّا التاريخ إن شئت.

ابتسم فيدل نصف ابتسامة ساخرًا، وقال القدير قسورة بحكمة:

- أيها الأدميرال... القوة بعض الأحيان في السلاح والذراع، لكنها أكثر الأحيان في الذكاء والفطنة، وبناء المدينة فوق حطام البئر سيثير غضبًا عارمًا لا نريده.

وأردف صخر...

- كما أننا لسنا في غنى عنهم كي نبيدهم، فما زالت الخمور تُعصر في الجنوب، والحبوب والثمار واللحوم، كلها تأتي إلينا من الجنوب، فلا بد من الحفاظ على السلام، وتجنب الحركات التي ستثير استفزازهم وعصبيتهم.

لم يدرِ فيدل ما الذي يحدث حوله، وكأنهم تحزَّبوا ضده، وأحس لأول مرة بأن خطته التي وضعها لا تسير كما قدر لها

وهو ما أسكته بعضًا من الوقت، يبدو منصتًا لهم لكنه في عالمٍ آخر، يحاول فيه جمع شتات عقله وتركيزه، يحاول التغلب على ذلك الانغلاق الذي حلَّ بتفكيره فجأة، ولكن يبدو أن فترة الصمت قد طالت حتى ظهر بمظهر المُفحَم بالكلام الذي لم يستطع ردًّا، ولم يجد حيلة سوى الصمت، فقال زافرًا وهو يجاهد للحفاظ على هدوءه ورزانته...

- نحن في عصر الأهواز... يا ملوك الأهواز! إن خفتم من غضبتهم الآن وأنتم في أوج يقظتكم وقوتكم وهم في عميق سباتهم وشدة ضعفهم؛ فمتى تسيطرون وتفرضون شروطكم وقيودكم وقوانينكم؟!

فقال صخر حانقًا...

- إنها فكرة فاشلة، وستقودنا نحو حرب وصراع وثوراتٍ لا مناص منها، وليس لنا فيها ناقة أو جمل...
- لا مناص... أم لا طاقة لكم بها!

كان فيدل يتثعلب في كلماته، ينتقي من الكلمات ما يثير نفوس محدثيه، وترك آثارًا وندوبًا، تلك سياسته المعهودة، وتلك طريقته في عرض آراءه وأفكاره، ولكن يبدو أن الصدور قد ضاقت بطريقته تلك إذ انتفض صخر من مكانه وقال وهو يضرب المائدة بيمناه...

- بل لا طائل منها... أخبرني يا أدميرال، يا ترى من سيسكن تلك الجنة التي تطمح أن تبنيها؟! أتراها لنا؟ للأهواز وآل لوراسيا، أم أنها لك وللقطاء ذوي البشرة البيضاء المائعة من الأرض الآخرة؟!

ابتسم فيدل وهو يستمع إلى صخر، ابتسم ولم يعقب، صمت وكأنما على رأسه الطير، وهنا آخذ الحوار منحى آخر، فقال صخر نافثًا غضبه مع الكلمات...

- لقد علمت أننا قطعنا تلك المسافة هدرًا...

نظر إليه فيدل بحدة شديدة، ولم ينبس ببنت شفة، لكن حدة النظرة أغضبت صخر أكثر فأردف...

- كان أولى بك أن تأتي أنت إلينا لتعرض أمنياتك وأحلامك، وتنتظر منَّا إجابتك... أما أن تحملنا فوق عربات القطار الخانقة ذات الصوت المزعج والاهتزازات العنيفة لنقطع مسافة ليالٍ، فليس هذا بمقام ملك لوراسيا وحاشيته المقربة!

ابتسم فيدل وهو يستمع إلى صخر، ثم قال متثاقلًا وهو يعي ما يقول...

- يا بني، لا تدع رغد المعيشة في لوراسيا تنسيك ضنكها في إيفريقيانوس، ولا تجعل الفرش الوثيرة تنسيك قسوة

الأرض التي افترشتموها من قبل، وكان من الممكن أن تفترشوها حتى يومكم هذا...

- إن الأهواز لا يتناسون جميلًا يا رجل، ولكن الجميل قد قوبل بأضعافه، والدين قد سُدد مرارًا، والأهواز - إن نسيت - قومٌ ذوو عزة وكرامة، ولا نقبل أن يهان قديرنا بهذا الشكل!

انتفخت أوداجه، واحتقن وجهه وهو ينطق بكلماته، وفي المقابل بدا الأدميرال أكثر هدوءًا ورباطة جئش - على غير العادة - ومتمالكًا أعصابه، بدا كلوح ثلج بتعبير أوضح، ناظراه على أصناف الطعام الموضوعة على المائدة الكبيرة وكأنما يحصيها، ونبرته هادئة وكأنما ينطق بحقائق قد تعارف الناس عليها وأقروها، ثم قال...

- إن الحرية دين لا يسدد...
- لو كنا نعلم أن العبودية في إيفريقيانوس ستجنبنا وجهك الكالح لما تحررنا قط أو فكرنا، ولكننا خلصنا من قيد إلى غلٍّ، ومن سوط العبودية إلى مرارة المنِّ والعيش كالخفافيش، تمتص دماءنا وتعيش على ما نجنيه بأيدينا!

لم ينظر فيدل إلى صخر قط أثناء مقولته، حتى إذا انتهى منها نظر إليه مبتسمًا هادئًا شديد الثقة، ثم قال ببرود شديد...

- أي بني... نحن آلهة بالنسبة إليكم!

وكانت هذه المقولة كالقشة التي قصمت ظهر البعير، هبَّ صخر من مقعده ضاربًا المائدة بيمناه فأسقط الطعام والصحون بعضها على بعض، وقال صارخًا دون أن ينظر لأحد...

- إني عائد للغرب... من خرج من داره قلَّ مقداره!

ظل القدير قسورة ورمَّاح جلوسًا مكانهما ولم يتبعاه، فهم يعرفان صخر حق المعرفة، فلطبعه نصيب كبير من اسمه، فهو كالصخر العتي، شديد العند، وشديد التشبث بالرأي، وقوي العزم، فإن قال صخر إنه عائد إلى الغرب، فلا ترهق نفسك بمحاولة إثنائه عن العودة، فهو عائد لا محالة، ولهذا ظل القدير قسورة ورمَّاح مكانهما ساكنين ينظر بعضهم إلى بعض بين الحين والآخر، وأما خيسيه فهرول خلف صخر، علَّه يثنيه عن قراره!

***

أقصُّ عن الحسين...

ذلك الضئيل الهزيل الذي بالكاد يُلحظ أو يُرى، يظل واقفًا متكئًا على إحدى جدران المحطة ممسكًا دفتر التذاكر في

إحدى يديه، وبالأخرى يحمل كوبًا ساخنًا من الشاي الرخيص غير النقي الذي يعده العمال لأنفسهم في زاوية خصصوها كمطهى لهم في المحطة. يرقب بعينيه الكحيلتين المارة ذهابًا وعودة، يلتقط أدق تفاصيلهم وتصرفاتهم التي يراها في بعض الأحيان غريبة، وفي البعض الآخر مدعاة للتأمل والتفكر...

ينظر بتأنٍّ إلى ذلك العجوز الذي يهرول نحو العربة كي لا يفوته موعد القطار، وكأنما لم يفته قطار قطُّ في أي محطة سابقة... من محطات عمره الذابل المنصرم!

يتمعن كيف أن تلك المرأة تتبع في حرص شديد خطوات عمَّال المحطة الذي يحملون عنها حقائبها، وتصرخ فيهم كل لحظة أن يترفقوا كي لا ينكسر ما في الحقائب من أمتعة لا بد وأنها ثمينة، وكيف أنها في الوقت نفسه قد نسيت أن لها طفلين، تمسَّك أحدهما بطرف ثوبها كي لا يضيع منها، والأخرى قد تلَّهت في دنيا المحطة وغرائبها؛ فتأخرت عن أمها خطوات عديدة، ولم تلحظ غيابها...

يتعجب من تلك البذلات التي أصبحت تفرق بين طبقة وطبقة، وتلك الفساتين التي أصبحت تميز بين فتاة وفتاة، وكيف أن فستانًا غاليًا حوَّل من ترتديه من عاهرة منبوذة إلى سيدة ذات وقار، وكيف أن بذلة فاخرة حولت لصًّا بداخلها إلى سيد جدير بالاحترام، وكيف أن سيجارًا أصبح عنوانًا

لآل الشمال الجدد، المنحدرين من الأرض البعيدة، أرض اللالوراسيا العجيبة، وكيف أن أقمشة بالية مرقعة بلا لون حولت الشرفاء بداخلها طبقات دنيا، مبتذلين، ممتهنين، يُطاؤون بالأقدام تحت الأحذية المصقولة والكعوب شديدة الارتفاع، وكيف أن دخان السيجار صار يزاحم هواءهم النقي فلوثه، وأصابهم بالاختناق، وكيف أن كل شيء في لوراسيا أصبح مُقاسًا بذلك المعيار وبتلك القسمة الغريبة، حتى القطار الذي مهمته أن ينقل الناس من محطة لأخرى، قسَّموه إلى درجات ثلاثة: درجة أولى للأغنياء والنبلاء، مقاعد مريحة ووجبات شهية، وخمور صافية، وكل شيء من طرازه الأول، ودرجة ثانية لمتوسطي الحال، ممن هم محصورون بين الأرض والسماء، فلا هم يحلقون فيها كالأغنياء، ولا هم يسقطون نحو حضيضها المخزي كالفقراء، ودرجة ثالثة، وهي لعامتنا وسوادنا الأعظم، لا طعام لهم أو شراب، وبالكاد يجلس منهم نفر قليل على مقاعد قاسية، ويزاحم بعضهم بعضًا على موضع قدم يقف فيه طوال الطريق...

وقف الحُسين متشحًا رداءه الأسود الصوفي المعهود، يرتديه فوق البذلة الزرقاء المميزة لعمَّال السكة الحديد؛ كي يقي صدره الضعيف ورئتيه الخفيفتين من أي نسمة عابرة لن يقوى على ردعها!

يرتشف بين الحين والحين رشفة من الشاي، ثم يتمتم هامسًا...

على محطات القرى...

ترسو قطارات السهادِ...

فتنطوي أجنحة البخار في استرخاءة الدنو

والنسوة المتشحات بالسواد

تحت المصابيح

على أرصفة الرَسْو...

ذابت عيونهن في التحديق والرنو

على وجوه الغائبين... منذ أعوام الحداد![١]

قضى الحسين عمره يتأمل الناس وأحوالهم وتقلباتهم، لا تشغله أموره وهمومه بقدر ما تشغله هموم الآخرين ومشاكلهم، فعاش عمرًا بأسره، بضعة وثلاثين عامًا قضاها يستمع، لا همَّ له سوى الإنصات، وبعد عميق الإنصات واستيعاب ما يقع على كهول الشاكين والمتذمرين من هموم... تخرج من بين شفتيه كلماتٍ كالبلسم الشافي، يداوي بالكلمات جراح الناس وندوبهم... كان الحُسين نقيًّا، شفافًا،

---

(1)من قصيدة: الموت في الفراش - أمل دنقل.

كان قنديلًا مضيئًا والكون من حوله ظلماتٌ بعضها فوق بعض!

تزوج الحُسين في الأعوام المنصرمة من فتاة تصغره بعامين وبضعة شهور، كانت ذات جمالٍ هادئ ورقيق، وتجمَّلت بكل الصفات التي أحبها الحسين واشتهاها يومًا ما، وما جمَّلها في عينيه، وجعلها بغيته بحقٍ هو قدرتها الفائقة على فهمهِ، فكانا على درجة عالية جدًّا من التفاهم والتشابه، درجة شديدة العلو، ربما لم يصل إليها أحد من قبل، لم يختلفا قط، كانا يتفاهمان من نظرة، ومن عثرة، ومن شردة ووجوم، تفاهما حتى امتزجا وانصهرا وائتلفا، تفاهما... حتى تسلل بينهما الملل، وزهد أحدهما في الآخر! كانا كقطبي مغناطيسٍ متشابهين... فتنافرا، تفاهما حتى قلت الحاجة للكلام، ولِم الكلام، وكل شيء واضح وجليٌّ؟! أعرض أحدهما عن الآخر آيسًا حتى تناسيا، وتحول أحدهما في نظر الآخر إلى أثاث يراه كل يوم في المنزل، ذلك الذي ضاق عليهما من فرط الملل، فهرب من كآبته الحسين، وازداد صمته صمتًا، وهدوءه هدوءًا، وأفرطت زوجته في تناول الطعام حتى امتلأ جسدها عن آخره لحمًا، وتكوَّمت فوق اللحم أرطالًا من الدهون حتى تشابهت والخنازير، فازداد النفور نفورًا!

كان الحُسين حين يفرغ من عمله بالمحطة يتناول طعامه بالبيت دون تلذذ، ثم يتبع قدميه متعجلًا بالهرب من كآبة البيت ورتابته، ويخطو خلف قدميه حيثما وضعته، ولأي وجهة توجهت، فتراه قرب حقول البرسيم تارة، وقرب غابات لوراسيا المقفرة تارة، وتاراتٍ كان يلتحق بالقطار الذي حان موعد انطلاقه من المحطة، لا يهم إلى أين وجهته، يظل الحُسين واقفًا طوال الطريق في ركنٍ منزوٍ في عربة الدرجة الثالثة بعيدًا عن الأنظار، يرقب الناس البسطاء، يراهم من حيث لا يرونه، ويتأمل وجوههم وتعاستهم المضجرة! حتى إذا جنَّ عليه الليل عاد من حيث كان إلى كوخه الصغير، المتموضع على قارعة الطريق وعلى مرمى حجر من محطة القطار المستحدثة بين الغرب والشمال، يتسلل على أطراف الأصابع دون أن يوقد السراج، ولا أن يوقظ امرأته النائمة، بهدوء شديد يبدل ثيابه، ويفترش الأرض زاهدًا في راحة الفراش الوثير، وينام ملء جفونه آملًا أن يصحو عليه نهار يوم جديد... بشكلٍ جديد!

***

بالكاد كان يلتقط أنفاسه عندما لحق به، كانا قد اقتربا من الغرفة التي قضيا ليلتهما فيها سويًّا، جذبه من طرف ثيابه ليستوقفه، فتوقف على مضض...

- تمهل قليلًا... لم أَرَكَ مسرعًا هكذا من قبل.
- لأنني لم أتعرض لمثل هذه الإهانة من قبل!
- الإهانة الحق أن يحدث ما حدث في حضرة القدير قسورة...

ارتسمت على وجه صخر علامات الأسى؛ فتدارك خيسيه كلماته بعدما أيقن أن وقعها شديد على النفس في تلك الأثناء، فكما أن لكل شيء وقته، فللعتاب والتأنيب وقته المناسب وإلا... أتى الرد على عكس المرجو.

- إلى أين تنوي الذهاب؟!

كان يعرف وجهته، لقد قال بنفسه إنه ذاهب نحو الغرب، لكن خيسيه سأل سؤاله بنبرة ملاطفة كمن يحاول تهدئة الأمور، ولا يجيد انتقاء الكلمات الصائبة...

- زنزانة المعاتيه...

قالها صخر بعد طول صمتٍ وتدبر، فتعجب خيسيه وتساءل:

- حسبتك تنوي العودة للديار!

- نعم، ولكن سآخذ جولة في زنزانة المعاتيه أولًا.
- الآن وقته يا أخي!

ابتسم صخر، وقال بنبرة أشد هدوءًا من سابقتها...

- لم أذهب منذ أسابيع، ولعل الحرَّاس تكاسلوا بعدما اعتادوا غيابي، سأتفقد الأمور هناك، وأطمئن، ثم أعود للديار بعدها...
- عُدْ إلى خيمتك يا أخي، زوجتك في انتظارك، وطريق الزنزانة لا بد أنه موحلٌ بفعل الأمطار والفيضان.
- حسنًا، لا بد وأن الرمال قد ارتوت.

ضحكا، وأيقن خيسيه ألَّا فائدة من إثنائه، فآثر الصمت قليلًا... علَّ صديقه يرغب في الكلام، فقال صخر...

- لا تدع عينيك تغيب عن رمَّاح لحظة، لا تدع ذلك الديك الأحمر يفسده بعاهراته وسموم لسانه اللعين.
- لم أرك تكره أحدًا مثل فيدل!
- إنه ثعبان خبيث، لقد أدركنا تلك الحقيقة من اللحظة الأولى التي عدنا فيها للديار، والخطأ الفادح الذي اقترفناه أننا بدلًا من قطع رأسه... أطعمناه!
- نحن الأهواز يا أخي، أنسيت! نحن هواة السحر... ومروضو الثعابين!

ضحك صخرٌ بشدة، حتى دمعت أعينه، وحتى استملح حديث خيسيه، فاستأنف متسائلًا...

- وماذا عن القدير قسورة؟ ألن توصيني بحمايته هو الآخر؟!
- له ربٌ يحميه...

قالها واثقًا متيقنًا وبنبرته هدوء العالمين، وارتخت أعصاب وجهه حتى تمخضت عن ابتسامة خجولة فاترة أشفق منها خيسيه على صاحبها، لا يعلم ما سر تلك المحبة التي اجتاحت قلبه فجأة؛ فأحب بقاء صخر ومحادثته، لا يعرف... لكنه – على أية حال – اتبع...

- ستطول رحلتك بالخيل.
- سأستقل القطار نحو أقرب محطة للزنزانة... سأصلها ليلًا، وأعود للديار صبحًا... أليس الصبح بقريب؟!

ابتسم خيسيه ابتسامة وداع، وتصافحا بطريقتهما المعهودة، وهمَّ كل واحدٍ منهما نحو طريقه الخاص... لكنَّ خيسيه تلفت بعدما أصابه التردد، وقال بعدما تلعثم عدة مرات قبل أن تخرج من فمه الكلمات...

- أبلغ تحياتي للرفيـ... للأسطى زيان.

***

(٤)

أغنيات إلياسين

كانت ليلة حافلة من ليالي حانة العمَّال الكبيرة، اليوم أحد، والعمَّال المتعبون في يومِ إجازتهم الوحيد يبحثون عن الموسيقى الحيوية والمنعشة، يتقاذفون كؤوس الجعة والنبيذ الرخيص من يد لأخرى، تتراقص أجسادهم المرهقة من قسوة المناجم خلف الأنغام السلسة التي عزفها الثلاثي المحبوب... دولسين وعم نَجم وإلياسين.

«تسأليني عن شعوري... هل تراكِ تجهلين؟!
إنه سرٌ تجلَّى في عيون العاشقين
وهكذا عيني أباحت لكِ عن كل الكلام
إنما إحساس حبي لكِ... أنتِ تعلمين!»[1]

---

(1)لقائلها - ولقائلها السلام.

غنى إلياسين ومن خلفه كانت دولسين تردد ونَجم، والناس من خلف ترديدهم يرددون ويرقصون ويصفقون، إنهم يعشقون تلك الفرقة الصغيرة، ليس لأنها الوحيدة في أخطاب، بل لأنها قريبة كفاية ليشعروا بأنهم من نسيج واحد، هم مثلنا، من جلدتنا، يشعرون بما نشعر به، ويآسون ما نآسيه، ويزيدون علينا بأغانيهم التي تضفي لكآبة أيامنا بهجة ومرحًا...

الكلمات الرقيقة التي كتبها عم نجم، والألحان العذبة الصافية التي عزفوها سويًّا، وأصوات ثلاثتهم الرخيمة الدافئة، وضي القناديل المتراقصة من فوق رؤوسهم على المسرح الصغير... جميعها كانت كافية لتحلق بالأرواح المنهكة نحو دنيا غير الدنيا، وعالم آخر، سماؤه زرقاء صافية لا رمادية كئيبة، ومياه نيلهِ رقراقة نقية لا عكرة مدنسة، عالم لا مناجم فيه ولا مداخن شاهقة، لا مطارق ولهيب مستعر، ولا فحم، ولا ذهب، لا قاضٍ ولا شاويش، ولا أوامر مجزفة وفرامانات، ولا ضرائب تقصم الظهور وتمنع الفرح من الظهور!

غنى إلياسين وانتشى، تلامست أعذب الأنغام مع أصفى الأصوات؛ فتعانقت روحه والأغنيات حتى طار، حلَّق، رفرف بجناحيه عاليًا حتى لامست كفُّه السماء، وأبصر يمينه فإذا بحورية جميلة، لها عينان أشد عتمة من ليالي العمَّال

في أخطاب، ووجه صبوح كأحلامهم البعيدة، وصوت سلسبيل كمياه النيل في العهد البعيد... ابتسم لها إلياسين... فابتسمت له الحورية الحسناء، فطرب فؤاده من تلك البسمة الرقيقة حتى كاد ينخلع، وتلاعبت بقلبه الخيالات، وأغرقته في دوامات الحنين المهلكة، وأحدثت في أطرافه رعشة لم يعهدها من قبل، وجرأة لم يشهدها من قبل... ولأول مرة منذ سنين، لامست أصابعه المرتجفة يدها الدافئة الحنون، فأحس بلذة غامرة، ورعشة وحشية كأن دماءه تفور...

لكنها...

لم تكن تشعر بما شعر به إلياسين! ففور أن لامست أصابعه كفها ابتعدت دولسين، وتبدلت ابتسامتها لاندهاش غير مرحب، لاستهجانٍ ونفور، وتراجعت للخلفِ خطوة أو خطوتين، حتى اختفت عن دائرة ضوء القناديل... وبقي تحتها إلياسين وحيدًا، يستعر وجهه من صهدِ الحرج، يغني أغنيته الحيوية بصوتٍ فاتر خافتٍ مهتز، شردت عيناه فلم يبصر من حوله أحد، وتلاطمت أمواج أفكاره حتى تاهت في المنتصف الكلمات التي يغنيها؛ فتلجلج مرات عدة، وكأنما... وكأنما نسي ما كان يقول... وتمنى... لو أن الظلام يحل اللحظة على أرجاء المكان... ويختفي!

مرت أيام، وأسابيع، وشهور... تمر بهم اللحظات فلا تزيدهما إلا بُعدًا، لم يعد شيء لعهده بعدها أبدًا، لم يتحادثا، ولم يتبادلا نظرة إلا مرة أو مرتين وبالخطأ، تتلاقى الأعين الرمادية اللامعة بالعينين السوداوين فتتنافرا، وتمنى إلياسين لو أن ما حدث لم يحدث، بالرغم مما فيه من لذة طاغية، ورجفة ممتعة تراوده كلما تذكر الموقف وأعاده بذاكرته التي لا تتوقف عن استعادته مرارًا ومرارًا... لكنه لم يسعد بما آلت إليه الأمور، كان يفضل قربها منه مع جهلها بحقيقة مشاعره، على أن تعرف ما يخفيه لها من مشاعر نقية... وتبتعد!

وذات يومٍ من أيام دهرهم، وبعد استعداد وتدريب طويل، تأهب ثلاثتهم لحفلهم المعهود في الحانة المتواضعة، غير أنهم تفاجئوا بأن المكان خالٍ إلا من نفر أو اثنين... تعجبوا، وتساءل العم نَجم في قرارة نفسه مرة أين اختفى الجميع؟ ثم ردد السؤال مرارًا حتى سمعته الآذان، وأتى ردٌ من إحدى الجالسين...

- إنهم عند العربة السحرية.

فتمتم إلياسين العبارة بهمسٍ محاولًا استيعابها... عربة سحرية!

خرج العم نَجم مهرولًا وقد أطلق العنان لقدميه فلم يتوقف لحظة، ولم يتمهل ليكتشف سر الحديث، ولفك الطلاسم

والألغاز تبعه إلياسين ودولسين مسرعين، كانا متقاربين يلامس كتف أحدهما الآخر وهما يهرولان خلف العم نجم، حاولت دولسين أن تزيد من سرعتها مرارًا، فكانت تقفز تارة، وتجري تارات أخرى، لحظ ذلك إلياسين؛ فاستبطأ في مشيه، وتخلَّف عنهم عدة خطوات متعمدًا، حتى أصبح العم نَجم في المقدمة لا يقدر أحدهما على اللحاق به، ومن خلفه دولسين تسعى، وإلياسين يتلكأ في مشيه وخطواته، تتلاعب برأسه الظنون لعِب الصبية بالكرة، لا يعرف لِم كل هذا؟ ما الذي اقترفه على كل حالٍ ليجني ما جنى! أَأَجْرَمَ؟ أم أنتهك حرمة مقدسة؟! ليتها تدرك أن ما أصابه لم يصبه باختياره... بل أصابه كما تصيب الأسهم أفئدة الشجعان!

كانوا جميعهم هناك: عمَّال المناجم، ونساء القرية، والصبية، والفتيات، جميعهم عند مطلع الساحة الكبرى، حيث يلتقي آل أخطاب كلهم، وحيث تتسع الرؤية فيبصر الجميع، ويدوي الصوت في الأرجاء؛ فيسمعه كل صحيح وأصم... كان مهرجانًا عظيمًا مقامًا، في منتصف الساحة البلاطية كانت عربة متموضعة يجرها زوجٌ من البغال، عربة خشبية صغيرة من خشب عتيق ينخر السوس فيه، منفتحة من إحدى جوانبها كأنها مسرح صغير، والناس من حولها وقوف ينظرون، يلتفون كما يلتف النمل على فتات السكر، وعلى مسرحها الصغير وقف قزم أصلع شديد جحوظ العين وبروز

الذقن واتساع الفم، ثياب مبهرجة فاقعة تخطف الأنظار، وألوان تلطخ الوجه ليبدو مبهجًا؛ فبدا على العكس... مرعبًا!

«بانوراما دنيا فونيا... صندوق الدنيا عصري

لو تفهم كل قصدي... أوهب لك نص قصري

واكتب لك الوصية... على جناح الحمام

واتفرج يا سلاملم... اتفرج يا سلام»(١)

كان القزم يغني أغنيته الركيكة، ومن خلفه أرجوحتان صغيرتان، تتأرجح فوق كل واحدةٍ منهما شابةٌ فاتنة ترتدي فستانًا قصيرًا مفتوح الصدر، ومن تحته جوربان أبيضان طويلان، يعقدان شعرهما ككرتين منفصلتين على يمين وشمال الرأس، ووجه ملطخ بكل ما على الأرض من مساحيق تجميل، يتأرجحان في إيقاع منتظم، ويتبادلان النظرات الباسمة مع الجماهير الواقفة...

حتى توقف القزم عن أغنيته، وتوقفت الفاتنتان عن التأرجح، صرخ القزم بصوته الحاد في الجمهور في وصلة تقديم...

«والآن... نقدم إليكم بكل اللغات... وكل الوسائل وكل الفنون... مسارح ورقص وأحلى حكايات... فحيوا معي...

---

(1)صندوق الدنيا - أحمد فؤاد نجم.

إله الجنون... كاشف الأسرار... وقارئ الأفكار... المنقذ المغيث... وموقظ العصر الحديث... برَّاق العظيم».

تصفيق حاد هَزَّ أرجاء الساحة الكبيرة، بعدما انتهى القزم من مقدمته الرنانة، وانتحى جانبًا تاركًا الواجهة الرئيسية ممهدة لمن قام بتقديمه، فأتى متهاديًا، يمشي بعظمةٍ وخيلاء بين الفاتنتين، يرتدي برنسًا طويلًا أخضر مصحوبًا بقلنسوة برَّاقة بلون القش تغطي شيئًا من وجهه، لكنَّ ما ظهر منه من ملامح كانت تشي بأنه قد اقتسم مساحيق التجميل مع الفاتنتين حتى اختفى لون بشرتهم الأصلي تحت أكوام منها، شفتان داميتان، وفم كعرجون قديم... تقدم ببطء وتمهل والأنظار تكاد تبتلعه من شدة التحديق والترقب، ثم توقف في منتصف المسرح الصغير تمامًا، وخلع عنه قلنسوته ببطء شديد وكأنما في وجهه مفاجأة للجماهير!

كانت ملامحه - وعلى عكس المتوقع تمامًا - شديدة الألفة والطيبة وتبعثان على الشفقة، وجنتان بارزتان دمويتان، ونغزتان خفيفتان بالكاد تظهران عند ابتسامه، برغم أنه حرِص ألَّا يبتسم!

تساءل الناس فيما بينهم أسئلة عديدة، من هؤلاء؟ من أين أتوا؟ ما الذي يقدمونه؟ أهم فرقة غناء كفرقة العم نَجم؟ ترى

من يقدم أغاني أفضل؟ أم لعلهم سحرة ومهرجون؟ يبدو من المناخ العام أنهم كذلك! من العربة الغريبة الفقيرة بالرغم من البهرجة الزائدة والتزيين المبتذل المبالغ فيه، ومن مظهر الفتاتين المتأرجحتين، ومن ثياب القزم وطريقة حديثه، ومن هيئة هذا الـ «برَّاق العظيم» الذي يبدو أن الغرور قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا، أو لعله ليس غرورًا، بل هي هالة يدَّعيها لزوم الهيبة والمنظر العام! لا أحد يعرف... الآن نعرف!

وقف العم نَجم ومن خلفه دولسين وإلياسين يرقبان المشهد من بعيد، على وجه نَجم ارتسمت علامات وتعابير غريبة، يبدو أنه أدرك شيئًا لم يدركه الآخرون، ويبدو أنه يخفي سرًّا لا يعلمه العالمون، علامات تعجب واستفهامٍ عديدة ارتسمت وتقافزت فوق رأسه، قبل حتى أن يعلن الغرباء عن سر عربتهم، وعن العرض السحري الذي سيقدمونه مقابل قروش قليلة!

قال عم نَجم متشائمًا - على غير عادته -...

- يبدو أننا سنفتقد الآذان القليلة التي كانت تستمع لنا في الحانة...

أمسكت دولسين ابنته بيده العجوز الرقيقة في حنانٍ تواسيه وتطمئنه.

- سيعودون، حينما يبطُلُ مفعول السحر...

تنهد العم نَجم تنهيدة عميقة، وبدت في عينه لمعة غريبة عندما ارتسمت على شفتيه المزمومتين ابتسامة حزينة، ثم تعجَّل الرحيل قبل أن يبدأ الغرباء سحرهم المثير...

- هيا بنا يا صغاري.
- سأبقى قليلًا...

قالها إلياسين دون أن ينظر إليهم؛ إذ كادت اللهفة أن تسحر عينيه لاكتشاف ما سيفعله الغرباء، فهمَّ عم نَجم بإثنائه، لكنَّ دولسين ربتت على كتفه بلطف؛ ففطن مرادها، وعادوا في هدوء من حيث أتوا... وظل إلياسين في الساحة الكبيرة، من خلف الناس جميعهم واقفًا وحده في هدوء... يرقب في شوق ما حدث!

❦❦❦

قضى القدير قسورة وحاشيته باقي يومهم رفقة الأدميرال فيدل، يتنقلون من موضعٍ لآخر كأنما يضيعون الوقت فيما لا طائل من ورائه!

كان هناك سبب آخر لدعوتهم للقدوم إلى أرض الشمال، وتحمل عناء السفر، واهتزازات القطار، واستنشاق دخان فحمه الأسود اللعين، فكان الأدميرال يدعوهم إلى حفله

الأكبر، واحتفائه العظيم بتدشين أول ميناء رسمي لمملكة لوراسيا الهوزية، ولكن حفله الكبير كان قد تأجل لليوم التالي بسبب «أخطاء فنية» كما وصفه الأدميرال فيدل الذي بدا متلعثمًا مضطربًا، وبالتالي... اضطر رمَّاح وخيسيه إلى المكوث والانتظار برفقة القدير قسورة الذي قبِل العذر بصدر رحب، ونفس طيبة، وحِلم زائد عن الحد!

مضى اليوم الطويل وهم يستمعون مرارًا ومرارًا لثرثرة الأدميرال وحديثه الذي لا ينتهي عن مشروع العاصمة الجديدة، دارت نقاشات عدة، وجدال طويل أصابهم جميعًا بصداع كاد أن يفتك بهم لولا أن أنقذهم تدخل المساء؛ فعادوا مسرعين نحو غرفهم ولم يغادروها حتى استيقظت شمس الأصيل، وفي اليوم التالي انطلق بهم الأدميرال بعربة القطار الملكية التي أوصلتهم لأقرب محطة قطار ممكنة، والتي عندها كانت تنتظرهم عربات ملكية كبيرة تجرها خيول جنوبية أصيلة يدعي سائسها أنها كانت ملكًا لحكيم جنوبي قديم يدعى تيمور آل عزيز!

عند الشاطئ الغربي للوراسيا، وعلى بعد محطتين أو ثلاث من معقل الأهواز ومستقر السلطة والحكم، كان الأدميرال فيدل قد أعد العدة وهيأ الشاطئ العظيم والميناء الكبير المبني

حديثًا بأمر منه – وبتأشير من قسورة بالطبع – بالزينة والأفراح والألوان وفرق العزف والراقصات، كل شيء أصبح مجهزًا تمامًا، وعلى أعلى طراز ممكن ليلق بجاه الملك والحاشية المقربة، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، لو أن فيدل قد دعاهم ليشهدوا افتتاح الميناء الجديد ويباركوا انطلاقة سفنه لأول مرة، لماذا لم يطلب منهم القدوم نحو الميناء مباشرة؟! خاصة أنه لا يبعد عن موطنهم سوى بضع محطات! لم القدوم نحو الشمال أولًا مرورًا بعشرات المحطات ووعورة الطريق، ومن ثَمَّ العودة مرة أخرى نحو الغرب حيث الحفل؟! لم أجد تفسيرًا لذلك غير أنه رأى بعقليته العسكرية – كالعسكر في كل زمان – أن في تلك الرحلة مباركة عظيمة، وتشريفًا كبيرًا للميناء الجديد، وحتى يشهد آل إيفريقيانوس المتموضعون في الشمال أن الملك قسورة الهوزي بنفسه قد اقتطع تلك المسافة الطويلة من أجل الأدميرال فيدل، الذي بدا له منهم – سابقًا – في حقه ما كان!

بدأ الحفل الضخم: رقص، واستعراضات هزلية مملة، ثم ديباجات وحديث طويل عريض غير مفهوم جلب النعاس للأعين الملكية، وأخيرًا استنهض الأدميرال الملك وحاشيته، ودعاه لفك عقدة الحبل الذي يقيد أول سفينة، وكانوا سفنًا ثلاثة، ضخامًا كبارًا مهولين، على غير عادة فيدل، لكنه قد

أحسن الإشراف على صناعة السفن الثلاثة، الذي أبدى القدير قسورة إعجابه بهم، وأشاد حق الإشادة.

انطلقت السفن الثلاثة كلٌّ في اتجاه مختلف نحو المجهول، نحو آخر قطرة ماء تصل إليها؛ ليجيبوا عن السؤال الذي أَرَّقَ الأدميرال مرارًا وأشعل حماسته... أفي الأرض أرضٌ غير التي نعيش عليها؟ أبلادٌ غير لوراسيا وإيفريقيانوس؟ أأناسٌ يعيشون معنا على سطح هذه الأرض العجيبة؟! من يدري؟... ربما!

كان احتفالًا سريعًا لم يستأهل كل البهرجة والضجيج الذي أحدثه، ولم يَرَ خيسيه سببًا مقنعًا لتلك البهجة الطفولية التي بدا عليها الأدميرال، ورأى أنه من الممكن أن تعود السفن من رحلتها ولم تجد شيئًا، ومن الممكن ألَّا تعود من الأصل! ورأى ألف سبب وسبب يجعل من ذلك المشروع خاسرًا وبلا فائدة، ولكنه بالرغم من ذلك أسرها في نفسه ولم يبدها لأحد، واستصنع ابتسامة هزلية على شفتيه طوال الحفل، ولم يمحها إلا بعدما رأى تلك التعبيرات الغريبة على وجه القدير قسورة!

تلك التعبيرات التعيسة التي ارتسمت على صفحة وجهه فجأة بعدما همس في أذنه ذلك الجندي الهوزي الذي أتى مسرعًا بكلمات غامضات، وتلك الرجفة الشديدة التي

اجتاحته بسرعة مخيفة أفقدته الاتزان فأوقعته، وتلك العقدة التي انعقدت على لسانه؛ فلم يكن ينطق شيئًا ولم يتحدث...

ما سر تلك الكلمات التي سمعها القدير قسورة لتحدث به ما أحدثت؟!



(٥)

أن تمكث في زنزانة المعاتيه كابوس محقق، وأن تجلس في زنزانة تنتظر تتالي اللحظات الثقال، وتعاقب الليل والنهار في شوق ولهف شديدين كي تقر عينك برؤية من يزيل عنك جبال الحزن الجاثمة على صدرك... هو الجحيم بعينه!

هكذا مضت الأيام الأخيرة على الأسطى زيان المنهزم، الثائر الخامد، الملك المخلوع، يعدُّ الساعات واللحظات والأنفاس، يرقب تحركات الشمس والقمر والنجوم، يسمع خطوات الحرَّاس خارج عالم الزنزانة المنعزل، وهم يخطون برتابة وإيقاعٍ كئيب له صدى كالح في النفوس لا يُطاق، ثم تدور الأرض دورة، ثم دورة، ثم أخرى، حتى تحين لحظة معينة تطرق فيها الباب الصدئ يدٌ حانية، يدٌ تعرف كيف تربت على الكتف المتعب في أحلك الأوقات، وأعين لها بريق لا يمكن تزييفه، وشفاه في ابتسامتها الضئيلة ملاذ وملجأ.

أيام قلائل مضت كالدهور المشلولة، حتى أتى اليوم الموعود، يوم أن غرِق الجنوب المنبوذ تحت فيضانٍ تنبأ به كهل بدوي لم يُلقِ الناس له بالًا وكذبوه، يوم أن انشغل ملك لوراسيا وابناه وساعده في أمور خاصة في أرض الشمال المحتلة... يوم أن خلت زنزانة المعاتيه من الرقابة المباشرة لكبير جلاديها... صخر بن قسورة!

حانت اللحظة التي يفي فيها الفتى جاك بوعده الذي نفثه في أذن الأسطى زيان؛ فسحره بطلاسم الأمل، وبريق الغد، ونسمات الحرية، قدم الفتى في جوف الليل والكل في سباتٍ عميق نائمون، المساجين خلف جدران الزنازين المصمتة، والحراس الكسالى السكارى المتعبون من همِّ الرقابة المباشرة.

استطاع الفتى جاك أن يولِّي نفسه - كحارس هوزي - المناوبة الليلة للجناح الذي يضم زنزانة الأسطى زيان، فتسلل ليلًا خاليًا من أي رقابة، وأخرج مفاتيحه بروية، وبحرص شديد حرر الأسطى زيان من محبسه، وانطلقا عازمين على الفرار...

ولكن...

تذكر الأسطى زيان ما غفل عنه طوال السنوات المنصرمة من شدة العذاب، تذكر كهلًا سُجن معه، المعلم بنيامين،

معلم لوراسيا القديمة، وآخر من تبقى من أسطورة الرفاق القدامى، من رافق الحكيم تيمور في ثورته الكبيرة مع الجد يعقوب والشيخ منصور، كان زيان يذكر، في ليلة قديمة أثناء صراخه المعهود، أتاه ردٌ ودود وصوتٌ كأنه المدد، كطوق نجاة، صوت يقول بأنني هنا في موضع ما، أسمعك وأعرفك، لكن أين السبيل إلى وصالك والزنازين والجلادين بيننا؟ صوت يقول: يا أيها العجوز مهلًا... لست في الظلمات وحدك!

لم يكن زيان لينساه أبدًا، بالرغم من انقطاع الصوت في ليالٍ عديدة ظل زيان فيها وحيدًا بلا ظل، صوتٌ بلا صدى... لكنه لم ينسه أبدًا، ولن ينساه الآن، وعليه ظلَّ زيان يلحُّ كالأطفال على الفتى الأربعيني جاك، الذي فكَّر وقدَّر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر متضجرًا متأففًا مغتاظًا كأنما يطحن تحت أضراسه الحنظل، فعادا وكانا على وشك الخروج، وكانا قد أطفآ المشاعل مطمئنين، عادا إلى نقطة المبتدى بخطى بطيئة؛ فللرواق ظلام غطيس، والذاكرة لم تقوَ على حفظ الطريق من شدة التوتر وتسارع النبضات، الأعين الناعسة تتحسس في غياهب الليل طلاسم الطريق بلا جدوى، والأيدي المرتجفة تتلمس الجدران الباردة بكل حياء، زنزانة تلو أخرى، تلو أخرى تلو أخرى... لا الرواق ينتهي، ولا الزنازين والمساجين تفنى، ولا للمعلم بنيامين أثر!

كان لعواصف الصحراء فعلها في النفوس، بعدما رنَّ الصدى في أرجاء الزنازين، فتصدعت جدران القلوب المتحفزة وتشققت، وخارت عزائم وتشتت، وعندما هم عقل أحدهما بالإثناء عن المهمة... جاء المدد! وظهرت أخيرًا أولى علامات ظهور المعلم بنيامين، الذين كان يرقد في زنزانة بعيدة، في أقصى المنتهى، حيث لا صوت ولا صدى، بالكاد وصل الفتى جاك وهمس من تحت الباب الحديدي الصدئ محذرًا...

- لا تفزع يا أبتِ... ولا تحزن، إنَّا منجوك من القوم الظالمين.

كان العجوز الذي شاب وشاخ وطعن في السن والسنوات بالكاد يشعر أن الباب الحديدي قد انفتح، وبالكاد مَيَّزَ أن أيادي تحثه على النهوض، وأن ذراعيه الضئيلتين، ذات العظم المنخور والجلد الرقيق المجذوم يستندان على كتفين: أحدهما شاب، والآخر يصارع المشيب... وانطلقوا وهم يتخافتون!

كان العجوز المستند على الكتفين غريبًا ومخيفًا، ضمَّ ساقيه إلى صدره في قرفصةٍ ليس لها داع، وكأنما يحمي صدره من شيء ما، أو كأنما يخشى على شَيء ما، وكان صامتًا طوال الطريق الطويل، وكأنه لم يلتقط كلمة مما قالها الأسطى زيان، أو لعله انتبه إلى تحذير الفتى جاك الغاضب الآمر بالصمت

لعدم إحداث جلبة أو لفت أنظار الحراس، لكنه شهق بفزع عندما لمحت عيناه في أقصى الرواق لهيبًا يتراقص ظله على الجدران، فانتبه زيان وجاك وتوقفا ملتصقين إلى الجدار في ترقب وحذر، أحدهم كان قادمًا، ويبدو أنه قد سمِع الشهيق الفزع؛ فأسرع خطوه كي يكتشف مصدره.

ظل الفتى جاك يطحن أضراسه من الغيظ، لولا العجوز لكانا قد فرَّا منذ مدة، ويطحن تروس عقله كي تسرع في اتخاذ قرار وصناعة حل ينجيهم من تلك الورطة، كان متأكدًا وواثقًا من أن الزنزانة ستكون خالية من الرقابة الليلة، فمن الذي أتى؟!

كان للقادم مسرع الخطى ظلًّا ضخمًا على الجدران الموقدة بلهيب المشعل وكأنها جحيم مصغرة، يد تحمل المشعل وأخرى على مقبض السيف الملكي متحفزة، وقدمان تلتهمان الطريق في عجلة لمعرفة مصدر الصوت والأنفاس المتصاعدة.

على مسافات متساوية على جانبي الرواق كانت هناك أعمدة متقابلة لا يصل الضوء لزواياها البعيدة، توارى خلف واحدةٍ زيان، وخلف أخرى موازية كان جاك يختبئ من خلفه العجوز بنيامين، التصقوا جميعًا بالجدران يحتمون بظلام زوايا الأعمدة، يحبسون الأنفاس، ويترقبون في تربصٍ مرور القادم الغامض ذي المشعل...

كان مروره سريعًا وكأن عينيه تفحصان المكان بروتينية واعتيادية، وكأنما قد جال في ذهنه أن الصوت الغريب قد يكون لحيوان من الصحراء بجوار الزنزانة، أو لعله لبعض الأرواح التائهة، مرَّ الرجل بسرعة بهم دون أن يلحظهم، مرَّ ولم يتوقف، لم يتوقف... إلا بعدما سمِع صوت سقوط شيءٍ من خلفه على الأرض؛ فأحدث صدى غير مألوف، فأيقن أن هذا ليس بحيوان صحراويٍّ ولا جانٍّ؛ توقف وتلفت متفحصًا بضوء اللهيب الظلمات... فأتته الضربة الأولى من الأسطى زيان الذي لم يتمهل بعدما شعر بالهلع يخترق قلبه!

كان الرجل هو صخر بن قسورة، المسؤول الأول عن زنزانة المعاتيه، أتته الضربة المباغتة من الأسطى زيان؛ فسقط المشعل من يده واختل توازنه، تفاجأ جاك مما حدث وكذا صخر الذي نهض وسدد لكمة شديدة، يعرف بالضبط اتجاهها وكأنما يبصر في الظلام؛ فأصابت حنجرة الأسطى زيان وتفاحته فاختنق، عندها قفز الفتى بخنجره الهوزي على ظهر صخرٍ طاعنًا بهستيرية عدة طعنات متتالياتٍ لم يتوقفن إلا بعدما أمسك صخر بالخنجر دون أن يبالي بنصله الحاد؛ فأحكم السيطرة على الطعنات، ولم يستطع الفتى جاك تسديد المزيد، عندها ألقى صخر بظهره نحو الجدار بعنف شديد فارتطم الفتى جاك رطمة شديدة في مؤخرة رأسه آذته، وأفقدته الوعي؛ فسقط عن ظهر صخر مفترشًا الأرض،

كان زيان قد نهض وقتها، لكنه كان أضعف من أن يواجه ابن قسورة بتلك الأعصاب البالية المرتعشة، ولكنه بالرغم من ذلك لم يكن جبانًا قط، ولن يكون، فتحفز وسدد لكمة لم تُجدِ، تصدى لها صخر بساعده، وسدد بعدها العشرات، لم يتوقف، واقترب حتى التصق زيان بالجدار خلفه، اقترب حتى لم يعد هناك مسافة بين وجهيهما، اقترب وقد اتسعت عيناه الجاحظتان من الغضب، وأبرقا في أوج الظلام كأعين العفاريت، وكأعين العفاريت أبصرت هجوم العجوز بنيامين من خلفهِ؛ فوكزه بشماله دون أن يلتفت؛ فارتمى العجوز على إثرها، وسقط دون حراك... جثة هامدة!

تقدم صخر أكثر من الأسطى زيان، وقبض بكفيه الخشنتين على رأسه بغلظة وتشفٍّ، وحرك إبهاميه الوحشيتين نحو عيني الأسطى زيان المهتزتين من التوجس والاضطراب، لم يمهله زيان فاستجمع قواه وشتات أعصابه، وأحكم انقباض كفيه اليابستين على رقبة صخر يعتصرها بكل قوة، في تلك اللحظة كان الإبهامان الغليظان قد أحالا بياض العينين المرتعشتين احمرارًا قانيًا، انغرس الإبهامان بلا رحمة، وانغرست الأظفار الطويلة في سواد الأعين فاخترقته، وسالت على الكفين الهوزيتين دماء العينين فلم يتراجعا، فقأ صخر وهو يختنق أعين الأسطى زيان حتى لم يبقَ منهما شيء، ولم يلتفت لرقبته

التي كانت تُعتصر عصرًا بين كفي الرجل في محاولات بائسة، لم يبالِ لدموع زيان التي كادت أن تسيل لولا أنها لم تجد أعينًا فضلَّت طريقها، لم يبالِ لصرخاته المخيفة، ولسبابه المقذع، ولركلاته العنيفة الهستيرية، ولضربه المتواصل على الطعنات التي أحدثها جاك في ظهره، لم يبالِ لأي شيء، كان غاضبًا شديد الغضب، وكأنما كان ينفث غيظه ولهيبه في الأعين التي لم تتوقف عن التحديق له قبل أن يفقأها مباشرة...

استيقظ جاك من إغفاءته على صراخ زيان، واستجمع شتات أعصابه، وأحكم قبضته على خنجره، ثم قفز مرة أخرى على ظهر صخر، ولكن تلك المرة كان يعرف ما عليه أن يفعل، وبسرعة البرق، مرَّ بحدِّ نصله على رقبة صخر، وتركه يجاهد في التقاط الدماء المتطايرة وحده، تركه يتلوَّى على الأرض كالبهائم المذبوحة، يخور كما يخور الثور المنهزم، يتغرغر، ويستعيد أنفاسًا لن تعود!

قبل أن يأتي الحراس المخمورون على صوت ما حدث، كان جاك قد استطاع أن يلوذ بالهرب، بعدما حمل على ظهره الأسطى زيان المغشي عليه من شدة الألم، أو من شدة الفاجعة وعزةِ ما فقد، وترك بنيامين محله جثة هامدة، وتولى نحو البوابة الرئيسية للزنزانة، فخرج منها كحارس هوزي

بثياب الأهواز يمتطي خيلًا، ويجر خيلًا آخر يحمل عليه أمتعة وعدة كادت تقصم ظهر الخيل، وعندما علِم حارس البوابة بما حدث، كان جاك وزيان وخيولهما... قد اختفوا!



(٦)

في غياهبِ ليل كئيب بلا قمر، صدور بلا قلوب، تجمعت حول نيران أوقدت وتراقصت ملتهبة فوق جمر يتلظى، في خيمة مقفرة، منبوذة مستحقرة، تموضعت على مرمى حجر من مزابل سكان الجنوب وخلائهم، وكما يتجمع الذباب حول الخراء تجمعت حول الخيمة كل الخيم، وكل من تبقى من آل الشمال الأصليين، من تبقى من السكندريين، فلول العصر النحاسي، أنصار الشهيد ستيفان السكندري – تقدست روحه الطاهرة –، عبَّاد الأم الحنون!

صاموئيل السكندري اسمه، تقاسيم وجهه مميزة، فقلَّما ترى أنفًا بتلك الضخامة! ذلك الأنف المقوس الضخم الذي يخفي من خلفه وجهًا صغيرًا، حتى يخيل إليك أنه أنف قد نما له وجه! كان لوجهه تركيب غريب منفِّر وقبيح غاية القبح، ولعينيه الصغيرتين كثقبين بريق شديد يتفاقم مع أزيز النيران وتراقص اللهب، يستمع لمحدثته اليافعة، تلك الفتاة الناهدة،

التي جلبها أهلها جلبًا نحو الخيمة كي تقص على صاموئيل ما رأت في منامها من عجب عجاب...

كان شديد الإنصات لها، وفي قرارة نفسه يصرخ: أنا الذي من المفترض أن يرى ما قد روي، أنا الذي تأتي إليه البشارات، وأنا الذي يعرف جلل الإنذارات، أنا الذي اطلعت من قبل على ما لم يطلعوا عليه، وأنا الذي رأيت...

شهقت الفتاة مفزوعة من منظر القطتين اللتين جاءتا في اللحظة نفسها: قطة لها عين مفقوءة كأنها عنبة طافية، وأخرى لها نصف ساق تتكئ عليها... صدفة غريبة! أنت ترى قطًّا مشوهًا مراتٍ قليلة في العمر، فما بالك إن رأيت اثنين؟ في نفس القرية؟ في نفس الزقاق؟ ونفس الخيمة؟ لنفس الرجل؟! أهي صدفة!

لا أحد يعرف...

لكن ما يعرفه الجميع أن للقطتين القبيحتين منزلة كبيرة عند صاموئيل السكندري، خاصةً تلك التي لها عين مفقوءة، ويشهد على ذلك تلك القلادة البرَّاقة التي وضعها صاموئيل حول عنقها، للقطتين دلال كبير عليه، وهو كذلك، فهما لا يبرحان الخيمة ساعة، ولا يتركان صاموئيل وحده أبدًا، قد يبدو لك هذا مألوفًا أو لطيفًا، لكنه يبدو لي أنا غريبًا... ومخيفًا!

جلست القطتان في حجر صاموئيل فداعبهما بكفه عندما استنطق الفتاة دون أن ينظر إليها؛ فقالت بشفاه مرتجفة وأعين دامعة:

- إني أرى أشباحًا عجائز...
- ماذا يقولون؟

عندها تغيرت نبرة الفتاة، وانقلبت عيناها حتى كسى بياضها سوادها، ودارت رأسها دوراتٍ حتى سُمع لعظامها صوتًا، وقالت بصوت جهور غليظ مخيف...

«الساعة الساعة... الصاخة الصاخة... الحاقة الحاقة...

حُطت حُطت... غاث الماء وأرضٌ مُدت

الرب سيأتي منتقمًا... والبئر يفيض وينهمرُ

وعلينا الكل سيلتهف، وبيدنا الجرح سيلتئمُ

فابنوا لي بيتًا عندكمُ...

ابنوا بي بيتًا عندكمُ... يسكنه الرب ويسترِحُ!

سيعيد البيت لنا الكرّة...

وتعود الأم المنتقمة...

سيعود الرب لنا لكن؛ في صورة «وغد»

وتعود الغلبة والكثرة

وتكون النقمة والحسرة

لقطيع لا يسمع صوتي... يحنث بالعهد»

كان أبواها في أوج الخوف وقمته، يرتجفان من الفزع، ويبكيان من هول ما آلت إليه ابنتهما الرقيقة اليافعة كريحانة خضراء... لكن صاموئيل كان تائهًا، منذهلًا، مصدومًا، كان في قمة نشوته وظفره، يسمع البشارة كما أسماها، وأطرافه ترتعد من هول ما سمع من البشائر والخيرات، يكاد يرقص طربًا، نظر إليه الأبوان متسائلان بعدما عادت ابنتهما إلى سيرتها الأولى، فهرول خارج الخيمة مندفعًا؛ فتبعوه جميعًا حتى القطط، وقال بصوت عالٍ صارخ كي يسمعه كل السكندريون:

«يا قومنا...

الرب آتٍ لنا من جديد، في صورة وغدٍ نبغضه، لكنه حامٍ لنا ورحيم...

يا قومنا... الغلبة والكثرة ستعود للسكندريين، أبناء الرب المختارين، وسينتصر النحاس على الذهب وعلى الحديد، وستقوم دولة السكندريين مرة أخرى...

يا قومنا...

أيها البنائون الأحرار...

هلمُّوا بنا نبني للرب بيتًا يأويه، هلمُّوا بنا ننهض بالبئر العتيق، ونستخرج الهيكل الشريف، ونقيم دولة النحاس في الأرض، ونعيد سيرة البئر العظيم...

بئر أبناء الرب...

يا قومنا... هذا ما وعد الرب، هذا ما وعد الرب، هذا ما وعد الرب!»

***

اللوحة الثانية

الوصايا العشر

(١)

اهتزت أرجاء لوراسيا بأسرها، وتزلزلت...

وقع القدير قسورة طريح فراشه لأيام، صموتٌ كتومٌ بكَّاء، يمضغ التمر اليابس مع شربة ماءٍ لا يطعم غيرها طوال يومه، لكنه برغم ذلك الصوم المقذع؛ فقد ازداد سمنة وبدانة، وكأنما يعاقب بدنه... بالحزن!

لم يكن هول المصيبة عليه بالشيء المحتمل، فأدرك هوله تِباعًا مع الأيام مجزءًا، حتى اكتملت في مخيلته الصورة، وتبين له أن المصيبة أعظم من أي مصيبة، وأن اليوم يومٌ أشد سوادًا من يوم الخروج المخزي على يد أوزريانو اللعين! فاعتزل الناس وانتحى بنفسه جانبًا، لا يقبل عزاءً، ولا يطعم غذاءً، يتضرع للرب الرحيم في الخلوات، يسأله: هل كان حتمًا للفتى أن يموت؟ لِمَ؟ ما الحكمة من كل هذا؟ ولِمَ الفتى بعينه؟ لا يعترض وإنما يرجو بأن تسقط على رأسه الإجابات، أن يتلقى الجواب، وتمتلئ نفسه وتتشبع بأنوار

الحكمة وجرعات الصبر والطمأنينة، رأى بأن اللجوء إلى الرب الرحيم هو الملجأ والملاذ... بعدما أحس بأن نفسه أضعف من أن يتَّكِلَ عليها وحدها!

أُعلن الحداد في المملكة الهوزية شهرًا كاملًا، وأقيم عزاء ضخم لم تشهد لوراسيا مثله مذ مات الحكيم تيمور آل عزيز، وأتى آل الشمال الأيفريقانوسيون بوجوه جامدة بلا خشوع، وعيون يابسة بلا دموع، وعبارات تعازٍ خاوية، لا تسمن ولا تغني من جوع! ووقف اليافع رمَّاح بن قسورة ينوب عن أبيه المنعزل المتقوقع في صومعته الخاصة لا يكلم أحدًا، ولا يرى أحدًا...

وشهد المعزون في ذلك اليوم مشهدًا مهيبًا مؤثرًا تنخلع منه القلوب وتنفطر، لمَّا ناحت دلال أرملة صخر مرات عدة، وبكته بدموع لا تنتهي، وبصوتٍ يكاد ينخرس من شدة التهدج والتقطع، وبقلب جازع هالع منكسر مفتت مفطور، تبكي رحيل حبيبها وغيابه، وتنوح بالأشعار والمراثي علَّها تُشفي... ولكن أنَّى لها الشفاء، ومن مات لها صخر؟!

لم يدُر بخُلد أحد أنها بعدما وقفت مرتعشة الأطراف منهمرة الدموع لا تبصر طريقًا، ولا تميز وجه صديق من عدو، تقول بصوتها الذي بالكاد يسمع، وبالكاد تخرج من بين النشيج حروف باكية:

ما كنت آلف منزلي إلا بهِ

ولقد كرهت الدار بعد مصابه

وكرهت عيشي بعدما فارقته

ورغبت في الترحال نحو جنابه

ما كان في خلدي ولا بتصوري

أن الحِمام يحثه بحرابه

ورحلت عن صدري وحجري للبلى

رغمًا عليَّ وصرت رهن ترابه

الموت فرَّق شملنا وأضامنا

والدهر ساعده على أوصابه![1]

قالت مقالتها الحزينة وعيناها الدامعة تدور في محجريهما كالذي يغشى عليه من الموت الكئيب، ومن بؤس الحياة...

دلال... مدللة صخر وحبيبته، ريحانته الخضراء اليانعة، كما كان يحب أن يناديها، كان لها منزلتها الخاصة عنده، لم تكن

(1)عمارة اليمني شاعر أندلسي.

تحتل جزءًا كبيرًا من الفؤاد كما يحب الآخرون الأخريات، بل كان لها كل الفؤاد نصيبها، لم تكن يومًا لتنجب، كانت عاقرًا، وكان العرف في الأهواز التفاخر بالنسب وبالولد، وبالرغم من ذلك... لم يطلقها، ولم يستبدلها، ولم يتزوج بعدها، ولم ينظر لغيرها، ولم يطارح الفراش امرأة سواها مطلقًا، بل كان ينظر في صميم أعينها الكحيلة باسمًا، ويقول بشيء من العرفان وجبر الخاطر: «كيف لا تكونين أمًّا، وقد ولدتُ على يديكِ؟!» كان عبير أحلامها وبلسم أيامها، يعرف كيف يزرع البسمة على شفتيها في أوج الكآبة والحزن، ويعرف كيف ينتزع من قلبها الحزن انتزاعًا لا يرجع بعده أبدًا، كان صخر... ومن في الوجود لها كصخر؟! ترثيه بكل أحرف المراثي والأحزان، وتبكيه بدموع السحاب وبحور الأرض.

دلال... تلك الريحانة الخضراء اليانعة يبست، وانكمشت، وآلت للهلاك وللعدم، آهٍ لو تشعرون بما تشعر به دلال، ولكن أنَّى تشعرون به... فمن مات صخر... ومن في الوجود لها كصخر؟!

توجهت دلال بعد نواحها ونحيبها وعويلها، وولت مدبرة ولم تعقب، للبعيد، المستتر في خلفية المشهد، منزوٍ لا يميزه أحد، يستند إلى جذع يابس كيبوس أيامه من بعد أوزريانو والرفاق الجدد، غريب أمر خيسيه... كان مرهفًا فيما مضى، وديعًا كطير، خفيفًا كنسمة، وأشد رقة من موجة عابرة

فوق صفحة مياه صافية، كانت دموع العين أقرب إليه من الأنفاس... ونراه الآن ثابتًا جلدًا صخرًا، وجلمودًا قاسيًا، جفَّت ينابيع الدموع بعينه فلم تبرق عيناه حتى، وتعطلت طواحين الهواء بصدره؛ فلم يلهث ويشهق كما عهدناه، وتعطلت لغة الكلام على فمه؛ فكان وثنًا كالحًا لم تلتفت إليه فؤوس الحق لتكسره؛ إذ إنه بالفعل محطم ومفتت، ولكن يدعي الثبات!

اقتربت منه دلال الباكية، وقرأ مرادها في عينيها المشتعلة من لهيب الدموع، كان قد توجس مرارًا من قراءة ما قرأ، وإن كان ما قرأه قد كُتب بعينيه أولًا، وطُبع على قلبه مذ رن الصدى الأول للخبر المشؤوم، ولكنه كان أشبه بجذوة خامدة... واشتعلت!

قالت وهي تضرب بيديها الحانية على صدره المنقبض دون أن تنظر إليه:

- اعثر عليه... ائتني به...

لم يكن يحاول مجاراتها، ولا إسكاتها، كان واجمًا وجوم العدم قبل بدء الخليقة، تحركت عيناه في ارتعاشٍ نحوها؛ فسارعته، وهي تكزُّ بغيظ على أسنانها...

- ائتني به... حيًّا.

من بعيد كان الأدميرال فيدل يرقبهما في تأنٍّ وثبات، بعينين ثاقبتين، يقرأ ما سيحدث من طلاسم الحاضر، ويفك أشفار الغيب من الملامح ونبرات الصوت، تتقلب عيناه من هنا لهناك، لم ينكر أنه لوهلة أحس بشيء من الأسف - لا على الفقيد؛ فإنه وغد - إنك تشعر بالأسف عندما تخالط الحزانى والمصابين بأسهم الدهر، تشفق عليهم، أو ربما تشفق على نفسك؛ لأنك تعلم أن ما أصابهم قادم إليك لا محالة... أو ربما هو قد أتاك قبلهم؛ فتتألم من وخز إبر الماضي والذكريات!

ظل الوجوم على وجه الأدميرال لأيام لم ينقشع، بالرغم من محاولات ريحانة البائسة مرارًا ومرارًا لانتشاله من هذا الوجوم...

لا بد أنك تتساءل الآن من هي ريحانة؟... حسنًا.

دعني أحدثك أولًا عن تلك الحانة العتيقة، حانة السيدة ليزا، تلك التي سحرت أعضاء آل لوراسيا بأسرهم، بطاولاتها الدائرية، وعاهراتها الموهوبات، وخمورها المتنوعة، وبكل شيء... كانت ملاذًا للجميع، قِبلة للناس يهتدون إليها من كل اتجاه، ولكن في عصر الأهواز لم يكن مسموحًا أن تزاحم حانة العاهرات غرب لوراسيا الجديد، حيث معقل الأهواز، ومخدع الملك الجديد، ذلك الذي يدعي الفضيلة والتقرب من رب لا يناجيه سواه، رب يحرم على عبيده الانتشاء

والتلذذ بالنهود الرطبة المدللة، ولسوء حظها كان خلف ذاك الملك رجل عسكري قادم من بلاد اللالوراسيا البعيدة، وقدم معه عاهرات تلك البلاد، أقام لهن بيوت السهر في الشمال وكازينوهات، وحمى تجارته بالقضاء على الحانة الوحيدة التي تنافسه منافسة شرسة، فقامت ضد الحانة الظروف والقوانين والعقوبات، وتساقطت على رأس صاحبتها الادعاءات والتهديدات، وقل الرواد يومًا بعد يوم، وحربًا بعد حرب، وموسمًا بعد موسم، حتى كادت العاهرات بها أن يترهبنَّ!

لجأت السيدة ليزا إلى حيل عديدة للمحافظة على حانتها التي بنتها بنفسها، وفاقت بها أي حانة أخرى في تاريخ لوراسيا حتى غدا اسمها وحده يوحي بالانتشاء، ويبعث على الانتصاب، وتدرجت في الحيل والألاعيب وتفننت، في البدء كان العاهرات يقفن عند مداخل الحانة وأبوابها ومن حولها، وعلى مفارق الطرقات والأسواق، وعند محطات القطار والساحات العامة، بأثداءٍ عارية، وأفخاذ وفساتين قصيرة شفافة يسيل من وهج فحشها وإثارتها ما يسيل، يجتذبن الزبائن ويدعوهن... غير أن الحملة التسويقية المبهجة للأعين قد قوبلت بالقوانين الصارمة المانعة والمجرمة لها، وبتحديد الإقامة، وبحظر ظهور العاهرات في الأسواق والساحات

العامة ومحطات القطار؛ فعمدت السيدة ليزا إلى حيلة أخرى أشد مكرًا ودهاءً من سابقتها؛ إذ انتشرت العاهرات في بيوت الرواد القدامى وذويهم وذوي ذويهم، يمنحونهم ليلة من المتعة الكاملة بالمجان، ويعدون الزبائن بالمزيد إن هم أتوا لزيارة الحانة، ويرحلن محملات بوعود المجيء وريق الشوق وأحلام المراهقين، لكن الحملة التي لاقت نجاحًا كاسحًا، وأوشكت ليالي الحانة الصارخة أن تعود بفضلها، قد قوبلت أيضًا بحملة أشد من سابقتها؛ إذ انتشرت الشرطة الشمالية بأمر مباشر من الأدميرال فيدل، وتوزعت في أرجاء لوراسيا - عدا الجنوب بالطبع - وداهمت كل البيوت المشتبه في أمرها ليلًا، وعوقبت كل عاهرة بالجلد، وكل زانٍ بالتجريس؛ فخاف الناس ولم يغامروا، وعادت الحانة العريقة مرة أخرى خاوية، قلما تطأها قدم مريد؛ فتتهافت على خدمته خمسون مومس!

لكن ليزا لم تكن لتيأس، ولم تكن لتدع ما بنته على مدار الأعوام يضيع، لم يكن كل ذلك ليصبح خبرًا لكان، ولا هباءً منثورًا، فهدأت من حدة مقاومتها شيئًا فشيئًا ريثما تواتيها فكرة جديدة، وليصفو ذهنها كي تحسن التفكير، وأتى الذهن الصافي والأشهر المنقضية في السهر والتفكير ثمارها، وعملت السيدة ليزا على تنفيذ خطتها الماكرة، ووقفت ذات يوم ومن حولها رجال من الشمال وبناؤون، يبادلونها الكلام وفي أيديهم

مخطوطات وأقلام، ينظرون للحانة العتيقة ويشيرون بأيديهم هنا وهناك، وكذا حدث من الداخل أيضًا، وما هي إلا أيام قلائل حتى بدأ العمل الدؤوب على تنفيذ الخطة، والتعولم، والتعصرن، وترك العمل في الدعارة الفاحشة والبغاء الشنيع، وبدء العمل في الفنون ورقي الإنسان!

تحولت الحانة الضخمة العاتية إلى كازينو كبير شديد الوسع، له مسرح ضخم، تتراقص عليه عاهرات الأمس فنانات اليوم كل يوم في رقصات مختلفة، كاسيات عاريات، ببذلات رقص لم تختلف كثيرًا عن ثياب اللهو العارية، وبغنج مع كل تمايل وتمايل، وبضحكة مثيرة تشعل الصدر المظلم، وتؤنس القلب الحزين، وبنظرة غامزة لكل عين ترقب الجسد البض المثير، ونظرة، فابتسامة، فموعد، فلقاء في غرف الكازينو المريحة المجهزة بأمتع الفرش وأكثرها راحة وهدوءًا، حيث لا يُسمع لك صوت وأنت تتبادل المواهب مع فنانتك المفضلة!

ولزوم التعولم والتعصرن ظهر المطربون والمطربات، وتغنَّوا بأفحش القصائد والأشعار، أشعار المجون والولع والعشق، وبين غمضة عين وطرفها تحولت السيدة ليزا من أكبر قوادة في التاريخ اللوراسي بأسره إلى مستقطبة مواهب، وإلى أكبر داعمة للفن في تاريخ لوراسيا الحديث، وتهافت على حانتها من الناس الجميع، وتباينت مواعيد حفلات الفنانات والفنانين لتناسب أذواق العامة والقادمين من كل

مكان، فيوم تقام حفلات راقية وعلى طرازٍ عالٍ للقادمين من الشمال، ويوم تقام المسرحيات الإباحية، وتُعزف الأغنيات الخليعة، تهتز على أنغامها أرداف الفنانات للقادمين من المناجم والسكك الحديد، ويوم يتشارك فيه الرواد الرقص مع الراقصات، وهكذا دواليك، وتباينت جذور الراقصات وأصولهن، فبالرغم من أن الغالبية العظمى الكاسحة كنَّ من عاهرات الحانة، فإنه قد أضيف إليهن عدد ليس بالقليل من المشردات اللواتي بلا بيوت، ومن أسيرات الغزوات والحروب، وكذلك ذوات الطموح الهاربات من سقف الأسرة المقيدة بالعيب والأعراف، كثيرات أتين نازحات من أرض الجنوب، حيث كنَّ يعاشرن في الأزقة والخرابات والعشش المبنية من القش والخشب المنخور، وواحدة من هؤلاء كان لها بجانب الجسد المبروم صوت له وقع في النفس كخرير المياه في الجداول، كانت ريحانة اليافعة ذات العود الأخضر النديِّ، والعمر في مطلع الربيع، زهرة نمت في مستنقع الخراء، خطف جمالها السيدة ليزا فور رؤيتها لها أول مرة، وعندما استمعت لغنائها... سُحرت بها، وقررت لها مصيرًا مغايرًا، فلم تقدمها للرواد كغيرها من المطربات، واختصت لريحانة أذنًا خاصة تغني لها وحدها، فكانت أذنًا منصتة غاية الإنصات، وأعينًا منبهرة كأنما تشهد أحد المعجزات، ووقف لها الأدميرال مصفقًا بعدما كان قد قرر أن يطردها وليزا قبل أن يستمع، وهام بها ولعًا وجنونًا، وقبل

أن ينطق بكلمة، عاجلته السيدة ليزا في ذكاء حاد، بعدما قرأت ما على وجهه من علامات، وقالت: هي لك يا صاحب الأمر، تأتيك خصيصًا وقتما تشاء، تغني لك وحدك، وتبهرك بصوتها الخلاب، وجمالها الأخاذ، وأحس فيدل كأنما سرقت ليزا عن لسانه الكلمات، فأسرته بصنيعها... وبعد أيام قلائل، بارك افتتاح كازينو ليزا الجديد الأدميرال فيدل بنفسه باعتبارها خطوة عظيمة نحو مستقبلٍ مشرق مزدهر بالفنون والرقي، وضربة قاصمة للأمس الشهواني البغيض!... وهكذا اكتست الحانة الكبيرة بثوب شرعي معاصر!

وهكذا نمت في حياة الأدميرال المقفرة القاحلة ريحانة خضراء، أضفى عبيرها أريجًا يزاحم عفن الأيام، ولصوتها الخلاب عذوبة تصارع صراخه في الأحلام، ولجسدها المثير لذة لا توصف، لكنها لذة على طريقة مستهجنة غريبة؛ فللأدميرال أسلوبه المفضل في ممارسة الجنس يختلف عن آل لوراسيا وإيفريقيانوس، فهو يهوى الألم، والتذلل، وابتذال النفس، والامتطاء، وذلك لأثر بعيد قابع في ظلمات نفسه...

ولد الأدميرال فيدل لأبٍ معتوه سكير، وأم ككل أم، وإخوة تعساء حظ شاركوه نفس الحياة المريرة، وشربوا معه من نفس الكأس العلقمي، كان الأب مدمنًا للخمر، شرهًا لا يقوَ على فراقه سويعات، وكالعادة كما يحدث في كل قصة إدمان باهتة مكررة محفوظة التفاصيل والمشاهد، إدمان شديد، ثم ديون

لشراء الخمور، ثم فقر مدقع، ثم الضرب المبرح الذي تناله الأم كلما حاولت أن تثني أباه عمَّا يفعله، كلما حاولت أن توقظه، وكلما لاحت على وجهه المغيم علامات الاستفاقة هوى على وجهها المكروب باليمين والشمال حتى تتلاشى ملامحها تمامًا من الانتفاخ الذي يصيبها من شدة اللكمات، وصراخ الأولاد من حول الأبوين المتصارعين يغرس في نفوسهم حسرة ومرارًا لا منتهى له، يتذكر تعابير وجه أخيه الأصغر الهالع، ونبرة صوت أخته التي تكبره مباشرة وهي ترجو أباها أن يكف عن لطم أمها التي تكاد تموت تحت قبضته، وأخته الأخرى التي صرخت في وجهه كي يتوقف، يذكر كيف وقف من بينهم جميعًا... باكيًا، تبلل سرواله من الفزع والرعب، لم يتمالك أي عصب في جسده، فكان لينًا مرتخيًا، يرقب ما يحدث برؤية مشوشة من تتالي الدموع، يتذكر كيف استأسد أبيه عليهم جميعًا، وراغ عليهم ضربًا باليمين، يضرب الجميع بلا رحمة، ودون أن يعبأ بصراخ الصغار، ونواح الأم، ولا طرقات الجيران على الباب حتى كاد أن ينخلع، ورغم أن أباه كان سكرانًا لا يعِي ما يفعل، ولا من يضرب، ولا كيف يضرب... إلا أنه لم يمسه قط! طال الأذى أمه وإخوته جميعهم... إلا هو! كان الأمر غريبًا بعض الشيء، ولكن الأكثر منه غرابة ما حدث بعدها بعدة أيام، بعدما نشبت مشاجرة شبيهة بتلك، وانتهت نفس النهاية،

وخلد الجميع للنوم بأجساد متورمة، ووجوه منتفخة إلا فيدل الصغير الذي استيقظ في الليل على صوت الصراخ، ورأى من الهول ما لم يتحمله صبيٌّ في عمره، رأى أباه وهو يمر بشفرة الموسى الحادة على أعناق كل من في البيت، أمه وإخوته جميعهم، ذبحهم ذبحًا، وعندما تطايرت نافورات الدماء من أعناقهم، وبقي وحيدًا يرقب أبيه ومن تحته تسير الدماء تباعًا، خبأ عنقه الصغير بكفه، وأغمض عينيه، وانتظر دوره في خوف لا يوصف، لكن الوقت مَرَّ، وعنقه لم تقطع بعد، فاختلس النظر من بين أصابعه ليجد أبيه قد ذبح نفسه، وارتمى على الأرض منتظرًا الموت، لم يدرِ في ذهن فيدل الصغير وقتها غير سؤال واحد، ما زال يردده حتى الساعة: لِمَ لَمْ تقتلني معهم؟ لِمَ أنا؟ ونما الفتى الصغير، ومرت به الأيام والأعوام، وبداخله يقين ثابت واضح كالشمس أنه لم يكن يستحق تلك الرحمة التي أهداه إياها أبوه، كان يجب أن يُذبح كأمه وإخوته، كان يجب أن يلقى نفس المصير، ولهذا، كان يهوى الألم والتعذيب، كان يحب أن يُهان ويُستباح ويُمتطى، كان يبحث عمن يعنفه، ويبغض من يرقُّ له ويلاطفه، فلا تتعجب كثيرًا عندما تجده متأثرًا برحيل صخر بن قسورة، فصخر هو الوحيد من الأهواز الذي صرخ في وجهه وعنَّفه، وكال إليه وابل من الاتهامات، وصرخ بوجهه مرات عدة، أما وقد رحل، فقد ترك رحيله في نفس الأدميرال أثرًا بالغًا، وتراكمت

أكوام الهموم على صدره؛ ولهذا... ظل الوجوم على وجه الأدميرال لأيام لم ينقشع، برغم محاولات ريحانة البائسة مرارًا ومرارًا لانتشاله من هذا الوجوم...

***

في الوقت الذي كان الغرب غارقًا في أحزانه وحداده البائس، كان الجنوب مزدهرًا محتفيًا عارمًا بالزينة، والمحافل، والأناشيد، وأهازيج الفرح والسرور...

في تلك الليلة الموعودة بعدما لاذ بالفرار من لاذ، وسقط قتيلًا من سقط... امتطى الفتى جاك والأسطى زيان الذي فُقئت عينيه لتوه حصانًا، وتوجها به ناحية أقرب محطة قطار متلحفين بغطاء الليل الغطيس، يتواريان به عن الأنظار.

أتى القطار أخيرًا قبل أن يصل الحرس المطاردون لهما، استقلا آخر عربة في الدرجة الثالثة الفقيرة، كانت شبه خاوية إلا من عاشقين يتناكحان في آخر مقعد، كان الفتى جاك ملثمًا، فنزع عنه لثامه؛ كي يلتقط من الأنفاس، ويزفر ما يهدئ أوصاله ويطمئنه بأن مهمته قد تمت بنجاح، وإن كان للمهمة خسائر لم يكن يرجوها، لكن ما جرى قد جرى وانتهى، لا فائدة من اللوم والعتاب؛ ولهذا استأنف تفكيره لما سيحدث بعدها...

حاول أن يجر حديثًا مع العجوز الأعمى بجواره، لكنه تفاجأ بأن زيان قد أغشى عليه مرة أخرى من شدة الألم، أو من هول الصدمة... كيف يكون شعورك عندما تعلم أنك لن تبصر شيئًا بعد الآن؟

كان يعلم أن الطريق طويل حتى يصل القطار إلى محطته المرجوة على مشارف الجنوب المنتظر، وكان النوم مجافيًا لعينيه لا يعرف ما السبب، من الطبيعي بعد النجاة من أحداثٍ كتلك أن تثقل جفونك ويشتاق جسدك لساعات من النوم الثقيل، لكن ذلك لم يحدث للفتى جاك، فقضى وقته منشغلًا بمراقبة الليل القاتم من حوله، يرقب السكون خارج النوافذ المهشمة تارة، ويتأمل العجوز النائم في بحرٍ من الألم تارة أخرى، يأسف عليه كثيرًا، ويأسف له أكثر، تراوده تساؤلات كثيرة لا إجابات لها، ما الذي حدث في لوراسيا بعد حرب الثالوث المقدس؟ ما الذي فاته؟ وما الذي جرَّ الأسطى زيان إلى ذلك المصير المذل في تلك الزنزانة الكئيبة وحيدًا يلعق التراب! ومن هذا العجوز الذي أصر زيان أن يهرب معهم؟ وما تلك اللفافة العجيبة التي سقطت منه؛ فافتضح بسببها أمرهم؟ وانتبه لصوتها صخر فقتلهم وقتلوه؟ تذكر تلك اللفافة العجيبة من الورق... كان قد التقطها قبل أن يلوذا بالفرار من زنزانة المعاتيه، وخبأها في صدره؛ فاستخرجها بتلهفٍ لاستكشافها، من ملمسها استكشف أنها عبارة عن حزمة من الأوراق العتيقة وجلد مدبوغ وجريد، ملفوفة بحذر فوق

بعضها البعض، ومحكمة برباط موثوق بعقدة قوية، لم يمهل نفسه وقتًا لفك العقدة؛ فقطعها بخنجره الصغير؛ فانفرطت الأوراق جميعها من حوله وتبعثرت، حمل ورقة وقربها من عينيه علَّه يلتقط ما عليها في ظل تلك الظلمة لكنه عجز، فأجَّل مطالعتها إلى وقت آخر، وهمَّ بجمعها مرة أخرى، لكنه سمع أنينًا من العجوز النائم بجواره، فقال مطمئنًّا...

- أنت بخيرٍ الآن...

وضع زيان يديه على أعينه ليتأكد أن ما حدث لهما لم يكن محض حلم كالح أو كابوس أسود سينقشع باستفاقته، لكنه استفاق، والكابوس لم يبرح محله؛ فصرخ صرخة جازعة وعوى، فعاجله جاك واضعًا كفه اليمنى على فم زيان؛ فكتم صوت أنينه، وقال بهمسٍ حاذر...

- صه، ما زلنا لم نصل بعد، الخطر حولنا في كل مكان... تحامل قليلًا.

لم يجبه زيان، لكنه ازدرد ريقه مرات عدة، وقضم بكامل قوته على كفه كي ينفسَّ عن ألمه؛ لكيلا ينفجر، فرقَّ له جاك، وقال وهو يمسح على ظهر كفه برفق...

- أبليت حسنًا أيها العجوز... كنت شجاعًا كالعادة.
- أين المعلم بنيامين؟ (ثم مناديًا) بنياميييين.

فكتم جاك صوته مرة أخرى بكفه، وقال:

– لا تهلكنا مرتين! (ثم بصوتٍ أخف حدة) لقد سقط بنيامين هذا...

– مات؟

– لم يبقَ منه سوى تلك الأوراق...

بكى زيان بحرقة شديدة لا تليق بسنه أبدًا ولا بشخصه الذي عهده جاك، جلدًا وصلبًا ومتحاملًا، لكنها السنوات... قادرة على قصم الظهور، ونحت الصخور، ودك الجبل!

– كان أضعف من أن ينجو... لو كنت أعلم لما خاطرت وعدت من أجله.

لم يجبه زيان... وكأنه لم يسمعه!

– لكنني عدت من أجلك...

قالها جاك ملاطفًا، فهدأت حدة بكاء زيان قليلًا وانتبه، وكأنه كان في عالمٍ آخر غير عالمنا، عالم موحش وحزين وكئيب، عالم مظلم مدلهم، وأتته الكلمة اللطيفة كشعلة نار من بعيد، تنير له الطريق وتهديه... فانتبه.

وقال بمزاح عاتب:

– أشهرت في وجهي سيف الأهواز حين رأيتني منذ سنوات!

- لم تكن بيدي حيلة، إن أراد الحمَل الضال أن ينجو من قطيع الذئاب فعليه أن يعوي مثلهم!

ضحك زيان ضحكة متألمة، ثم قال:

- صرت رجلًا يا بني...
- بحثت عنك بعدها في كل شبر من لوراسيا ولم أجدك، قضيت سنوات في الشمال كفردٍ من حرس الشرطة، وبحثت عنك في كل المناجم، القديمة والجديدة، النحاس والذهب والفحم، ثم انتقلت للغرب بجوار الملك قسورة، وكنت أتجه للجنوب بين حين وآخر أبحث عنك، وأسأل من قد يعرفك عنك... الجميع هناك يقدسونك كأنك نبي، يقولون بأنك رفيق الرب الرحيم!

كان زيان شاردًا، يتأمل كيف صار الفتى رجلًا، وكيف استوى ونضج، ثم قال مداعبًا...

- أين ذهبت لكنتك؟

ضحك جاك بحسرة، ثم قال...

- تخلصت منها
- بالسحر؟
- بل بالتدريب... كنت أبتلع الحصى حتى يثقل لساني؛ فلا يتتعتع... أنت لا تعرف ما الذي يلقاه فتى غريب

وسط قبيلة مترابطة من الحمقى، فما بالك إن كان خفيف اللسان وأحمق! كان لا بد من التحامل حتى أتخلص من المضايقات التي تقابلني كل لحظة.

- الأوغاد في كل مكان حولنا...

كان الفجر وقتها على وشك البزوغ، حينما زفر القطار بوصوله للمحطة المرجوة، فاستنهض جاك زيان بروية، وانطلقا خارجين من المحطة، فوجدا رجلين من العامة في انتظار مقدمهما منذ مغرب الأمس. استبشر الرجلين وهرعا نحو جاك وزيان فور رؤيتهما، وعاجلاهما بالتهليل والترحيب، ثم إنهم نكسوا وتعسوا حينما رأوا أعين زيان وقد صار بهما ما قد صار، فغمز لهما جاك بأن الوقت غير مناسب للحديث فلم يعقبا، وانطلقوا جميعًا عبر الغابة الكثيفة حتى أتوا إلى مواضع معينة، معروفة ومحددة، تختبئ تحت الأوراق اليابسة أبواب خشبية، تتوارى من تحتها أنفاق تمر من أسفل الجدار العازل، تصل بين الجنوب وبين الكون بأسره، خرجا على الناحية الأخرى من الجدار، في الجزء المنعزل من الكون، حيث زوجان من الخيول ينتظراهم، ولم يمر من الوقت الكثير، حتى بدأت البيوت الطينية تلوح في الأفق، ومن أمامها أمم من الإلياسيين ينتظرون مقدم رفيق ربهم على أحرٍّ من جمر الجحيم، وعندها هرع أحد

الرجلين نحو الجموع الواقفة، وصرخ فيهم محمسًا ومبشرًا؛ فتعالت الصيحات والبشارات، ودق الطبل واهتزت الأوتار، وصدحت النساء بالغناء، وهرع الرجال نحو الخيول، فحملوا عنها رجلهم ونصيره، وحملوا الأسطى زيان على أعناق الأعناق، وقدسوه وسبحوا بحمده وكبروه، وخضعت له أعناقهم الخاشعة، وترقرقت من صورته قلوبهم المفجوعة، وتعالت صيحاتهم بعدما أشاح لهم بيمناه محييًا، وخلعوا عنه أي ألقاب دنيوية، ونزهوه عن الكلمات البائسات، كالأسطى والملك، وأعلنوا حواريّ الرب إلياسين، وأصبح اسمه بينهم «الحواريُّ زيان»، واستبشروا بهذا الاسم غاية البشرى، وتلألأت أعين الفتى جاك بما رأى وبما سمِع، خاصةً بعد أن اجتمعوا على بناء صومعة مقدسة من الرخام، تطلى قبتها من ذهبٍ يُجمع من حُليِّ القوم وزينتهم، وبعدما تساهموا على شرف ضيافة حواريِّ الرب فيما بينهم حتى يكتمل بناء الصومعة المقدسة... قالوا:

يا أيها الناس، جئناكم بآية من ربكم، والسلام على من اتبع الهدى.



(٢)

أغنيات إلياسين

كان الفجر على وشك البزوغ عندما عاد إلياسين إلى الكوخ الخشبي الصغير الذي يأوي ثلاثتهم، عاد نشوانًا، طربًا، يدندن بألحان الفرقة الجديدة وأغنياتهم، ما زال صداها يدوي في أذنيه، كان يغني بصوته العذب الحنون الدافئ، وبالرغم من الغِناء والطرب، كان إلياسين حزينًا ومنطفئًا، يبحث عن مأوى يحتويه، عن دفءٍ يعانقه ونسمة تهب في صحراء صدره فترطبه... كان إلياسين وحيدًا، يفتقد البيت والشريك، بعدما استوحش الكوخ الصغير، وتغرَّب عن الرفيقين اللذين آوياه مذ وجدوه صغيرًا لا يفقه في دنياهم شيئًا سوى البكاء والخوف!

كانت دولسين يقظة تغني، لم يراودها النعاس؛ فشغلت نفسها بحياكة وشاح من الصوف للعم نَجم استعدادًا للشتاء،

كانت منهمكة في حياكة خيوط الصوف، وعيناها لم تبرحا الإبرتين الضخمتين وهما ينسجان ويمزجان بين الألوان الأسود والأحمر القاتم، لكن ذهنها حاضر، واشتمت رائحة القادم الطرِب، وسمعت وقع أقدامه على الأرض الخشبية؛ فاهتز غناءها السلسبيل ونشز، وسرت في يديها رعشة اضطرب منها مسير الإبر؛ فشاكت إحداهما إصبعها فصرخت متألمة... اقترب منها إلياسين ليطمئن عليها فنفرت منه، وانكمشت على نفسها لا تبادله اهتمامًا، ولا تعيره أي انتباه، فغضب إلياسين حينها... غضِب وهو الذي لا يغضب قط، اشتعلت عيناه الرماديتان من الغيظ وصرخ بوجهها...

- ماذا فعلت لكل هذا؟ ألأنني أحبك؟ أيكون هذا الجفاء جزائي؟!

حينها ابتسمت دولسين نصف ابتسامة، وهي مطأطئة رأسها على صدرها، وادعت انشغالًا بالحياكة، وقالت بهدوء بارد...

- أنت لا تحبني...

تعجب من مقالتها، واستوحش ردها، وتعكرت صفحة وجهه المكفهرة، ولم يجد ردًّا مناسبًا يجيب به على تلك الجملة التقريرية الفاصلة، وكأن صاحبتها قد اطلعت على قلبه، وأيقنت حق اليقين من أنه لا يحبها!

- المحب لا ييأس... وأنت يئوس.
- دولسـ...

قاطعته بحزم، والصوت ما زال بنفس الهدوء البارد:

- المحب لا يهجر... وأنت هجرتني.
- لم أهجركِ، بل إنـ...

قاطعته مجددًا وكأنها لا تنصت إلى ما يقول:

- المحب لا يملُّ... وأنت مللتني يا إلياسين!

اهتز وتر ضعيف من أوتار صوتها وهي تنطق اسمه؛ فبدا كما لو أنها تستعطفه أو ربما تعاتبه عتاب المحبين، حتى وإن طغى على سمت كلامها البرود والهدوء المستفز، لكن إلياسين لم يلحظ كل هذا، كل ما حدث فقط أن هدوءها الزائد عن الحد قد استفزه استفزازًا شديدًا، استفزازًا أعمى العينين الرماديتين الشابة عن النظر، وعن ماهية من يخاطب...

إنها محبوبتك يا فتى، أيفعل المحبون ما فعلت الآن بدولسين! ذلك الصراخ الهائل حتى بُحَّ صوتك منه، وأفزعتها من سكونها، وأيقظت نَجم من رقدته كمن قام ليوم الحساب! وتلك الأواني التي كسرتها، وذلك الكرسي المفضل لها الذي حطمته بثورتك العارمة وأنت معمي تمامًا... بالله قل لي: أيفعل المحبون هذا؟

كان بديهيًّا جدًّا أن تتركك وتنجُو بنفسها قبل أن تصدمها بشيء، وأنت غير مدرك ما تفعل... فلم انفعلت أكثر؟ ولم اعتبرتها إهانة؟ ولم صرخت أكثر حتى أيقظت الجيران من حولك، وأنتم الذين لم يُسمع لكم عبر السنوات صوت؟!

لم يطردك العم نَجم من كوخه الهزيل - وإن كان له في ذلك حق - بل أنت الذي فعلت بنفسك ما فعلت... وفررت منهم لما يئست، وهجرت، ومللت... فكنت كما قالت دولسين الجميلة، وهرعت تركض في الفضاء الرحب ركض الخائفين، علام تبحث أو عَمَّن؟ لا أحد... لا ملجأ ولا منجى لك من الدنيا إلا في هذا الكوخ الخشبي المتواضع، ولا أنيس ولا جليس لك إلا هذين النفرين: العجوز والجميلة، لكنك كنت أحمق من أن تدرك هذا، فظللت تجري وتجري وتجري؛ حتى توقفت قدماك فجأة عند عربة قديمة نخر السوس فيها وعبث، تلك العربة التي زارت أخطاب الليلة، واختبأت بين عجلاتها الخشبية، ونمت فوق اللوح الخشبي الواصل بين العجلات ككلاب الشوارع والقطط الضالة، ولم تشعر إلا وأيدي النعاس تتخطفك كما تتخطف الضباع اللحم، فنمت نومًا عميقًا لم تشعر معه بتحرك العربة، نمت بعدما ثقلت جفونك كأنها الجبال، ورن في أذنيك لحن لن تنساه يا إلياسين، آخر لحنٍ سمعته من محبوبتك، دولسين الجميلة...

«بخلان عليا بهوى... قال يعني كان كيوبيد

ياللي انت جرحك دوا... ليه البعاد بيزيد!

عجبي على قنديل... يا بحر طفيته

كان للخطاوي دليل... نشِّفت ليه زيته؟!»[1]

❦❦❦

في الصباح استيقظت الأعين الرمادية على صيحات فزع وتعجب!

فتح عينيه بروية كي لا يؤذيها ضوء الشمس المنعكس من صلعة القزم الغضوب الذي ركله في ساقه بعنف، وزجره، وهَمَّ بطرده، لولا أن إحدى الفتاتين اليافعتين كانت قد انتبهت، وأتت مهرولة لتنظر ما الذي يحدث، فإذا بها متسمرة كالمسحورة أمام العينين الرماديتين، وقالت بنبرة المشدوه المتعجب:

- من أين لك تلك العينين؟!

تلجلج الفتى مما يحدث أمامه، ولم يجد ردًّا، غير أن قدوم الساحر برَّاق الذي أتى من الجلبة، وتباطؤ القزم والفتاة في الرجوع قد استحثاه على استكشاف الأمر؛ فأتى ومن خلفه

---

(1)من قصيدة: السندباد لـ محمد البشير.

أتت اليافعة الأخرى، كان في مقدمه إنقاذ لإلياسين من ورطة ذلك المديح الذي لم يعرف كيف يرد عليه... كان برَّاق الذي تصنع الرهبة والجدية ليلة أمس بمساحيق التجميل والثياب اللامعة والأضواء والبهرجة، بدا عجوزًا سمينًا أقرب للشفقة منه إلى الهيبة والوقار بعدما رآه إلياسين خاليًا من مساحيق التجميل، وبثياب النوم المرقعة، وعلى رأسه قبعة النعاس المخروطية المضحكة، كان يبدو ظريفًا وبسيطًا؛ ولهذا تعجب إلياسين من ادعاء هذا الرجل لصفاتٍ لا يملكها، وقال في قرارة نفسه... هكذا الدنيا!

- ما الذي تفعله هنا أيها الصبي؟

تساءل برَّاق؛ فتلجلج إلياسين وأجاب القزم متأففًا...

- كان نائمًا في صندوق العربة الخشبي، لا بد أنه كان سيحاول سرقتنا ذلك الوغد الشاحب.

قالها مقولته العنيفة ثم تبعها بركلاتٍ عدة في ساق إلياسين؛ فتألم، قبل أن تتدخل الفتاة اليافعة القريبة منه، وتقترب منه أكثر لتقول بميوعة زائدة...

- أنَّى لهاتين العينين الساحرتين أن تسرقا!

داعبت ذقنه بأطراف أصابعها، واقتربت حتى لفح وجهه صهد أنفاسها الهائجة؛ فنهرها برَّاق بعنف قائلًا...

- جِنان... كفى عبث (ثم موجهًا حديثه للقزم بلا مبالاة) دع الفتى يرحل يا بهلول، يبدو أحمق، ظل خارج بيته أكثر من اللازم.
- سمعت ما قاله... والآن ارحل... ارحل، وعد إلى بيتك أيها الوغد الشاحب، لا بد أن أبويك يبحثان عنك...

قالها القزم وهو يدفع إلياسين مستحثًّا إياه على الرحيل.

- ليس لي أب أو أم...

قالها إلياسين لبراق، فتألمت جِنان، وقالت بحزن مائع...

- يكاد قلبي ينفطر!
- حسنًا، عُدْ إلى بيتك الذي تسكن فيه...
- ليس لي بيت يؤويني... أنا ربيب الشوارع!

تألمت جِنان أكثر فأكثر، ونظرت بعينيها الدامعتين نحو برَّاق تستعطفه، وقال القزم بنبرة شك...

- ثيابك نظيفة، ليست بثياب أرباب الشوارع، يا لك من كاذب أبله! والآن اخرج من هنا أيها الكذاب الشاحب... اخرج ولا تريني وجهك ثانية وإلـ...
- تعالَ يا فتى...

ناداه برَّاق بترفق زاهق، فتوقف القزم بهلول عن زجره إياه، وتحركت قدما إلياسين ببطء نحو برَّاق الذي كان واقفًا على عتبات العربة الخشبية، من خلفه الفتاة الأخرى ترقب ما يحدث دون أي تفاعل، ولا حتى بتعابير الوجه.

توقف الفتى أمام برَّاق الذي وضع كفه الدافئ على كتفه وسأله...

- هل أعجبك ما فعلناه ليلة أمس؟

فهزَّ إلياسين رأسه وقال...

- لم أفهم ما حدث بالضبط، ولكن رؤية الناس سعداء بهذا الشكل أبهرتني...
- أوووه... قلت إن هاتين العينين الساحرتين لا تعرفان السرقة، بل تعرفان الرحمة والحب.

قالتها جِنان، فتساءل إلياسين...

- لِمَ خرج الناس من عربتكم سعداء هكذا؟ هل هو السحر؟

ضحك برَّاق وتأمل إلياسين ضحكته عن قرب شديد، كيف كانت لطيفة ورقيقة، وكيف أن هذا الوجه الودود ذا الوجنتين الدمويتين لا يمكن أن يخيف مخلوقًا!

- أتريد أن تجرب حظك مثلهم؟

كان العرض مغريًا بحق، لم يستطع الفتى أن يرفضه، ولا أن يتردد في الموافقة عليه حتى، بل وافق بكل كيانه، فلكم كان مندهشًا ليلة أمس وهو يرقب الناس ويتساءل، كيف يدخل الواحد منهم إلى العربة حذرًا محترسًا يرقب خطواته، ثم يخرج منها نشوانَ، مبتهجًا، رائق البال والمِزاج كأنه ولد الساعة؟! كان الأمر لغزًا بالنسبة إليه... وكاد التشويق أن يأكل عقله من شدته، فضحك برَّاق من لهفة الفتى، وأشار لفرقته كي يهيئوا العربة الخشبية خصيصًا للفتى.

فتح القزم الجانب الخشبي من العربة الذي يواري من خلف أخشابه المسرح الصغير، وهرعت جِنان لتبديل ثيابها، ووضع مساحيق التجميل، ووقفت الفتاة الأخرى - واسمها رزان - ترقب ما سيحدث، وصعد العم برَّاق الدرج ممسكًا بيد إلياسين بيمناه ويسراه على كتفه، يصعدان ببطء الدرجات القليلة، ولوقع أقدامهما صرير للخشب القديم يسمع من بعيد، همس برَّاق في أذن الفتى بنفس الكلمات التي همس بها في أذن كل من صعد الدرج نفسه ليلة أمس ليخوض تجربته السحرية التي ثمنها خمسة قروشٍ فقط...

ملحوظة:

لا يخدعك المسرح والأدوار...

المكياج... الأزياء... الديكور... الإكسسوار

هذا بعض السوس...

الزاحف في المقهى الملعون...

والآتي من عهد الهكسوس...

جاسوسًا خلف الجاسوس![1]

تقدم الفتى بخطى حذرة نحو المسرح الضيق، وتوقف أمام ستائر الخلفية التي كانت تخفي من خلفها بابًا صغيرًا لا يُرى من بعيد، ثم توقف والتفت ليرى الأعين من حوله ترقبه، أعين برَّاق بعطف، وأعين جِنان بخوف، وأعين بهلول بحماس، وأعين رزان بلامبالاة أو أي اهتمام... لم ينتظر الفتى كثيرًا، فسحِب نفسًا كمن يهم بالغوص، واخترق الستائر السوداء بتحفز شديد؛ ليجد نفسه يتخبط في ظلمات لا قاع لها أو قرار، فاحترس، وتمهل، وحاذر في مشيه كي لا يبتلعه الظلام أكثر، في تلك الأثناء كان العم برَّاق قد أخذ موقعه المعهود، وعمِل ما اعتاد أن يعمله وحده، وتمتم بالكلمات التي نسجها بنفسه؛ فإذا بالقناديل من حول إلياسين تضيء فجأة، في البداية كان الضوء خافتًا، ثم أخذ في الازدياد؛ فتكونت من انعكاس بلور القناديل أطياف لطيفة، ثم توهج فتوهج، فحمي حتى آذى الأعين الرمادية؛ فاحتمى خلف أصابعه من ضوئها الذي

(1) نجيب سرور - بروتوكلات حكماء ريش.

اختفى فجأة، وإذا بأرض شاسعة واسعة سرمدية الوجود لا آخر لها ولا أول، فغر إلياسين فاه وهو يتأمل الأرض من حوله، وبراعمها اللطيفة في كل مكان، وعلى مرمى البصر كانت بحيرة رائقة ذات موج ناعس يتراقص فوق صفحتها انعكاس الشمس الكسولة الآخذة نحو الغروب، لم يكن هذا بشيء يُذكر أمام ما وجده إلياسين في البحيرة، تلك الحورية اليافعة التي تسبح برقة، تتلاعب مع الموجات العذبة، وتستلقي بخفة تليق بها فوق صفحة الماء، دقق إلياسين إليها ناظريه، فوجدها، تلك الحورية التي لقيها ذات مرة في السماء السابعة، حين انتشى، وتلامست أصابعهم في جرأة لم يعهدها على نفسه، أحس بخدر الفرح يسري مع دمائه، وسَكر من فرط النشوة، واقترب لينهل من خمر اللقاء، فلمحته الحورية السابحة، وتوجهت نحوه متحفزة، وخرجت إليه في دلال يليق بحورية مثلها، كاد أن يلعن حينها أشعة الشمس التي توهجت على حين غفلة من خلفها، ففاته ابتسامتها الرائقة، وفاته رجرجة نهديها الناهضين المدللين، وفاته مما فاته الكثير، وبين طرفة عين وأخرى وجدها قد أتت، واقفة أمامه يلفح صهد أنفاسها وجهه؛ فيتنفسه عبيرًا صافيًا يحيي الموتى ويبعث من في القبور، تأملها عن كثب، وضمها برفق شديد، ولم يشعر بشفتيه الغائرتين بين شفتيها اللذيذة، ولا بيديه اللتان أحاطتا خصرها اللين، ولا بأنامله التي داعب قطرات

الماء الذائبة على ظهرها الحنون، كان سكرانًا، وتمنى لو لم يفق من سكرته، تمنى لو يتوقف الزمان لحظتها، لو يتوقف الكون عن الدوران، لو يتوقف كل شيء من حوله، وتمتد تلك اللحظات القصار لأطول أمد ممكن، لكن اختفاءها من بين يديه فجأة، والظلام الذي عَمَّ البراح من حوله فجأة، والبرودة التي اجتاحته فجأة، والعودة إلى المسرح الخشبي مرة أخرى، والتطلع إلى وجوه الناظرين من حوله، كل ذلك أغضبه، تلك الاستفاقة السريعة غير الممهدة، تلك الجذبة العنيفة من أعماق الحلم الوردي نحو الواقع التعس... أغضبته، وأثارت نقمه مرة أخرى، وأشعلت الدم في أوردته حتى غلى، لكنه تمهل، وكز على شفتيه، وأغمض جفنيه لحظة ليعي أين هو، ومن أين أتى...

- لك أحلام جميلة يا فتى... ستعجِب جِنان إن رأتها.

قالها برَّاق الذي ظهر فجأة، واقترب حتى همسها في أذني إلياسين الذي تساءل في عجب بالغ...

- كيف عرفت أن هذا ما يدور بخاطري؟!
- تلك بضاعتي... أليس هذا ما تشعر به؟

كان برَّاق يضحك حينها عندما رأى التعجب على وجه الفتى، لكنه أُخذ حين قال إلياسين بثبات...

- بل هذا ما تريدني أن أشعر به...

فربت على كتفه بروية وابتسم نصف ابتسامة، ثم نظر نحو بهلول وقال آمرًا...

- أخرجه الآن.

فاقترب القزم الغضوب من إلياسين، وعاد يركله مرة أخرى، ويزجره ليبتعد عنهم، ويرجع من حيث أتى، فتعجب إلياسين من ذلك ولم يفهم لِمَ؟ وقال صارخًا...

- أريد أن أنضم إليكم.

فتحمست من مقولته جِنان، والتي كانت تخبئ بكفيها فاهها من الحزن حين رأت بهلول يطرده، وخشيت أن يبتعد، ثم قالت ترجو رحمة برَّاق وتستعطفه...

- برَّاق، لا تطرده، عسى أن ينفعنا.

فتساءلت رزان لأول مرة بنبرة لا تحمل أي لون...

- وكيف سينفعنا؟!

فأمَّن براق على سؤالها، وكرره لجِنان التي وجمت، وقالت بعاطفة مندفعة:

- أي شيء، من الممكن أن تجد له أي شيء يشغله بيننا.

حينها صدح إلياسين، وقال بصوتٍ عالٍ...

- إنني أجيد الغناء.

فركله القزم في ساقه بعنف، وقال:

- ومن قال لك إننا في حاجة إلى مغنيين! والآن ارحل من هنا.
- انتظر.

قالها برَّاق؛ فتوقف بهلول عن ركله، وتوقفت جِنان من التحفز على أطراف الأصابع، وقال برَّاق...

- قد نحتاج إلى مغنٍّ في الفترة القادمة، ولكن دعني أسمعك أولًا لأرى إن كنت تجيد الغناء حقًّا أم أنك حاذق في ذاك أيضًا؟...

حينها بدأ إلياسين بالغناء، غناءً عذبًا سلسبيلًا لم يسمعوا مثله من قبل؛ فبُهتوا أمام صوته وعجبوا، أنَّى لشخص أن يجمع بين ندرة الأعين وعذوبة الصوت في آن واحد، وأخلوا له مكانًا بينهم مرحبين به...

وكذا... انضم إلياسين لفرقة الساحر العظيم برَّاق.

❦❦❦

- كحبلٍ هزيل يتدلى في فوهة بئر ضخم... فما حيلته؟!

منعتها أرطال الدهون من خفة الحركة، فكانت تستلقي على ظهرها، ويباشر هو المهام كلها بجسده الهزيل حتى

نحل وبره، وجف عوده، فيتعجل الأمر ولا يتمهل، لا ينظر ولا يتأمل، حركات سريعة متتالية تنتهي بفتور مصحوب بوجوم حزين، يرتسم على وجهه يشبه الندم، بالرغم من أنها زوجته! تسأله...

- ارتويت؟

فيبتسم، والفتور لا يبرح ملامحه، ويخرج من بينها راحلًا، شاعرًا بثقل الدنيا وما عليها، ومرة فمرة زهد اللقاء وعفَّه، فتطاولت بين المجالس السريعة تلك المسافات، وحالت بينهما الشهور، وازداد البين بينًا، والفراق فراقًا...

واليوم تكرر الأمر نفسه، لكنه استغرق وقتًا أسرع من المعتاد، خرج من بينها فاترًا؛ فحاوطته برقة تسله المزيد، لكنه ادعى عدم الفهم وابتسم لها، ثم اتشح سواده، وتأزر بإزارٍ خفيف، وهرع بخفة خلف قدميه إلى حيث تقودانه...

لم يفكر في الزواج مرة ثانية قط؛ إذ إنه لا يقوى على تكاليفه، ولا يقوى أيضًا على إيذائها بالزواج عليها، ولم يفكر قط في أن يزور بيوت الهوى، أن يمر مرورًا عابرًا بحانة السيدة ليزا التي لا تبعد عنه الكثير، غير أن نفسه تعاف تلك الأماكن بالفطرة، ثم إنه لم يفكر أبدًا في تطليقها، فبالرغم بعد المسافات التي بينه وبينها فإنه يخشى عليها من الدنيا إن هو طلقها، وكان

كلما تفكر في الأمر وتمعن وجد أن الفراش ليس سببًا قويًّا لخراب بيت عامرٍ... حتى وإن كان البيت آيلًا للسقوط!

حملته ساقاه الدقيقتان نحو حطام الغابة، تلك التي كانت كثيفة فيما مضى، لكنها اليوم تشكو ويشكو شجرها! توقف تحت ظل شجرة تصارع الجفاف، وتأمل ذلك الطائر الأسود الذي ينعق فوق أغصانها بصوتٍ كريه أجش.

كأن الغراب ينعي أحدًا أو يبكيه، فاستمع إليه الحسين، وأحسن الإصغاء، ونظر إليه متأملًا، ثم مدَّ إليه كفه الندية مصافحًا؛ فأتاه الغراب دون تفكير، وافترش كفه آمنًا مطمئنًّا...

- إنه فأل نحس وشؤم.

قالها عيينة... وعيينة هو أحد رفاق الحُسين الكثيرين، ومحبيه الذين لا يعدوا، عامل هو الآخر غير أن عمله في مناجم الفحم في باطن الجبل الأبيض في الشمال، وهو الآن يقضي إجازته التي حصل عليها بشق الأنفس بعد شهور متصلة من العمل دون انقطاع!

لعيينة جسد ممتلئ كجسد أي مواطن لوراسي قد جاوز الأربعين، له شعر بني شديد التجعد مع ثعلبة في مقدمة الرأس شديدة الحدة تميزه، يمضغ بين أسنانه الحامية خبزًا مجففًا على مشارف العفن...

- بل إنه رسول... نذير لنا بين يدي عذاب أليم.
- مذ عرفتك وأنت تهوى ذلك الطائر الكئيب الغبي ولا أعرف السبب!

ضحك الحُسين برفق، ثم قال:

- إنه ذكي، إنه أذكى من البشر... هو من قام بإرشادنا نحو التستر والمواراة، ولولاه لانفضح خبث روائحنا أبد الدهر.

قضم عيينة قضمة أخرى، وقال أثناء طحنها:

- كان هناك موجة أخرى... قبل الموجة العظيمة التي أنشأت لوراسيا... كان طوفانًا مهلكًا قبل الزمان بزمان، أرسله الرب المتكبر على قومٍ طغاة، واصطفى الصالحين بالنجاة منه في سفينة عبده الصالح... تقول الحكايات إن ذاك العبد أرسل غرابًا يافعًا أبيض كلون السحب لينظر إلى الأرض أجفَّت وتهيأت أم أنها ما زالت موحلة؟ فطار الغراب وجاب أرجاء الأرض التي كانت قد جفَّ طينها، واخضوضرت جنباتها، ونضجت ثمراتها فوق الأشجار، فهبط على شجرة يأكل من ثمارها بعد تعب... وظل يأكل ويرتع حتى نسي ما كان قد جاء من أجله... وظل العبد الصالح والناجون

أسابيع أخرى في السفينة ينتظرون قدومه، حتى آيسوا منه وأرسلوا حمامًا فآتاهم بالنبأ اليقين، فخرجوا من السفينة ناقمين على الغراب الذي لم يأتهم بالبشرى، فلما عثر العبد الصالح على الغراب عاقبه، وبدل بياض ريشه أسود منفرًا، وطرده من الأنس والألفة، ومسخه مستهجنًا وطريدًا، يأكل الجيف وينعق بصوتٍ أجش يابس من طول البكاء!

كان الحسين يستمع للحكاية وهو يحن على ريش الغراب في كفه برفق شديد ولين أحبه الغراب الذي بدا كأنه يحن إلى العطف، ويشكو من طول الانفراد ووحشة الوحدة، ثم قال وهو ينظر للغراب:

- أشعر أن هناك تشابهًا بيني وبينه (ثم تناول كسرة خبز من عيينة، وقربها من منقار الغراب فنقر منها وأكل) انظر إليه... إنه وحيد... مثلي!

قبض الغراب على كسرة الخبز بأكملها بمنقاره، وحلق مرتفعًا بعيدًا عن الاثنين، فضحكا وهما يرقبانه، ثم أنشد الحُسين هامسًا...

رفرف...

فليس أمامك - والبشر المستبيحون والمستباحون صاحون -

ليس أمامك غير الفرار.
الفرار الذي يتجدد... كل صباح!(١)

في تلك الأثناء كان سرب صغير من الغربان قد حام حولهمُ، فاقترب عيينة من الحُسين وحاوطه بذراعه في حميمية الأصدقاء، ثم قال

- كانوا قديمًا يعدُّون الغربان؛ كي يفهموا ما تريد أن تقول؛ فتساءل الحسين متعجبًا:
- كيف؟
- الغراب الواحد يعني: الأسف، والاثنان: مرح، وثلاثة: ميلاد، وأربعة: زفاف، وخمسة: فضة، وستة: ذهب، وسبعة: تحذر من إفشاء سر لا يجب إفشاؤه، وثمانية: تعني الجنة، وتسعة: نار، وعشرة... هو الشيطان نفسه!

ضحك الحسين بطفولية، ثم قام بعدِّ غربان السرب الصغير هو ورفيقه، فإذا بهم تسعة غربان، حينها انخرطا في الضحك، وأخذ حديثهما يدور عمَّا تعنيه النار التي تنذر منها الغربان التسعة، وانطلقا إلى حيث لم أعرف، وظل الغربان التسعة محلهم لم يبرحوا، ثم عاد الغراب العاشر يقضم بمنقاره

---

(1) من قصيدة / الطيور - أمل دنقل.

كسرة الخبز التي أهداه الحُسين إياها، وتبعه حتى لحق به وحط على كتفه...

ولم يفارقه بعدها أبدًا!



(٣)

تناقلتهما الأيادي حتى وصلت بهما إلى دار الجد نوح.

خَصَّصَ آل الديار غرفتهم الكبرى لتكون منزلًا مؤقتًا للحواري المقدس زيان وخادمه الأمين جاك إلى أن تنتهي الصومعة الذهبية المتفق على بنائها في إحدى زوايا منزل الجد يعقوب القديم.

كانت الجلبة شديدة في كل خطوة يخطوها، في المنزل وخارجه وفي كل مكان، تزاحم الإلياسيون المخلصون يوصلون حواري إلههم إلى غرفته بأنفسهم، وتمهلوا غاية التمهل ليطمئنوا على راحته، ومن خلفهم تناقلت الأخبار حتى وصلت لآذان الصبية المتلصصين خلف نوافذ الدار، وتحت عباءات الرجال، ومع سيقان الأطفال الهزيلة السريعة التي أخذت تعدو منتشرة في أنحاء الجنوب وصلت الأخبار الجديدة إلى قلب كل بيتٍ إلياسيني.

في الغرفة... وقفت ورد اليافعة ابنة الجد نوح أمام الحواري زيان ومن خلفها وقف أبوها يرقب المشهد عن كثب، ومن خلفهم كانت أمها وجاك والناس أجمعون، كانت تحمل في يمناها المرتعشة مقصًّا يقبض على قطنة مبللة بخلطة مطهرة لها لون الرمال، تتمشى بلطف وحذر على الأعين المفقوءة وهي تتألم كلما تنهد العجوز الضرير، وتأوه برغم مجاهدته لاحتمال الألم ما استطاع!

كانت العين اليمنى قد تدمرت بالكامل، ولم يبقَ لها ملامح، أما اليسرى فبقي لها من الأمل بصيص، كنافذة خشبية يتسلل الضوء من خلال خشبها المنخور! خفف ذلك من وطأة الحزن على قلب زيان، فأن تعيش بنصف عين خير من أن تعيش في ظلام مدلهمٍ على كل حال!

ضمدت ورد أعين العجوز بعدما أتمت تطهيرها، ووعدته الأم بأنها ستحيك له عصابة من الحرير السندسي المطرز بخيوط الذهب خالصة لحوارينا من دون الناس ليواري بها العين المفقوءة؛ فباركها الحواري زيان مبتسمًا بتألم شديد، ثم طأطأ رأسه فهبَّ جاك الأمين، وأمر الناس وآل الدار بالانصراف؛ لأن الحواري المقدس يحتاج إلى الراحة الآن.

غادر الناس، وانفضَّ الجمع الكبير، وطارد الخدم الصبية المتلصصين حول نوافذ الدار وتحت عباءات الرجال...

وافترش الحواري زيان الفراش لأول مرة منذ دهر كامل لم يذق فيه بدنه دفء الأسرَّة وحنان قطنها، وعندما أطفأ جًاك الأمين سراج الغرفة وهَمَّ بالانصراف استبقاه زيان للحديث، فأغلق الباب بإحكام واقترب يرقب خطواته في الظلام حتى جلس بجواره على الفراش بأدب...

- الظلام موحش ومخيف... كالوحدة!

قالها زيان بتمهلٍ وألم، فقال جاك مواسيًا:

- غدًا تنزع الضِّمادة، وترى النور...
- لا غد سيأتي يا فتى، والعقول في غياهب الظلمات...

لم يفهم جاك ما قاله زيان، ولعل زيان نفسه لم يفهم ما صدر منه، أو بشيء من الدقة لم يفهم لم قاله الآن، وإلام يرمِي بقوله، على كل حال قال جاك بعد صمت دام لفترة...

- يجب أن نعد العدة ونستعد... عمَّا قريب سيأتي جند الأهواز وشرطة الأدميرال يبحثون عنًّا.
- هل كان هذا الوغد مهمًّا؟

ابتسم جاك، ثم قال بلامبالاة...

- كان ابن الملك فقط...

ضحك زيان من قلبه كأن لم يضحك من قبل، ثم قال بشيء من الجدية:

- إذن علينا أن ننظم الصفوف ونستعد للقتال...
- بل علينا تخزين المؤن وحفر خندق كبير بأسرع وقت، والتأهب للحصار،

تعجب زيان وتساءل...

- ولِمَ الحصار؟ بوسع رجالنا أن يقاتلوا...
- إن الجنوب يعاني من الفقر والضياع، لن يقوى الرجال على المواجهة، لا بد من طريقة أخرى لننتصر في تلك المعركة.
- سنهزمهم بالإيمان.
- لن يصمد الإيمان أمام البنادق والبارود...

سكت زيان كأنما ترك المجال لجاك كي يبدي رأيه...

- لدينا كميات وافرة من الحبوب، وبراميل الخمر، وخام الحديد والفحم، أمدنا بهم إخواننا الإلياسيون من عمَّال المناجم والعاملين خارج الجنوب، سنطحن الحبوب ونخبزها ونشرب الخمر، ونصنع سيوفنا بأيدينا، وسنبدأ والرجال بحفر خندق كبير متوارٍ بين سيقان الأشجار كدرع ثانٍ إن هم عبروا الجدار العازل... سينتشر الرجال في حراسة دورية، ومناوبات لا تنتهي، وسأشرف على تعليم الصبية استخدام النبال، وسنستعد للقتال في أية لحظة.

- هل لدينا الوقت الكافي؟
- آمل ذلك... (ثم مداعبًا) سل إلياسك المدد أيها الحواري المقدس؛

ابتسم زيان وهو يقلب الكلمات في فمه ويسترجع ما قد كان...

- الرفيق إلياس بن أبيه... عازف القيثارة الذي جاب لوراسيا بأسرها باحثًا عن زهرة سوداء!
- هل حقًّا ما يُقال؟
- ماذا؟
- إلياس هذا... أكان هو الرب حقًّا كما يؤمنون هنا؟!

قال:

- أولم تؤمن؟

فأجاب جاك مترددًا...

- بلى!

قالها وفي صدره تتصارع خناجر الشك تطعن في إيمانه من كل جانب، لم يكن مؤمنًا أبدًا بما يُقال، ولم يكن عقله ليصل إلى ما توصل إليه الآخرون، وأيقنوا بأنه عين الحقيقة والبرهان، لم يكن يلقي بالًا، كان همُّه الأوحد هو زيان

وحسب، وإن اضطر من أجله أن يدعي عبادة إلياس... فسيكون أعبد الناس!

تنهد زيان ومصمص شفتيه وهو يقول:

- آهٍ يا إلياس... يا رفيق الثورات ومعارك الجنيات وآبار العبث! لو كنت أعلم حينها أنك الرب... ولكن... أنَّى لعينٍ قاصرة أن ترى الكمال! وأنَّى لنفس محجوبة بالشهوات أن تنفذ للحقيقة الخالصة!

بدا ابتهالًا وترنيمًا أكثر منه تذكرة وحنينًا، كان وكأنما قد ترسبت شوائب تلك العقيدة بداخله، التفاف الناس من حوله بهذه الحميمية، والهالة المقدسة التي وضعت حوله، ورهبة اللقب الجديد «الحواري»، كلها تضافرت مع ما شعر به من قبل من وهج ينفذ من خلال الأعين الرمادية، وتلك الوداعة التي لم يعهدها على لوراسي ولا بشريٍّ من قبل، والتنازل الغريب عن التاج الملكي، والاختفاء غير المفسر حتى الآن بعد الرحلة المقدسة، تضافرت جميعها في مخيلته حتى تمخضت بذرة إيمان، وعقيدة جديدة، أيقن زيان حقًّا بأنه قد رافق الرب الرحلة، وأن إلياس بن أبيه... كان تجسيدًا للرب!

والسؤال الذي لم يمهله أحد وقتًا، وطرح في لحظتها... قد رافق خيسيه الهوزي رحلة الرب أيضًا، فما باله لم يلقَ نفس القداسة التي وُضعت حول زيان؟ والإجابة قد اتضحت من

خيسيه نفسه؛ إذ كان لا بد للرب من رفيقين، كما لكل إنسان رفيقان: ملاك حارس، وقرين مهلك... وضع الناس حول زيان هالة الملاك المقدسة، كما وضعوا الصولجان الثلاثي في يد خيسيه، يهوذا العصر الحديث، وكبش فداء العقيدة الإلياسية، الذي خرج بكل سفاهة وقبح بعدما انقضت عشيرته الأولى على أرض الرب المقدسة «لوراسيا»، وانسلخ من الثوب المقدس كما تنسلخ الأفاعي من قشورها، وفضل المنبوذ جحيم الأهواز على جنة الرب الرحيم، وخانه خيانة بشعة لم يوضع لها تفسير مستقر حتى اليوم، فقط... علموا أنه قد خان الرب، وعلامة ذلك علو شأنه في دولة الأهواز منذ قيامها؛ فأصبح خيسيه لعينًا، منبوذًا، رجيمًا، إبليس جديد يُطرد من جنة الرب، ويهوذا جديد يوقع مع شياطين الأهواز عقد الخيانة بدماء الرب الرحيم! أصبح مكروهًا مبغوضًا من كل إلياسيٍّ... وأصبح جليًّا سبب البصق المكرر الذي يحصل عليه كلما صادفه أحد الإلياسيين!

- أي بني...

انتبه جاك لوهلة وتنهَّد مجيبًا، فسأله الحواري المقدس:

- أين تلك الألواح التي وجدتها؟
- إنها هنا، (وأشار إلى صدره حيث خبأها).
- اتلُ عليَّ ما دوَّنه المعلم بنيامين...

قام جاك بحذر، وأوقد السراج، واقترب من الفراش الذي يرقد عليه الحواري منصتًا بشدة، وأخرج لفافة الألواح من جيب صدريته، وفكَّ رباطها؛ فانفرطت مرة أخرى، واختلط أولها بآخرها، وحابلها بنابلها، وإن كان لترتيبها الأول سبب؛ فبالتأكيد قد اختفى، أو معنى، فبطبيعة الحال تاه وتلاشى...

أمسك جاك بصحيفة، واقترب بها من السراج كي يبصر ما فيها ويقرأه.

كانت الخط مهزوزًا، يعلو مرة ويهبط أخرى، كان بنيامين طاعنًا في السن حين كتبها، أو لعله كان يكتبها بعد جلسات العذاب في زنزانة المعاتيه، كتبها باللوراسية القديمة التي كان يعلمها للأطفال في أرض الجنوب قديمًا منذ عهد الحكماء، وكان الفتى جاك لا يحسن القراءة، إذ كان فتى مناجم يحمل المشاعل ويجرُّ العربات الفارغة... لكنه تعلم قليلًا من مبادئ تلك اللغة بعدما عاشر الأهواز، ولكنها بالطبع كانت متأثرة بلكنتهم الخاصة، والتي تختلف كثيرًا عن اللغة التي كتب بها المعلم بنيامين ألواحه...

اقترب من السراج، ودقق النظر، ثم قرأ بركاكة ما في الصحيفة...

بسم الرب العليم

واهب الألسن، والأحرف، والكلمات...

ارتسمت على وجه زيان علامات الانجذاب واشرأب منصتًا، فيما دقَّق جاك ناظراه تحت ضوء السراج الخافت، وبدء يتهجى ببطء، وينطق بركاكة...

*** آلم ***

*** أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ***

***ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ***

*** أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ***

*** من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآتٍ وهو السميع العليم ***

*** ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين ***

بدا كأن شيئًا ما وقر في الأعماق، شيئًا عظيمًا، وعلى قدر عظمته كان ثقيلًا مخيفًا، كان وقع الكلمات قويًّا في النفوس، بدأت القلوب تضرب بوقعٍ آخذ في الارتفاع، وتبعتها الصدور تصاعدًا وهبوطًا...

بسم الإله المتكبر

صاحب الأسماء والصفات

أتلو عليكم من النبأ العظيم... رب إسحق وإبراهيم...

والثقلين من العالمين... رب النبيين والمرسلين... الذي أنزل عليهم الآيات المحكمات... كتبًا وصحفًا وبشارات... وتناقلتها الأجيال والسنوات...

فتلاشى منها ما تلاشى واندثر... وتبقى منها في صدور المؤمنين... أتلو عليكم ما قاله الأمين للأمين... من وصايا وقوانين:

*** قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم: ألا تشركوا بهِ شيئًا، وبالوالدين إحسانًا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم بهِ لعلكم تعقلون ***

كان الجمع الغفير من الإلياسيين يبكون بغزارة لا مثيل لها، كان الجو معبقًا بالقداسة، وتكومت سحب الإيمان والغمام، وفاض سيل البكاء عارمًا بعدما تلا عليهم الحواري زيان المقدس ما أملاه عليه إلياس... وما أوصاهم به!

جفف جاك الأمين الدموع المنهمرة على وجه الحواري زيان المقدس، وكان يخشى أن يصيب البكاء عينه اليسرى

فيكتمل انطفاؤها كاليمنى، نظر نظرة في السماء فوجد الفجر على شفا البزوغ، واشتم رياحًا عبثية تحملها الأيام القادمة، فلم يتساءل لِم تعجل الحواري في جمع الناس في تلك الساعة من الليل وهم نيام، وجفف دمعه المنهمر بالمناديل الجديدة، وبيده الخشنة اليابسة، ثم عاد فجلس تحت قدميه ينصت إلى بقية وصايا «الرب الرحيم» التي تلاها الحواري بخشوع جمٍّ، فأنصت الناس مرة أخرى وكأن على رؤوسهم الطير:

*** ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدَّه، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسًا إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى، وبعهد الله أوفوا، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأنَّ هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ***

كان مشهدًا مهيبًا لا تصفه الأقلام، الناس خشَّع منصتون، والحواري يتلو الآيات المحكمات الباقيات، عشر وصايا بالكمال والتمام، صامدات صمودًا سرمديًّا منذ بدء الكون، وقبل قيام الساعة بساعة!

- إلياس يا آل إلياس يوصيكم... فاتبعوه... ولا تتبعوا السبل فتتفرق بكم عن سبيله.

وبعدما هبَّت نسائم الفجر المنعشة، وهلَّت بشائر النهار الأولى، غشيتهم السكينة، وحفَّتهم أجنحة ملائكية، وسرى الأمان سلسبيلًا يجري بمجرى دمائهم فلا خوف عليهم اليوم ولا هم يحزنون، وعندها نظر إليهم الحواري المقدس وتلا عليهم بشارة الرب إلياس باسمًا:

*** الشعبُ السالكُ في الظلمةِ أبصر نورًا عظيمًا...**

الجالسون بأرض ظلالِ الموت أشرق عليهم نور *

كان للشيوخ نشيج يُسمع من مسيرة كذا وكذا، هؤلاء الذين كانوا من جنود إلياس ومحاربيه بحرب الأمس، فاضت دموعهم حارة نقية، بعدما أيقنوا أنهم قاتلوا في سبيل الرب، وبجوار الرب، جنبًا إلى جنب في معارك عدة... وبكت النساء العجائز حتى ابتلت ضفائرهم الفضية، بعدما علموا أن الأغاني التي أشجاهم بها ذو الأعين الرمادية كانت من قيثارات الملكوت الصافية، كانت سيمفونيات ملائكية عذبة، لا عجب أنهم بكوا لسماعها آنذاك، ولا عجب أنهم يبكون الآن بعدما أيقنوا بأنهم شهدوا بأعينهم آية من آيات الكون...

بدا الحواري زيان لهم في تلك اللحظات ملاكًا منزهًا، قديسًا تُتلى عليه آيات الرب من عليين، وتتنزل عليه الحكمة من فوق سماواتٍ سبع، بدا لهم قنديلًا يقودهم في طريق الحياة المعتم فيهتدوا بضيائه نحو ملكوت الرب...

وبدا لهم جاك في تلك اللحظات هو المنقذ المغيث، الذي خلَّص الحواري المقدس من الأغلال النجسة ومن الأعداء الكفرة، بدا لهم وقد صبر على عهده لسنواتٍ يُظهر عكس ما يُبطن، ويتربص حتى ينقض فيظفر، بدا لهم حكيمًا غاية الحكمة، وخادمًا أمينًا مطيعًا لسيده، وحافظًا لعشرة السنوات، فكنُّوه بالخادم الأمين، الراهب الأكبر، ثم أشار عليهم الحواري بالتمهل في أمر الكنية فتربصوا، وأنصتوا إلى ما قصَّه عليهم زيان المقدس في أمر قد حدث منذ نيف وأربعين عامًا، في تلك الحرب القديمة بعد ثورة الحكيم تيمور والرفاق القدامى، الحرب التي يعرفها كل عجوز، ويحفظ تفاصيلها كل راشد، ويتغنى بحكايات أبطالها الصبية، في تلك الحرب البعيدة حينما كان الحواري زيان محض جندي عادي من الشمال يقاتل في صفوف الحكيم غازي آل عزيز، يقاتل فقط كي لا يُقتل، حينما رأى جنديًّا يرتدي ثوب جنود الشمال، يحمل خنجرًا قتل به امرأة زعيم الغرب آنذاك... أوزريانو العظيم، انتزع أحشاءها، وجرَّدها من حياتها، ثم سعى في قتل ذلك الرضيع الذي كان للتو يمتص ثديها بنهم دون مبالاة بالدنيا والحرب وبهيمية الإنسان، ذكر لهم الحواري زيان أن ذلك الجندي كان سام أخو الزعيم أوزريانو، ذكر لهم بالتفصيل كيف نشبت بينهم تلك المعركة السريعة، كيف ترك في وجهه تلك الندبة التي يعرفها كل من تبقى من بني الأصهل، كيف أنقذ من بين يديه ذلك الرضيع الباكي، وكيف هرب به

نحو الشمال واعتنى به، وكيف أن هذا الرضيع الضعيف قد نمى وكبُر حتى أصبح اليوم هو ذلك الخادم الأمين... جاك... ابن أوزريانو العظيم!

كانت مفاجأة شديدة للسامعين أجمعين، خاصة جاك الأمين، ومن انتمى منهم لبني الأصهل المخلصين، الذين عاهدوا الزعيم أوزريانو العظيم من قبل على الوفاء والإخلاص المستميت... كانت فرحتهم عارمة بحق، وتسابق سبط بني الأصهل نحو جاك مهرولين تسبقهم نظراتٍ لا ترى أمامهم سوى رسم الزعيم العظيم، تحسسوا بأيديهم مجرى الدماء بعروقه ليتأكدوا بأن دماء الزعيم الحارة تسري بها، وأن هذا هو الحق المبين، ثم حملوه فوق الأعناق، وألقوا به مرات عدة في الهواء محتفين، كان الخبر على أذهانهم كالصاعقة، كانوا قد آيسوا أن يبقى من بينهم من يحمل دماء الزعيم، خاصةً بعدما اختفى من بينهم فجأة عقب المرور المقدس للرب الرحيم ورفيقه الخائن، وبعد الموت الأسيف الذي لحِق بإيبور السكِّير في الغابة الكثيفة، وبعدما أحرقوا بأنفسهم سام المخادع القصير، كانوا قد آيسوا أن يبقى من بينهم من يحمل دماء الزعيم، ولكنهم الآن قد أيقنوا بهذا وأمَّنوا، خاصة بعدما رأوا إنقاذه الثعلبي للحواري المقدس من زنزانة المعاتيه، ورأوا فيه شجاعة الزعيم أوزريانو التي لا تتكرر إلا فيمن يحمل الدماء النقية نفسها... وتمهلوا كما أخبر الحواري

عن كنية الأمين... واستمعوا إلى قوله المبين، فوضع عليه حمل الجهاد، وكلفَّه بقيادة المحاربين الإلياسيين جميعهم في الحرب الموشكة، وتقدم سبط الفتيان والشجعان من بني الأصهل، وأعلنوا تشكيل عصبة من المحاربين المخلصين تحت قيادة الزعيم جاك...

الذي تقرر أن تكون كنيته الجديدة... الزعيم... أوزريانو الثاني!

***

في الوقت نفسه حيث الجنوب بأسره متجمهر حول الحواري المقدس وألواحه وروحانياته، كانت الخيمة المقفرة المنبوذة المستحقرة المتموضعة على مرمى حجر من مزابل القوم وخلائهم، طقطقت أصابع حمراء قرب الخيمة، في جوف الليل والصُفر نيام، خرج ذو الأنف الكبير، صاموئيل السكندري، ينخر بإصبعه جيب أنفه حتى كادت أن تدمي، ثم نظر ووجهه يشي بمعرفته المسبقة بالزيارة...

- ماذا الآن؟

تسائل صاموئيل بلا اكتراث، فنزع الواقف أمامه قلنسوته السوداء التي احتمى بها من العيون، فإذا به الأدميرال فيدل الذي قال بعدما بصق مغتاظًا:

- أدخلني الخيمة أولًا، ألا يراني أحد؟!

ضحك صاموئيل وقال:

- تخشى الإلياسيين! خشيت من الطرف الأضعف.
- أنا لا أخشى أحدًا.
- على أية حال ليس في البيوت ولا الأزقة الآن إلياسيٌّ واحد... إنهم جميعًا عند حواريهم المزعوم.

وأشار بإصبعه غربًا تجاه موقع الإلياسيين من خيمته، ثم قال بنصف ابتسامة:

- ادخل...

دلفا سويًّا نحو جوف الخيمة، وتربعا على أريكته الخشبية المنخورة التي نظر إليها فيدل باحتقار قبل أن يجلس...

- كان للمقدس ستيفان قصر كبير، به عرش ضخم من النحاس الصافي، له مقابض من الجماجم... (ثم بأسى ومصمصة شفاه) ولكنها الدنيا... التي لا تعرف قيمة النحاس... فجارت عليه وعلى السكندريين... أبناء الرب المخلصين.

نظر إليه الأدميرال نظرة باردة تنم عن احتقار دفين، ثم تساءل مستجهِلًا:

- أسكندريٌّ أنت يا صاموئيل... لقد همست في أذني عصفورة تقول غير ذلك،

سحب صاموئيل من أعماقه بلغمًا وبصقه بزفر في رماد الفحم المنخمد أمامه، أحس بإهانة شديدة... في حقيقة الأمر كان كلام الأدميرال صوابًا، فما كان صاموئيل سكندريًّا للحظة، بل إنه كان خادمًا مستحقرًا في قصر ستيفان السكندري، ينظف له بيت خلائه، ولكنه كان ذا أعين يقظة وأذن دقيقة لاقطة، واطلع باستراقٍ على خلوات ستيفان مع الجنية وأقرانها، وتسلل مرارًا نحو المكتبة الكبيرة التي حوت مجلدات ستيفان وأسراره، ثم بعدما انقضت العنقاء بمخالبها على جسد ستيفان فمزقته، وبعدما انتصر إلياس على الأم الحنون في حربه المجيدة، وقبل أن ينقض الأهواز بغتة، لاذ صاموئيل هربًا تجاه القصر، وسرق من الكتب ما استطاع، ثم إنه سُبي مع من سُبي من آل لوراسيا بحمولته نحو الجنوب، ثم اختفى في إحدى مغارات كهوفها المنعزلة لسنين، يقرأ ويتعلم، ثم عاد بغتة من الكهوف ينادي في الصُفر بأنهم أبناء الرب، وبأنه سيحيي لهم الأم الحنون، وسيعيد لهم العصر النحاسي، وبأنه يحمل دماء السكندريين، وبأنه مطلع على ما اطلع عليه ستيفان من قبله، فما كان من شعب بائس مستضعف ذاق الأمرَّين إلا أن التفوا من حوله مصدقين،

وجعلوا منه مقدسًا وأمينًا، وأجابوا بكل ما أمرهم به مطيعين، طامعين في غد ترفرف فيه أجنحة العنقاء من جديد، ويعلو صوت النحاس على الذهب والحديد... عصر تحكم فيه الأم الحنون... ويعود رمزهم المقدس للوجود مرة أخرى... بئرهم... بئر أبناء الرب!

- ما الذي أتى بك؟

تساءل صاموئيل بنبرة أقل حدة وأكثر هدوءًا، كأنما اعترف بالموازين المعاصرة للقوة، وبأنه لا يملك منها نصيبًا يُذكر، وبأن عليه الخضوع والتذلل وقبول الإهانة حتى تعلو الشوكة من جديد، وتعود الغلبة مرة أخرى...

- دعوتك مرارًا للمجيء... ولكنك تأبى!
- أخشى إن خرجت ألا أستطيع العودة مرة أخرى.

ضحك الأدميرال فيدل، فاشتعل غيظ صاموئيل وتمنى لو شرِب من دماءه القذرة، ولكنه كظم غيظه، وطحن أضراسه، وتحلى بالصبر والتغافل، ثم قال:

- أُخمِّن أنها السفن...
- نعم... إنهم عائمون في البحار دون وجهة منذ الحفل!

بهدوء شديد قال:

- لا أعرف الوجهة.

قام الأدميرال غاضبًا وصرخ:

- ماذا؟!

بنفس الهدوء قال:

- كما قلت لك... لا أعرف الوجهة!
- إِذَنْ لماذا كلفتني ببناء تلك السفن إن كنت لا تعرف الوجهة المقصودة؟!
- ليس بيدي أي شيء يا هذا، إن هو إلا وحي يوحى، وإلى الآن لم يُوحَ إليَّ شيء يشير إلى الوجهة الصحيحة.
- وإلى متى!

بهدوء يميل إلى البرود المستفز أجاب:

- دعهم يهيمون على وجوههم في البحار حتى تأتيني نبوءة الأم الحنون... إنها لم تأتِني منذ أسابيع!
- لماذا؟
- إنها غاضبة...

ابتلع فيدل غضبه وقال متأففًا:

- وما الذي أغضبها؟
- قل ما الذي يرضيها... فللآلهة شئون لا يدريها البشر!

طحن أسنانه، وتساءل من جديد:

- وما الذي يرضي الأم الحنون كي تحنَّ علينا وترشدنا للوجهة الصحيحة؟!
- البئر...

فهِم الأدميرال ما يرمى إليه، ولكنه ادعى جهلًا، فتساءل...

- أي بئر؟!

ضحك صاموئيل وقال بوضوح أشد:

- بئر أبناء الرب.
- تقصد حطام البئر!
- لن ترضَ عنّا الأم الحنون حتى نعيد بناء البئر من جديد... وأن نستخرج هيكلها المقدس الشريف.
- لكن بيننا اتفاقًا... المنخفض العظيم لي... لعاصمتي الجديدة!
- إنها البقعة المقدسة، لن يقوم البئر إلا عليها.
- هذا طمع...

تأمل صاموئيل وجه فيدل لثوانٍ، ثم انخرط في نوبة ضحك هستيرية حادة، ظل يقهقه ويضحك حتى غدا وجهه كالجمر المستعر...

وظل يضحك حتى خاف الأدميرال أن يأتي الناس على أثر الضحك!



اللوحة الثالثة

منكرٌ... ونكير!

(١)

مضى نحو أسبوع...

كان الجنوب خلية نحل تطنُّ ليل نهار، دورية وراء دورية، ومهام موزعة بإتقان وأدوار تفرقت على الجميع، كلٌّ حسب طاقته وقدرته، فوقفت زمرة محاربي أوزريانو الثاني في مواقع المراقبة والحماية، وكانوا قد انقسموا الفريقين: الأول للمراقبة واستطلاع أي هجوم قادم، والآخر يعلم الناس المبارزة باستخدام السيوف والحِراب وآلات القتال الأخرى، وأما بقية الإلياسيين فشرعوا بمباركة الحواري المقدس في حفر خندق عميق وطويل، متوارٍ بين الخمائل وحشائش الغابة، يحول بينه وبين الجدار العازل أنفاقًا مطموسة، لا تراها إلا عينٌ تميز خيط الدخان بأكوام السحاب.

وبدأت نساء الجنوب يطحنَّ القمح والشعير، ويخبزن المؤن التي لا يُعلم إلى متى من المفترض أن تكفي! ومن

حولهم بدأ الحدادون والنجارون والحرفيون جميعهم يد واحدة تكاتفت في صناعة العدد والدروع وخاصة السهام.

لم يكن الجنوب يأوي الإلياسيين فقط، فهناك الصُفر أيضًا الملتفون حول ساحرهم صاموئيل السكندري في خيمهم قرب الخرابات ومخلفات القوم، هؤلاء القوم بدا موقفهم محيرًا نوعًا ما، ومدعاة للشك والريبة... فلا هم أبدوا حِلفًا يستأنس به بالمشاركة في حفر الخندق، أو التدرب على القتال، أو حتى نساءهن قمن بالخبز مع نساء الإلياسيين، ولا هم أبدوا عداءً يُحذر منه؛ بل إنهم موقفهم بدا كعادتهم الدائمة المستميتة، أصفر باهتًا، لا يتضح منه رأي ولا جهة، فلم يعلنوا انتماءهم إلى أي حزب قط، ولا صرَّحوا في أي وادٍ يسيرون، فقط... اكتفوا بالمراقبة الصامتة، ولم يحركوا ساكنًا!

كان الوضع في الغرب مزريًا، الحداد ما زال قائمًا، ويبدو أنه قد أخذ منهم ما يستحق وزيادة، وكأنما سقطوا في هوة من الحزن الأسود، وغاموا وغامت دنياهم، وأظلم الطريق عليهم فضلوا وتاهوا وتخبطوا ببعضهم؛ حتى سقطوا على الأرض الظلماء باكين منتحبين.

انعزل القدير قسورة عن الأنظار تمامًا، واختفى كأنما ابتلعته الأرض، ظل حبيس خيمته طوال الليالي السبع، يبتهل، ويتهجد، ويدعو الإله الذي يناجيه منذ بدء الخليقة، يبكي،

ويتمرغ في التراب، ولا ينقطع سيل بكاه إلا على إغشاءة متعبة، تجثو على القلب المرهف الضعيف مع أرطال اللحم والدهون فتزيده وهنًا على وهن، فأصابه في الأولى لمسة لم تضر، ثم نغزة بالكاد شعر بها، ثم صار النغز سهمًا، ثم صار السهم رمحًا، ثم صاب الرمح قلبًا في صميمه، ونقطة ضعفه؛ فافترش الأرض المتعبة، ونظر إلى السماء بعيون شاخصة... عيون من سيل البكاء جفت وأجدبت، وكأنما انتهى نصيب عمره من الدموع في بكائه على صخر؛ فاكتسبت عيناه تلك الطبقة الشفافة الباردة التي تخدعك فتوهمك أن تلك الأعين لن تبكِي مرة ثانية، غير أن العين تبكِي طوال الوقت دون انقطاع، ولكن من غير دموع! نظر بأعينه الباردة الساهمة، وتلا بلسانه الثقيل الملجم ابتهالًا صادقًا بالرغم مما في القلب من خروق، وبالرغم مما في اللسان من عُقد...

«**إلهي...**

أعنِّي بالبكاء على نفسي، فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري، وقد نزلتُ منزلة الآيسين من خيرك، فمن يكون أسوأ حالًا مني إن أنا نُقلت على مثل حالي إلى قبري! لم أمهده لرقدةٍ، ولم أفرشه بعملٍ صالحٍ لضجعة أبدية... وما لي لا أبكِي ولا أدري إلامَ يكون مصيري! وأرى نفسي تخادعني،

وأيامي تخاتلني، وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت... فمالِي لا أبكي!

أبكي لخروج نفسي... أبكي لظلمة قبري... أبكي لضيق لحدي... أبكي لخروجي من القبر عريانًا ذليلًا حاملًا ثقلي على ظهري، فأتلفت في ذعر وهلع شديد عن اليمين مرة، وعن اليسار مرة، أهرول نحو قريب أعرفه، أو غريب أجهله، وأصرخ فيهم علَّ فيهم من يغيثني... فإذا بهم في شأن مثل شأني!»(1)

ويبقى في ندائه المتواصل هكذا لا يعي من حوله شيئًا، يدخل عليه رمَّاح اليافع يحدثه فلا يلقَى منه ردًّا ولا إيماءة إيجاب أو رفض... وكأنما لم يعد يرَى شيئًا من حوله، أو لعله لم يعد له حاجة في من حوله، وكأنه قد وطئ بقدمه الحافية حضرة أبدية طاهرة صافية؛ فاستعذبها، واستعذب نسيمها البارد على رمضاء صدره الملتهب، فمكث فيها غير عازمٍ على الرحيل، وتشبث بحبالها تشبث الصبية بالدمى والعرائس، ونسي فيها ما كُتب له أن ينسى، واستغنى فيها عمَّا أدرك ألَّا فائدة منه ولا طائل من ورائه، فما عاد يأكل شيئًا ولا يشرب، ولا عاد يخاطب أحدًا لأكثر من لحظاتٍ ثم يزجره بشدة، ويطرده شر

---

(1) تنسب إلى علي بن أبي طالب بتصرف.

طردة من الخيمة؛ ليعود إلى الحضرة الطاهرة الصافية ذات النسيم العذب مرة ثانية!

وفي الشمال...

في النهار كان يتابع بحماسٍ شديد تفاصيل مدينته التي يطمح أن تكون، ثم يجري مباحثاته وتحرياته مع شرطته بتلكؤ وبطء شديدين، فالأدميرال فيدل ليس من المغرمين بالفقيد على أية حال، وليس للقدير قسورة تلك الرهبة التي تتعجله في خطاه... خاصة في حالته تلك!

وأما في المساء فهو ينعزل الليل كله في كوخ خاص ملقى في أطراف الشمال ناحية الصحراء، تشاركه فيه ريحانة العزلة والخلوة والتأمل في النجوم السابحات في بحر السماء ليلًا عارياتٍ دون غطاء سحب أو غمام، تغني له كثيرًا، وتستمع لفلسفاته التافهة، وأحاديثه الفارغة الخاوية كثيرًا، وتمارس معه الحب على مذهبه الخاص كثيرًا، في الحقيقة لم أستطع أن أفسر حالها جيدًا، فأنا لم أفهم إن كان سأم وملل أصابها من تلك الطريقة الجديدة التي تمضي بها أيامها، أم أنها قد أصابها شيء من طباع الأدميرال، كأنما اصطبغت بصبغته، وتلونت بلونه حتى تشابها كثيرًا، في الوجوم الممل الخالِي من أي تأمل، والنقد اللاذع المغرور، والجنس على تلك الطريقة الشاذة... التي كانت تأنف منها أشد أنفة في البداية، ثم إنها

شيئًا فشيئًا راقها دور السيد المتحكم، والآمر الناهي، ذي الكلمة العليا، وذي السوط في اليد، بدت كأنها تتلذذ بتوسلاته وبكائه، تنتشي بشعوره بالألم، تُثار كلما ارتسمت على وجهه تعابير التأوه والصراخ! لكن ذلك كان في الفراش فقط، أما خارجه فكان كل شيء يعود لموضعه الطبيعي، يلقي الكلمة فلا تقوَى على ردها، وينظر النظرة فلا تطاوعها عينها على النظر...

لم أكن أعرف في الحقيقة لِم فضل الأدميرال اصطحاب ريحانة معه في ذلك الكوخ... أيأتنس بها حقًّا وبغنائها الودود، وبمشاركتها الفراش؟ أم أنه يخشى على سره الصغير من الانتشار؟!

-

جاءت معذبتي في غيهب الغسق

كأنها الكوكب الدري في الأفقِ

فقلت نورتني يا خير زائرة

أما خشيتِ من الحراس في الطرقِ!

فجاوبتني ودمع العين يسبقها

من يركب البحر لا يخشى من الغرقِ

قبلتها، قبلتني وهي قائلة

قبلت خدِّي فلا تبخل على عنقي

قلت العِناق حرام في مذاهبنا

قالت وإن يكُ ذاك فاجعله في عنقي

غنَّتها بصوتها الحاني الدافئ كصوت الأمهات وهي تعانق الأطفال قبل المنام، ثم ضحكت في غنجٍ لا يخرج عن ربيبات ليزا وتساءلت باسمة...

- من الذي يأبى تقبيل العنق؟!

لم يكن هنا، كان ينظر من النافذة الصغيرة أمامه، والنجوم من خلفها تبدو كأنها تتوارى عن ناظريه؛ فأزعجه ذلك وعكر مزاجه، كان رأسها على صدره العاري وشعرها مسدلٌ عليه بأكمله، فتحركت رويدًا رويدًا فأصابته قشعرة سريعة انتبه على إثرها واستفاق...

- ها... أقلتِ شيئًا؟!
- لا... لم أقل شيئًا ذا قيمة.

قالتها بغضبٍ مدلل، وأدارت له ظهرها العاري الحريري، فاحتضنها باشتياق، وقَبَّلَ كتفها وهو يعتذر منها...

- لا تغضبي مني... كنت واجمًا قليلًا.
- أنت دائم الوجوم والشتات، حتى وأنت بين ذراعيَّ.
- أنتِ تعلميـ.. (قاطعته):
- لا تحدثني عن العمل ومشغولياته وهمومه، للعمل وقت، ولي وقت، وأنت تخلط بين كلينا حتى فسد كل شيء.

هنا كان الكلام قد زاد عن حده المسموح، إن بعض النساء قد يكنَّ جميلات وذوات دلال مستحق، لكنهن لا يعرفن متى وكيف يستخدمن هذا الدلال، وبذلك ينقلب كل شيء على عكس المتوقع تمامًا، فبدلًا من أن يقوم هو باسترضائها... غضب غضبًا شديدًا، وهبَّ من مرقده وتوجه خارج الكوخ، ولم يبالِ بأنه لا يرتدي من الملابس شيئًا على الإطلاق... هو في الخلاء وحده فمِمَّ سيستتر؟!

وقف على عتبات الكوخ يرقب النجوم النافرات منه، ثم تهادى فوق الدَرج الخشبي بتمهل، وخطا على رمال الصحراء بقدميه الحافيتين خطواتٍ تترك أثرًا على الرمال سرعان ما تمحوها الرياح، ثم إنه مد ذراعيه على مصراعيهما، وترك جسده يصطدم بالهواء البارد غير مبالٍ بشيء، وأخذ يدور مرات عدة بسرعة آخذة في الازدياد، وعيناه ترقبان النجوم من فوقه دون إغماض... شعُر بدوارٍ شديد فجأة، ثم سقط على

الأرض والدنيا تدور في عينيه بسرعة مذهلة، لحقته ريحانة أثناء سقوطه؛ فهرعت نحوه مهرولة؛ فسقط عنها وشاحها الذي بالكاد كان يستر نهديها، وقد شهقت فسرى صدى شهقتها عاليًا يجلجل في الصحراء، كان واجمًا من جديد، ولكنها لم تتحدث تلك المرة، ضمته إلى صدرها الرطب؛ فشكر لها جميل صنيعها والتقمه، فضحكت وراقت له، لكنه لم يرُق، ولم يضحك، بل إنه أشار نحو الرمال اللامتناهية من حوله وقال لها...

- هذه الأرض الخاوية تشبهني تمامًا، فهي مثلي... خاوية... هشة... لا شيء بداخلها باقٍ، ولا شيء فيها له قيمة... فقط حبَّات رمالٍ تافهة.
- لكنك لست خاويًا يا حبيبي.
- وما أدراكِ أنتِ بذلك... أرجوكِ... لا تخبريني أن بداخلي محبة تتسع لملء هذا الفراغ... هذا كلام العاهرات يا ريحانة، هذا كذب.

كانت تعلم يقينًا ما يقول، ولم تكن تنوي أبدًا أن تقوله، فهي تعلم أنه لا حب بداخله لها ولا لغيرها، هي تعلم ذلك يقينًا... قد تقنع نفسها بعكس ذلك بعض الأوقات، ولكن ذلك لا يدوم طوال الوقت، ولذلك لم تقلها، قالت...

- بل بداخلك إيمان بشيء ما... حلم... غاية... رب!

ضحك بحسرة حينها، ثم قال متحاشيًا نظراتها؛ كي لا ترى الدموع التي تلألأت في عينيه فجأة...

- أتعلمين ماذا وجدت حين وطأت قدمي تلك الأرض الغريبة؟

كانت تظن حديثه عن الصحراء، لكنه كان يقصد لوراسيا، فسألته، ثم أتاها رده الغريب بصوتٍ بدا في البكاء واضحًا...

- لقد وجدت الرب مقتولًا، ملقى على جانب الطريق، يراه الناس بأعين متفحصة جاحظة؛ فينكرونه وينفضوا من حوله راغبين عنه، فينادي أحدهم بصوتٍ خافت متشكك: إنه الرب!... فلا يلقوا له بالًا...

لم يكن يهرطق، أو يتفلسف كما كانت عادته في تلك الفترات التي تعقب حالة الوجوم التي تنتابه كل حين... تلك المرة كان صادقًا، كان متأثرًا بشدة، تلك المرة ذرف دموعًا وتهدج صوته أثناء الكلام، ولم تعرف ريحانة ما تقول، لم تعهد عنه أي اهتمام بقضية الرب والإيمان وغير ذلك، فهو ماديٌّ طوال عمره، كان سؤالها محض كلام يشغله، يفيقه، كلامًا يجرُّ كلامًا يجرُّ ضحكًا ثم استقرار حال، كانت تلك رغبتها، ولكن ذلك لم يحدث... ظلت صامتة، ولم تعرف ما تقول، فقال متثاقلًا:...

- أتؤمنين بالرب؟

فقالت بشرود:...

- كنت!
- ما الذي حدث؟
- بحثت عنه كثيرًا، ناديت، وصرخت، وبكيت، وتوسلت، وتمنيت لو نظر لي أو أجابني... تمنيت لو أنقذني من تلك الحياة البائسة، تمنيت لو أنه حمى أسرتي من سيوف الأهواز الأوغاد الذي أغاروا علينا بغتة في تلك الحفل في ذلك اليوم البعيد...

كان فيدل شاردًا... فانتبه، وأنصت لها إنصاتًا عميقًا، ولكن دون أن يظهر ذلك؛ فأتبعت...

- كنت في الثانية عشرة إذ ذاك... أتيت مع أبويَّ وأخي الأصغر من الجنوب في قوافل الرعاة لحضور ذلك الحفل المهيب الذي سيُقام احتفالًا بالانتصار العزيز على الجنية وآل الإسكندر الملعونين، ولاختيار ملكٍ جديد نجتمع جميعًا تحت رايته... كان الناس بالفعل قد أجمعوا على اختيار إلياس بن أبيه ملكًا لنا... بالكاد أذكر وجهه في ذلك اليوم... عيناه كانتا تحملان حزنًا لم يلحظه أحد، لكنني لحظته... لحظته أثناء غنائه لنا

بالرغم من أن أغنيته كانت مبهجة، وفطِنت أن حبيبته هي سر حزنه لمَّا نظر إليها فأشاحت بناظرها بعيدًا... هجم الأهواز علينا جملة واحدة، في غمضة عين اختلط الخمر بالدم، وغزت الثياب البيضاء المخيفة المكان وسادت... وعمل السيف فينا ما عمل... لكنني استطعت الهرب... لم أعرف ما الذي أصاب والديَّ وأخي، لم يمهلني قلبي وقتًا كي أنظر، لم أقوَ على ذلك، كنت خائفة بشدة، فجريت بسرعة وأنا أقفز على الجثث وأخطو عليها وأتعثر بها... ولم أتوقف حتى وصلت إلى الغابة الكثيفة، هناك تداخلت بي الأشجار والرؤى، وتاهت معالم الطريق والمسير، تخبطت بكل شيء، وسقطت مرارًا، ووطأت بقدمي شوكًا؛ فأدميت حتى بكيت من شدة الألم، ثم...

توقفت ريحانة عن الحديث فجأة، كأن غصة في حلقها عطلت سيل الكلام، فابتلعت ريقها مرارًا، ثم لما أحست بأن كل شيء على ما يرام... لم تكمل حديثها!

- ثم ماذا؟

تساءل فيدل...

- ثم لا شيء مهم غير أننا معًا الآن... أليس كذلك؟

قالتها وهي تحاول التبسُّم، فضحك لها الأدميرال، ومسح على خديها بظهر يده برقة غير معهودة، ولم يسلها المزيد، فتألمت من عدم سؤاله، وأسرَّتها في نفسها، ولم تبدها له، ثم استبقت كفه على خدها، وقبلته بحنانٍ سخي، ثم استنهضته بميوعتها التي لا تنتهي، فقام معها ضاحكًا، ولكزته في صدره بلطف، وغدت تجري عارية في الظلام أمامه، فضحك منها، ثم تبعها...

***

كان المنزل الذي نزل فيه الحواري المقدس زيان وأوزريانو الثاني منزلًا متواضعًا على نحو لا يعيب... لكنه أيضًا لا يسر!

الجد نوح هو رب البيت وبانيه، نجارٌ عجوزٌ تخطى عقده السابع، ولم يترك ورشته بعد، كان نوح ممن شهدوا الحروب الثلاثة الكبرى: حرب ثورة تيمور والرفاق القدامى، وحرب الثالوث المقدس، وحرب العنقاء، وفي ثلاثتهم كان يأبى الخروج ويرفض القتال، هو يكره الحرب كرهًا أعمى، ولا يرى داعيًا مهمًا لإسالة الدماء... كان يرى أن للدماء حرمة كحرمة الديار لا ينبغي تحت أي ظرف انتهاكها... لكن ما باليد حيلة! شارك في ثلاثتهم مغلوبًا على أمره، كما هو حاله

دائمًا أمام زوجته صبارة، التي كان لها من اسمها نصيب، فهي صبَّارة كثيرة الشوك والأذى، ولطالما شاكت زوجها الجد نوح وطاله أذاها باللسان وبالعمل، كانت سيئة العشرة، سريعة الغضب، ضيقة الأفق، لكن كان لها بالرغم من ذلك قلبًا طيبًا لا يعرف الكراهية، وكان لها من المتناقضات ما يحير العقل، ويطير أبراجه تِباعًا كما هم بنات حواء دائمًا وأبدًا، وكان مما زانها في أعين الجد نوح بالرغم من شدتها وسلاطة لسانها أنه كان في بداية عهده بالزواج زائغ العين واللسان، فكان بِصباصًا لا يترفع عن النظر إلى رجرجة الأثداء أو انحناءات الخصور يمنة ويسرة، وذات يومٍ كان في السوق ليشتري قماشًا لزوجته؛ إذ وقعت عيناه على ابنة البائع، وكانت ذات جمال فتَّان، وبالتزامن، كان السقا الذي داوموا على شراء المياه منه - إذ لم يكن بديارهم بئر - واقفًا عند عتبة البيت تبتاع منه صبَّارة نصيبهم من المياه، تناول نوحُ القماش من الفتاة فتعمَّد ملامسة كفها البضة الدافئة، كما تعمَّد السقا أن يقبض على يد صبارة وهو يتناول نقوده... وخز الندم ضمير نوح وعاد ناكس الرأس آسفًا، وجلس قرب صبارة على استحياءٍ صامتًا، وكانت عيناه نافذة تطل على ما بداخله؛ فعلمت صبارة أن في الأمر شيئًا، سألته، فحكى لها ما قد كان...

لم تغضب صبارة كما توقع، ولم يرتفع صوتها كما هي العادة، بل إنها ضمت رأسه المثقل إلى صدرها بحنان، ومسحت على شعره بروية وأمومة، وقالت تؤدبه وتعلمه: «دقة بدقة، ولو زدت لزاد السقا».

فأسرت بجميل صنيعها قلب نوح وحفظت له قوامته؛ فترفع من بعدها وغض بصره، واستعظم شأنها في عينيه، فكان معها طويل النفس، غضيض الطرف، صبورًا لأقصى درجات الصبر، لا من أجله فقط، بل من أجل ابنته الوحيدة... ورد.

ورد... وهي بالفعل ورد، إحدى صديقات رقية ابنة الجد يعقوب، لها خِلقة أمها، وخُلُق أبيها، فهي أبنوسية ذات شعرٍ أسودٍ مبروم بكثافة لا يسلكه مشط بأمان ولا زيتٌ باطمئنان، لكنها كانت ذات سمتٍ هادئ ورزين، وذات عقل وبصيرة نافذة، لمح أبوها فيها النباهة والفطنة؛ فأرسلها في صغرها لمدرسة المعلم بنيامين؛ فتعلمت منه اللوراسية الصحيحة، وبعضًا من مبادئ الكيمياء وعلم الأعشاب والطب اللوراسي الحديث، ثم قامت دولة الأهواز، وتهدمت مدرسة المعلم بنيامين، وألقوا بكتبه في مكبات القمامة، ثم لم يُسمع عنه شيء بعدها، وظهر الفساد في البر والبحر مرة أخرى؛ فأخفاها أبوها في البيت خوفًا عليها، وأعد لها غرفة خاصة في البيت، وصنع لها مكتبة صغيرة بها بعضًا من كتب المعلم بنيامين التي

استطاع أن يلتقطها من القمامة؛ فتفرغت لقراءتها والتعلم منها، وقراءة ما دَوَّنه من ملاحظات في كل كتاب، وتنوعت مجالات الكتب التي جمعها لها أبوها الجد نوح؛ إذ إنه كان يلتقط الكتب بسرعة وتخفٍّ حتى لا يراه أحد، فجمع لها من طب الأعشاب كتاب، ومن الفلسفة آخر، ومن تاريخ لوراسيا واحد، ومن الأديان والسياسة وهكذا... فقرأت وردُ منها واطلعت، وازدادت بصيرتها بصيرة، وكلماتها حكمة، وعباراتها رزانة ووقار؛ فانفضت صديقاتها الحمقاوات من حولها، ونفروا منها، هؤلاء الذين لا همَّ لهم في كل تجمُّع سوى الحديث عن الفتيان وإقامة مقارنات تافهة من نوع «من لها أكبر نهد»، وكذا غضبت عليها أمها وعنفتها مرارًا، واقتحمت عليها خلوتها مع الكتب مرات عدة، وحاولت ذات مرة أن تمزق تلك الكتب والتخلص منها، فتدخل الجد نوح، ومنعها، وأنقذ الكتب النادرة من بين أيديها، فصرخت صبارة فيهما بأن تلك الكتب لن تنفعها بشيء، بل إنها ستبعد عنها الفتيان، وسيصيبها العنس، فكان نوح وابنته ورد ينتشلان منها الكتب ويهدئانها فلا تهدأ، بل تترك لهما الغرفة، وتخرج غاضبة تضرب كفًّا بكفٍّ، فيجمع الاثنان الكتب وينظمانها، ثم ينظران لبعضهما خلسة... ويستغرقا في الضحك!

في ذلك اليوم عادت صبَّارة من الخارج تتفصد عرقًا من كل مكان، ألقت بما في سلتها من أغراض على الأرض وهي تنفخ وتتلوى في عباءتها تلوي الأفاعي... لحظها الجد نوح في حالتها تلك فهمَّت بالحديث معه، لكنه كتم صوتها بكفِّه وسحبها إلى غرفة ابنته على مضض، فانتزعت يده عن فمها بعد أن دخلا الغرفة، وقالت صارخة فيه:...

- ماذا دهاك يا أبا ورد... كدت تخنقني وأنا بالفعل أختنق!
- فزعت ورد من صوت أمها وكانت تقرأ، فتركت الكتاب وتساءلت:
- ما الذي جرى؟

فقالت أمها الغضوب:

- أبوكِ... كاد يقتلني دونما سبب!
- بل لمحت في عينيك شكوى على وشك الانفجار.
- بالفعل أنا أريد أن أشكو من جشع التجار واستغلالهم لسوء الأحوال...

فنظر نوح إلى ورد ابنته ليهدئ من روعها، ثم التفت لزوجته وقال:

- ولهذا أتيت بك إلى هنا... علمت أنك ستنسي أن ببيتنا ضيوف، وليسوا كأي ضيوف... بل هم ضيوف الرب؛ فخفت أن يسمعوا صوتك وتؤذيهم شكواك!

هنا انكمشت صبَّارة في نفسها وتقوقعت، وبردت حميَّة شوكها، وكأنما أحست بالذنب حقًّا من كلام الجد نوح، وبما كانت على وشك الوقوع فيه، ثم قالت بنبرة عاتبة خافتة:

- إن التجار يستغلون الأزمة التي ستحل بنا، وارتفعت الأسعار من الآن... أبو درهم بدرهمين، وأبو دينار بثلاثة! كل هذا ونحن لم نحاصر بعد، فماذا سيفعلون بنا بعد أن يكتمل حفر الخندق؟ أو عندما يأتِي مقاتلو الأهواز وشرطة الشمال؟ ماذا سيحدث لنا إن نفدت منا المؤن؟ أسنأكل لحم بعضنا... أم سنموت قهرًا وجوعًا!

ارتسمت على وجه الجد نوحٍ علامات الأسف وهو يقول:

- يا إلياس الرحيم!... أيحدث هذا وبين ظهرانينا حواري الرب؟! ماذا يكون الحال بدونه؟

ثم قالت صبَّارة بنفس النبرة وهي تخرج من تحت صدرها قطعة حرير سندسي ابتاعتها أثناء تسوقها لتحيك منها العصابة التي وعدت بها الحواري المقدس:

- «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل...» ونعم الامتثال لوصايا الرب الرحيم!

هنا تدخلت وردُ في الحديث متسائلة بمرح...

- إذن فأنتِ تقرئين كتبي من ورائي... صحيح؟!

نظرت إليها صبَّارة نظرة حادة وكأنما تقول لها: «بلا خيبة» فأحبط ذلك من روح المرح عند ورد، وتمتمت في سرِّها دون أن يسمعها أحد:

- إن قرأت أنا الكتب فهي مضيعة للوقت، وإن قرأتها هي فتصيبها الحكمة!



(٢)

أغنيات إلياسين

«عرفت الحق من صوت الربابة
وخدت الصدق من قول الصحابة
يقول الشاعر العربي – وينزل
بعزم القوس على راس الديابة –:
سواسي زي ما قايل مُحمد
بلا طبقات على ضهور الغلابة...»(١)

كان العم نَجم يغني بأحلى صوت على أنغام أوتار قيثارة ابنته دولسين الواقفة بجواره في حانة أخطاب، بالرغم من خلوِّ الحانة من الرواد تمامًا، عدا نفر أو اثنين ممن لا يبديان اهتمامًا بالأغاني والمغنين.

---

(1)لـ أحمد فؤاد قاعود.

أصابه نوع من الفتور أثناء الغناء، اضطربت أحباله الصوتية واهتزت مرات عدة وتراخت، حتى إنه تنحنح كثيرًا، وأصابه ذلك الوهج الذي يلفح الوجه حين تشعر بالحرج الشديد، فتشعر أن وجهك يحترق من شدة الشعور به! حاول التوقف عن الغناء أكثر من مرة، وأشار لابنته دولسين كي توقف العزف، لكنها في كل مرة لا تلقِي له بالًا كي تضطره لإكمال غنائه وعدم الاكتراث لقلة السامعين، فأتم أغنيته وهو طاحن على أضراسه العجوز أحجار الجبال، والتفت مباشرة ناحية أقرب كالوسٍ كي يبتلعه فتنتهي تلك اللحظات الملعونة، لكن صوتًا من الحانة عاجله فتوقف مشدوهًا... كان أحدهم يصفق له، يصفق بحرارة شديدة، ثم أتت مع التصفيق عبارات مديح من نوع خاص، نوع لا يعرفه إلا رفيق قديم، نوع لا يفهمه سوى العم نجم... وبرَّاق العظيم!

جلسا سويًّا في إحدى أركان الحانة، وقام النادل بتقديم شراب مخصوص قام برَّاق بطلبه... قال وهو يرتشف مشروبه:

- «سواسي زي ما قايل محمد»... ألا زال أحدٌ في البرية يعرف محمدًا؟!

ابتسم نَجم الذي لم يزل مندهشًا نصف ابتسامة ثم قال:

- أوليست تلك مهمتنا... أن نحيي سيرة من مات.

- ما مات لن يعود أبدًا يا رفيق دربي... لم يعد أحدٌ مهتم بسيرة الأقدمين... إن ما يشغلهم الآن هي نفوسهم... أحلامهم وأمانيهم.

استدار نَجم بوجهه وتأمل مشروبه القابع في كأسه العاجية، وظل يتلاعب بالكأس بين يديه وهو يستسيغ الكلمات بين شفتيه... رفيق دربي... رفيق دربي!

- لِمَ عدت؟
- ظننتك ستسأل لِمَ رحلت!

قالها برَّاق مازحًا، فقال نجم بشرود...

- لا، لن أسألك أبدًا... ذاك شيء لا يعنيني.

كان الرد الغريب قاسيًا بعض الشيء، فوجم برَّاق، وأحس نَجم بقسوة مقولته؛ فظل صامتًا لوهلة، ثم جذب برَّاق من ذراعه العجوز، وخرجا يتمشيان في شوارع أخطاب الترابية كما كانا يفعلان في الأيام الخالية...

قُرب كوخ قديم مهجور توقفا، وعلى درجاته الخشبية المكسرة جلسا، وظلَّا يرقبان سويًّا الشفق البنفسجي وهو يداعب قرص الشمس الخجول الآخذ نحو الطلوع، قال برَّاق...

- من الفتاة؟

نظر إليه نجم...

- الفتاة... التي كانت تعزف القيثارة.
- إنها دولسين... ابنتي.
- والفتى!
- أي فتى؟

لم يكن نَجم يعرف أن الفتى الذي هجره منذ أسابيع قد استقر عند برَّاق!

- إلياسين...
- أنت تعرف إلياسين؟

كان نجم متعجبًا، فقال برَّاق:

- إنه فتى عجيب... في البداية ظننت مجيئه خدعة منك، لكن مع الوقت اتضح لي أنه أتى هاربًا.

أصاب نَجم خيبة أمل عقبها فتور تام، وعزوف عن الكلام، لم يعرف ترجمة حقيقية لمشاعره في تلك اللحظة، وأصابه فيض من سيل المشاعر المضطربة؛ فهاجت وهاج معها ذكريات قديمة، وأحاديث غابرة، وقصص للأقدمين...

- إنها الفتاة...
- أعرف.
- أأخبرك؟

- لست بحاجة لذلك...

انطوى نَجم على نفسه ووجم، مرت لحظات صمت كالدهور، قال برَّاق:

- لِمَ لَمْ تخبره؟

نظر له نجم وتساءل دون كلام، فأردف برَّاق:

إلياسين... إنه لا يعرف من نكون، من نحن، وأين نحن، وكل شيء عنده مشتت... لِمَ لَمْ تخبره؟!

تلعثم نَجم وقال مهتزًّا...

- لم أكن أعرف ما أقول، أو كيف أقول... فتركته للأيام تعلمه بطريقتها.
- صُعق الفتى حين رأى ابنتي جِنان وهي تغوص في أعماق البحر، وتصعد السماوات بغير مشقة... وظن أننا جانٌّ!

ضحك برَّاق في مقولته، وابتسم نجم وقال بهدوء...

- ملعونين أينما ثقفوا...
- نعم... فلا هم رحمونا، ولا أبناء آدم!
- تلك خطيئتنا نحن يا برَّاق... نحن من عصينا وتمردنا وتجبرنا... فسُلطوا علينا، وبطشوا، وسفكوا دماءنا.

- بل آباؤنا وأجدادنا... أما أنت فأين عصيانك؟ الآن كنت تذكِّرهم بسيرة خاتم أنبياء البشر! لِم لَمْ يزل للجان علينا سطوة ونفوذ؟ ولم نسينا البشر كأننا لم نكن... كأننا لم نسكن نفس الأرض قبلهم... ونعمر نفس البيوت قبلهم... بعد أن كنا نحن السكان الأوائل... الحِن والبِن... عوقبنا بأقسى عقاب... النسيان! فنُسينا، بعدما طردنا الجن إلى تلك العوالم الغريبة ذات الدروب المنكسرة والجسور المحطمة، تلك العوالم الموازية، حيث تلاشينا كخيط دخان في كوم سحاب، نراهم ولا يروننا، نصرخ فيهم فلا يلتفتون لنا ولا يستمعون، حتى انزوينا في ركن الوجود، وتهشمت قلوع سفننا وتاهت في بحار الضياع، وابتلعتنا غياهب الظلمات، ومُحينا من كل ذكرى وكل كتاب... ثم ماذا؟ ثم ظلَّ الجِنُّ يستعبدوننا ويسطون علينا، وظل البشر يظنون أنهم أول الخلق!
- هل لنا توبة؟

تنهد برَّاق بعمق، وقال زافرًا...

- كل نفسٍ بما كسبت رهينة يا أخي.

دمعت عينا نَجم، ولمح دموعه برَّاق، فمسح على ظهر أخيه برقَّة، فقال...

- افتقدتك كثيرًا يا أخي...

ابتسم له برَّاق، وأشار إلى قيثارته، ثم قال له:

- ألا عزفت لنا؟!
- أي غنوة؟
- غنوتنا... التي كتبناها سويًّا... وعزفناها سويًّا... وغنيناها سويًّا... مرارًا ومرارًا... أتذكرها؟

فابتسم نَجم بحنين قديم وقال:

- وكيف أنسى؟...

ثم أمسك بقيثارته وداعب أوتارها، وأخذا في الغناء سويًّا...

فارق هابيل الدنيا... فايت وراه همه...

أما الغراب فرحان... يرقص على دمه

البدر وشه اسود... والأرض كات بتنوح

قبل الطوفان ما ييجي... يكسر ف مركب نوح

يا قلبنا المجروح...

***

لم يكن ذلك اليوم يومًا عاديًّا أبدًا، لا، ولا كان ليمر على الحُسين مرور الكرام...

أبدًا...

إن كان الخضوع قد خُلق من أجل أناسٍ فالحسين ليس منهم...

وإن كان الذل والمهانة والخنوع قد تضافروا في ثوبٍ فهو ليس على قدِّ الحسين...

الحُسين حر... الحُسين عزيز... الحُسين ذو أنفة... الحُسين ذو مروءة.

الحُسين لم ولن ولا يقبل أبدًا أن يُلقى كالبضاعة التالفة، وكالحقائب المجهولة على أرصفة المحطة دون اكتراث لها إن تحطمت أو ضاعت، الحُسين لن يطأطئ رأسه ويبتلع كلمات الاعتراض في جوفه فيكبتها، وينفجر في صمتٍ في إحدى الزوايا البائسة المهملة... الحُسين سيصرخ، سيعترض، سيصيح... أنا بشر مثلكم... لا فضل لكم عليَّ ولا لأموالكم... أنا صنعة الرب الرحيم، ولست صنتعكم!

ما الذي حدث؟... حسنًا.

لم يكن النظام المتبع في السكة الحديدية يقتضي توزيع المهام بشكلٍ دائم وثابت، كان نظامًا بدائيًّا عشوائيًّا مضطربًا، لماذا؟ لأن محطات السكك الحديدية يتم إدارتها عن طريق مسؤولين عساكر مخلصين للأدميرال فيدل، هم من وضعوا

النظام الذي لا يقبل المناقشة والتعديل، وعلى ذلك تم وضع نظام المحطة البائس، فلم يوجد من بين العمال مَن مهمته فقط تحصيل التذاكر، ومن ينظف الأرصفة، ومن يقدم المأكولات والمشروبات وهكذا... بل هي مناوبات ودوريات، إذا خلت إحدى الوظائف ملأها أحدهم، فكان العمَّال جميعهم يتناوبون على تنظيف الأرصفة، وحمل الحقائب، وتحصيل التذاكر وكل شيء...

كانت مناوبة الحسين تقتضي أن يحصل التذاكر في عربة الدرجة الأولى من القطار الفاخر المتجه صوب الغرب حيث معقل الأهواز، ولأن للحسين جسدًا هزيلًا دائم الشعور بالبرد والارتجاف، فإنه لا غِنى له عن وشاحه الأسود أبدًا، ذلك الوشاح الذي بدا مهترئًا وذائبًا من طول الاستهلاك، ولكن أباليدِ حيلة؟ هل امتلك مالًا ليبتاع غيره ورفض؟!

كانت هيئة الحُسين بالنسبة للراكبين ذوي الملابس الزاهية، من أغنياء الشمال وسائحي الأرض اللالوراسية البعيدة، كانت هيئته تثير اشمئزازهم ونفورهم وتقززهم واستيائهم، فترى تلك الطاووسة الغجرية التي ترتدي من الألوان والفراء ما شاء الرب لها أن ترتدي تحمل مروحتها الريشية الخفيفة، وتستعين بهوائها على رائحة الحُسين حين طلب منها تذكرتها، وترى ذلك العجوز الأصلع القصير ذي البذلة الرصاصية المنمقة، ورابطة العنق الزرقاء ينفخ دخان سيجاره في وجه

الحُسين باشمئزاز حين مال عليه وسأله إن كان له حاجة أو خدمة!

ابتلع الحسين كل ذلك وانزوى، وعلا بنفسه دون القوم، ولم يبذل إلا ما يطلب منه وفقط، فكانت الطامة الكبرى، والحاقة الحاقة، أتى ذلك المتأخر العجول الذي بالكاد لحِق بالقطار قبل أن تتحرك عجلاته بثوانٍ معدودات، وترك حقائبه الثقيلة على الرصيف، ثم قطع العربة الكبيرة نحو مقعده وهو يرفع قبعته، ويصرخ بتعالٍ وسخط: «أيها الخادم الكسول اللعين، أسرع بحمل حقائبي قبل أن ينطلق القطار» وبالطبع كان القطار قد بدأ في الانطلاق، ما أثار سخط الرجل أكثر فأكثر، ففُتحت أبواب السماء بسبابٍ منهمر، وتفجرت الأرض عيون لعناتٍ وشرر، والتقى الزجر على أمرٍ قد قدر، فبعدما حاول الحُسين أن يوضح للرجل أن بإمكانه العودة بالقطار المعاكس في المحطة التالية، أو بإمكانه استلام حقائبه مع القطار المنطلق غدًا، كان الرجل قد أمسك بتلابيب الحُسين، وهوى على وجهه باللكمات واللطمات والصفعات، ثم مغاضبًا أخذ برأسه ولحيته يجره إليه متجهًا نحو باب العربة، وركله بقوة ملقيًا به على الرصيف الذي قد أوشك أن ينتهي، وصرخ فيه أن يهبَّ من رقدته تلك، ويسرع بحمل الحقائب واللحاق بالقطار!

وهو بالطبع ما لم يحدث... انقلب الحسين على الرصيف، وارتطمت رأسه في بلاط المحطة فدمت، واغرورقت عيناه بدمع الأسى والأسف، وكتم في نفسه ذلًّا وكرامة تشكو وتتألم، ثم لملم ما تبقى من مروءة تبعثرت في جنبات الرصيف، وشق صفوف المسافرين الذي لم يلقوا بالًا لأي شيء، ولم يكلفوا أنفسهم عناء النظر، ثم توجه نحو غرفة الإدارة ليشتكي من سوء المعاملة... فما الذي حصل عليه الحُسين يا تُرى؟

لقد وبخه المدير العسكري الذي تم تعيينه من قِبل الأدميرال فيدل بنفسه - كما عيَّن بالمثل في كل جهة رسمية مدير عسكري - وزجره وانهال عليه هو الآخر بالسب واللعن، واتهمه بالتقصير في العمل، وتساءل مغاضبًا كيف تترك القطار يمضي دون خادم للمسافرين؟! لا بد أنهم الآن في حاجة إلى من يخدمهم، ويقدم لهم المشروبات ويجيب على أسئلتهم... أصاب الحُسين صدمة، وظل صامتًا وفي عينيه ينطق السؤال اللحوح: ونحن؟ ألسنا بشرًا مثلكم؟ أليست لنا حقوق ومتطلبات؟ لِم الأهم هي تلبية مطالبهم التافهة على حساب كرامتنا وإنسانيتنا؟

كان العمَّال قد تكاتفوا والتفوا حول زميلهم المحبوب، وربتوا على كتفه الضئيل وهدهدوا، وأسمعوه كلمات مواساة

بائسة، ذاك يحكي ما أصابه من نفس الجنس، وهذا يسرد حكايات أشد وقعًا في النفوس...

في تلك اللحظة اشتعلت بداخل الحُسين جذوة غضب، وتأججت نيرانها وتلظت، وتطاير شررها الوهاج، لكنما... نيران الحسين ليست نارًا مُحرقة، بل نيران مضيئة مرشدة، تهدي إلى الحق وإلى طريقٍ مستقيم.



(٣)

كانت دلال جمرة تتلظى...

تزداد توهجًا وسعيرًا يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة...

مر أسبوع والحال ثابت، لم يأتِ لها أحد برأس قاتل زوجها، لم يبرح رمَّاح الطائش مكانه، ولم ينفجر غضبه المزعوم، لم يفارق القدير قسورة خيمته وعزلته وحضرته مع الرب الرحيم الذي يزعم أنه يكلمه ويناجيه، لم يزرهم ذلك الأدميرال الأحمر الذي طالما اشتكى لها صخرٌ من جشعه وانتهازيته للقدير، لم يحدث أي شيء قط... أي شيء... كل الفلك يدور كما هو دورانه المعهود... لم يتعطل! لم يتغير الكون كثيرًا لرحيل صخر، ولم تحدث تلك الجلبة التي توقعتها، ذات يوم أتاها بالأخبار عصفورٌ صغير نفث في أذنها بأن نفرًا من أتباعٍ الأدميرال قد حطوا رحالهم في المنخفض العظيم، فاستبشرت، وقالت غزوٌ للجنوب وثأر قادمٌ، لكنَّ الواقع صخرة تتحطم عليها الأماني الزجاجية والأحلام

الوردية، كان النفر من الرجال الأغراب الذين درسوا في البلاد اللالوراسية علوم البناء والهندسة، قد أتوا قرب حطام البئر، وبدؤوا في الحديث والتشاور، يبدو أن العسكري اللعين لا يبالِ بثأرٍ ولا يحزنون، بل إنه انتهازي حقير استغل شرود القدير قسورة وضَعف رمَّاح ليبدأ مشروعه الغبي... ذلك المشروع الذي سيقيم علينا الدنيا ولا يقعدها.

كانت دلال تئنُّ، سيل أفكارٍ لا ينتهي، فكرة تلو أخرى، خاطرة وأخواتها، ومشاهد متتالية، واحتمالات وتنجيم، تضرب الفكرة برأسها مرة، فلا تنتزع إلا بالنوم الثقيل الشحيح الذي يضنُّ عليها بالمجيء، وبسهر متتالٍ أصابها دوار وصداع شديد وفتور، وبسهر متزايد راودتها الهلاوس والخزعبلات، وبسهر متصل وحزن شديد أصابتها هيستيريا الكآبة والخوف، وركبها مارد مهووس لا يهدأ، فظلت تطوف وتطوف، وتصرخ بالكلمات والتساؤلات، وتنادي وتنادي وتنادي... ثم لا يجيب أحد!

والليلة...

أوقفتها نوبات الهلع والهيستيريا عند خيمة رمَّاح، فدخلتها فزعة؛ ففزع منها واضطرب، كان متكئًا على ذراعيه، ومن أمامه يجلس خيسيه يسامره، فتوجهت تلقاء رمَّاح دون أن تلحظ خيسيه، وأمسكت بتلابيبه بحدة وجنون واعٍ وقالت صارخة...

- أين صخر يا رمَّاح؟ أين زوجي... لقد اختفى زوجي... خرج يومًا ولم يعد... كان معكم... صحيح؟... كان معكم حين خرج... لِم لَمْ يأتي معكم؟ ها... أين ذهب... أين ذهبتم به؟ ماذا فعلتم به؟

كان رمَّاح ينظر إليها بأعين شديدة الجحوظ من شدة الصدمة، لم يكن يعرف ما أصابها، في حقيقة الأمر هو يعرف ما بها، لكنه لم يتصور أن يصل بها الأمر إلى هذا الحد من السفه، إنها على حافة الجنون، تتأرجح على هوة العبث!

- لم نفعل به شيئًا يا دلال... اهدئي يا زوج أخي... اهدئي وسيكون كل شيء بخير.
- لن يكون هناك خيرٌ أبدًا... لن يكون هناك خير أبدًا يا رمَّاح، وأنت تعلم هذا جيدًا... لن نثأر لصخرٍ أبدًا طالما أبوك في عزلته الخربة يبحث عن معبوده الخرافي...

هنا بلغ السيل المدى، وسرَّ الحال العِدى، وتجاوز الكلام الحدود، وكان التوقف واجبًا، لكنَّ الضرورات تبيح المحظورات، فتلاشى الواجب في الحزن، وجاوز الكلام الحدود من جديد:

- أنت تعلم هذا جيدًا يا رمَّاح... أبوك ضعيف وساذج، والديك الأحمر يرقص على طبول حِدادنا... أنت تعلم هذا جيدًا... إنه أنت... أنت يا رمَّاح.
- أنا ماذا؟

قالت وقد أصابت كفوفها التي تمسك بثيابه ارتعاشة قوية، واضطربت أحبالها الصوتية وبدأت في البكاء:

- أنت من سيثأر لصخر... صخر حبيبي... قتلوه يا رمَّاح... طعنوه بخناجرهم الصدئة المهتزة... وغدروا بهِ من خلفه الجبناء... ومات... مات وهم عاشوا... لكنهم لن يعيشوا للأبد... ستثأر لي منهم يا رمَّاح... أليس كذلك؟ أنت تعلم ذلك جيدًا... إنه مصيرك أنت... قدرك أنت يا رمَّاح.

كان رمَّاح يهدئها ما استطاع، ولكن دون جدوى، كانت في عالمٍ آخر، كانت في قمة الهذيان والتيه، وكانت لا تعي مما حولها شيئًا، فلم تَرَ جحوظ أعين رمَّاح، ولم تَرَ دموع خيسيه التي انسكبت من تلقاء نفسها، وكذلك... لم تلحظ فِرار قدميها نحو خيمة القدير قسورة المقدسة، تلك الخيمة المهولة، التي من المحرم على أي من الأهواز أن يقربها أو يمسها بسوء، لا خوفًا من عِقاب، ولكن لقداستها وبركتها وطهارةٍ الصلوات التي تُتلى كل يومٍ فيها... انساقت دلال خلف ساقيها الراكضة حتى أشرفت على الخيمة المقدسة، رآها الحرَّاس ومن خلفها كان رمَّاح وخيسيه يلحقان بها عدوًا، وكما هي العادة... فتح الحراس باب الخيمة لثلاثتهم، وانصرفوا ألا يسترقوا السمع سهوًا أو بتعمدٍ كما علَّمهم القدير قسورة ذلك من قبل.

كان القدير كما هي عادته، سابح في بحر الحضرة اللامتناهي العمق، ينصت للعدم الأشد عذوبة من الأناشيد، ويرتل بلسانٍ خاشعٍ زاهدٍ ما لُقن من تراتيل وابتهالات أطلعه عليها من هم بالحضرة حاضرون، ومن هم للسر كاتمون!

بسم الإله الخالق الأكبر

وهو حرزٌ مانعٌ مما نخاف ونحذر

لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، يلجمه بلجام قدرته

أحمى حميثًا، أطمى طميثًا، وكان الرب قويًّا عزيزًا

حـم عـسـق حمايتنا، كـهـيـعـص كفايتنا

يا بارئ... يا بارئ

لك الدوام الأزلي، والبقاء السرمدي

حتى ترث الأرض ومن عليها

ارزقنا حلاوة محبتك، واحشرنا في زمرة المحبين

توجهت ناحيته دلال مندفعة، وهبطت نحو قدميه تقبلانها، وترجو منه النهوض، والتغير، الحركة والمسير...

فاستفاق القدير من إغماءته السرية بوجهٍ استحال من الحِلم والنضارة للشحوب والاكفهرار، وقال بصوتٍ غضوب محتقن:

- ألم أنهكم عن اقتحام حضرتنا المقدسة وإفزاع الحضور الطيبين... ابتعدوا قدر ما استطعتم، فإنهم أناس يتطهرون!
- أفق (ثم بعدما جذبته من ثوبه بحدةٍ تركت في قفاه أثرًا) أفق أيها الكهل العجوز، أفق، مات بكريك وأنت في بحر الجنون غريق، والبلاد لقمة سائغة بين أنياب الضباع، والبساط من تحت أقدامنا يسحب على مهلٍ وأنت لا تعِي شيئًا من ذلك... أنت في حضرة المجاذيب تهيم!

هرع نحوها خيسيه ينهرها، واستخلص من يديها ثوب القدير بعنادٍ شديد؛ فتركته وهي تصرخ، ولم تتوقف عن صياحها قط؛ حتى خاف رمَّاح أن يوقظ الصياح آل الأهواز ويجتمعوا!

- أنَّى ليمامٍ أن يسكن إلى حدأة؟!

قالها قسورة بعجبٍ وهدوء وهو يتحسس قفاه الذي دمى من شدة الجذبة؛ فأجابته دلال بصراخها قبل أن يحكم كتمها خيسيه ويعلو صوت رمَّاح قائلًا بعتابٍ لطيف...

- يا أبتِ إني أخاف أن يمسنا عذاب من الأعداء...
- الرب الرحيم يحمينا.

فنبحت دلال بصوتٍ مكتوم: مختلٌ عجوز، فتجاهلوا صوتها كأن لم يكن، وتساءل رمَّاح بتهذيب شديد:

- يا أبتِ لِم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنِي عنك شيئًا؟!
- بل هو السميع البصير النافع الضار، من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه... أراغب أنت عن إلهي يا رمَّاح؟!

فتبرَّمت دلال، وتسربَّت من قبضة خيسيه كسمكة عتيدة بعدما قضمت كفَّه بغيظ وصرخت مجددًا...

- أنت مجنون يا قسورة... مجنون خرِف... ودمار الأهواز وخرابها على يديك... وسننفى من الأرض مرة أخرى، ستكون دماء صخرٍ لعنة علينا جميعًا... ستكون لعنة إن لم نثأر لها، ونستعيد مكانة الأهواز التي سُلبت منا في عهدك كما سُلبت في عهد أبيك من قبل على يد أوزريانو اللعين.

رنَّت الكلمات في أذني خيسيه؛ فتسلل صداها مدويًا نحو الأعماق الخاوية المتهالكة غير المرممة، فأحدثت شرخًا جديدًا، وأسالت جرحًا قديمًا، وتركت في صدره حنقًا وفي جوفه مرارة لم يبتلع بعدها ريقًا ولا خمرًا...

فجأة...

انخفضت دلال مجددًا، اقتربت أكثر من اللازم، اقتحمت حدود القدسية، هتكت الأسرار، وكشفت الأستار، ودنست الأطهار، ثم عاد الشد والجذب، والصياح والنباح، وبلحظة مشئومة، اختلط فيها الخيط الأبيض بالخيط الأسود من الفجر... تلاشت المعالم والملامح والتعابير، وساد صمت كئيب، رنينه في الأجواف عظيم، وصداه في النفوس أليم، وبين الشد والجذب، والجذب والشد، تكاثرت الأيادي تسبقها يد القدر واندفاعات العبث والرقص على حافة الجنون والهاوية، ولما سالت دماء طاهرة مقدسة على أرض الخيمة توقفوا كأن على رؤوسهم الطير...

ما الذي حدث؟

تساءلت دلال بهدوء شديد واستيعابٍ منعدم وهي تتأمل الدماء الزكية التي امتلأت كفَّيها منها، وتقلَّب بصرها بين الرجلين الواجمين تستحثهما على النطق بأي كلمة، تستجدي أي رد فعل وأي تعبير يُذكر، كررت سؤالها مرات عدة بنفس النبرة، وبعدما مال رمَّاح على جثة أبيه التي افترشت الأرض، وسبحت في بركة الدماء المتفجرة من مؤخرة رأسه تساءلت دلال مجددًا بعدما وضعت كفيها على كتفيه فتلوث ثوبه: ما الذي حدث؟

فقال دون أن ينظر إليها:

- صمتًا يا دلال، صمتًا... فأنتِ لا تعلمين أي الوحوش أطلقتِ سراحه!

❦❦❦

تحت ستار الليل الغطيس سار الثلاثة تباعًا...

خيسيه في المقدمة، ومن خلفه يأتي رمَّاح، يحملان الجثمان السمين على أعناقهم، وتسح أنهار الدموع الحارة من أعينهم المتورمة، ودلال من ورائهم تتخبط في مشيتها مشتتة الذهن والبال...

إلى أين يا رفاق؟... إلى المالح!

كان الليل رحيمًا بهم ستِّيرًا، وأسراب الغربان فوق الخمائل تنعق بأسى لحن الحزن والبكاء، لحنًا يليق بجلال الراحل، لحنًا يتناغم مع الخطوات الكالحة، وكآبة الغابة العجوز، ووجوم الوجوه الشاحبة، والليلة الطويلة...

كانت ضربات قلبه تُسمع من مسيرة كذا وكذا، وعيناه الآخذتان في البكاء أوشكتا على النضوب والجفاف، ترتعش شفتاه بلا إرادة، وتضطرب نظراته كلما رفَّ في الظلام طائر، أو انثنى تحت قدميه الآدميتين عشبًا يابسًا...

فجأة...

تعثرت خطواته فاضطرب، واضطرب ثقل الجثمان عليهما، واختل الاتزان في لحظات بدت كأنها دهر طويل، هرولا نحو جذع شجرة يصارعان الموت ليستعيدا الاتزان، ولكن صرخات دلال سبقتهما، وكانت فزعتهما مما استحث دلال على الصراخ؛ إذ كان في الأفق البعيد أشباح تعدو في خفة ودهاء، في البداية لم يلقيا لها بالًا، ولكن الأشباح داهمتهم قطيع ذئاب جائعة، كشفت عن أنيابها في وحشية وتعطش شديد، وصدر عن قائدها عواء منتشي وحشيٌّ كإشارة للهجوم...

ما الذي حدث...؟

أنت تعرف جيدًا ما الذي حدث...

كانت يداه ترتعشان بشدة، عيناه انتفختا من شدة البكاء حتى استصعب الرؤية وتمييز الأشياء، لم يعرف كيف وصل إلى تلك البقعة من الشجرة الهالكة عند شاطئ المالح، لم يعرف ماذا حلَّ بدلال، وأين ذهب رمَّاح، وماذا فعل قطيع الذئاب، ما مصير الجثمان، ما الذي حدث...؟

هو يعرف جيدًا ما الذي حدث...

لكنه لم يقوَ على الاعتراف به!

وفي كآبة الليلة المظلمة ذابت روحه مع النسيم الحزين

وضربات الأمواج المترددة لرمال الشاطئ المستسلمة في خضوع مذلٍّ، أسند رأسه الثقيل للجذع اليابس فالتقطه على مضض، وأطلق زفيرًا سرمديًّا ذا لهيب وسُعُر، وأصابته ارتعاشة وحشية واضطراب، فهام وانتشى، وعانق السماء ورمال الشاطئ تلوث قدميه الصلبتين، ثم هبط من علٍ، سقط من حافة الخلود نحو قاع الحقيقة؛ فتحطم وتهشم وتفتت، وذرته رياح الحزن نحو بلادٍ بعيده، عند حدودها الشائكة تراكمت ذرات فتاته فتكوَّن خلقًا جديدًا، نُفخ فيه أخرى؛ فبُعث شائب الرأس مكفهر العينين، كسيرته الأولى، كان ظلامًا دامسًا يحويه، ثم أذن مؤذن من كل اتجاه يشير إليه...

- من الفتى؟

انتفض خيسيه واضطرب، التفت كما تلتفت الأكوان بحثًا عن الحقيقة، ولم يهتدِ فعاد الصوت بوقع أشد، ونبرة ذات اختلاف...

- من الفتى؟

فأجاب مرتعشًا هلعًا:

- خيسيه!

فتساءل الصوت الأول ساخرًا بقسوة:

- خيسيه الأصهلي، ربيب الزعيم

واستطرد الصوت الثاني بسخرية أقل لذوعة وأكثر عتابًا:

- أم خيسيه الهوزي، الابن الضال!

تلجمَّ لسان الفتى ولم يعرف ما يقول، دار في الظلمات دورة، ثم دورة، ثم دورة حتى احتواه الظلام من كل النواحي، ودار به فأسقطه في دوامة من التساؤلات التي لا تنتهي، دوامة سرمدية عبثية مجهولة، لا مبتدأ لها أو منتهى، فجأة... وجد نفسه طريح أرض ميتة، لم يفارقه الظلام بعد، فالظلام رفيقه الجديد، كاد يموت من الرحلة وأصواتها، بالكاد التقط أنفاسه حتى باغته من خلفه ما شاك صدره؛ فكاد أن ينخلع... التفت فإذا بصاعقة تحل عليه لم يتقبلها عقله الصغير...

الزعيم أوزريانو... والقدير قسورة!

إنهما أحياء، لا، بل أطياف تشع من جلودهم نورًا وهاجًا، إنهما في أوج الخلود والدوام، ذاك في إزاره المميز وعضلات صدره المفتول تكاد تتمزق من شدة حماستها وصلابتها، يحمل في يده خيزرانة خضراء، وذاك في عباءته القطنية التي طالما ارتداها في خلواته يحمل مسبحة كهرمانية طويلة...

لم يعرف وقتها ما الشعور المناسب، اختل جهازه العصبي واضطرب، واحتار قلبه المنفطر على كليهما، كلاهما أعداء بعض وكلاهما أسياده، كادت عيناه تشع من السرور بعدما رأى أوزريانو، وكاد قلبه يتوقف عن العمل طربًا بنجاة قسورة،

واحتارت قدماه إلى أيهما تسير، فتسمَّر في مكانه كتمثال عتيق، فتقدما إليه بوجهٍ مكفهر وأفواه ملتوية مزمومة...

ضربه أوزريانو بخيزرانته الخضراء بعنف وسأل:

- من ربك؟

صُعق من السؤال، وآلمته لسعة الخيزرانة، فتمتم بلسانٍ ملجوم...

- ها... ها... لا أعلم!

اقترب قسورة أكثر وهوى على كتفه بالمسبحة وتساءل:

- ما دينك؟

شعُر بتورمٍ في كتفه كأن لحمه يتآكل، وقال ولم تنفك عقدة اللسان بعد...

- ها... ها... لا أعلم!

فالتفت أوزريانو حتى أصبح عن يمينه، واقترب قسورة حتى صار على شماله، وهوى على جسده كل منهما بما يحمله، ذاك بخيزرانته وهذا بمسبحته، وراغا عليه ضربًا وهما يصرخان فيه بالسؤال نفسه:

- ما تقول في الرجل الغريب الذي أتاكم؟

فلمعت في عينيه صورة إلياس! إلياس بن أبيه... دارت في ذهنه مشاهد عدة، رحلة الرفاق الجدد، حرب العنقاء، الأغنيات العذبة والقصائد، قيثارته وقبعته المأثورة، أعينه الرمادية الساحرة، حفل التنصيب، زحف الأهواز، صدر إلياس المنشق بالحربة القوية، حربة خيسيه! سؤاله الذي يطارده كل يوم...

لماذا يا رفيقي؟

نظرة عينيه قبل أن تغربا في بحر الموت، واهتزاز أصابعه وهو ينزع الروح!

دارت كل المشاهد أمامه فتألم، تألم كما لم يتألم من قبل، وشعر برغبة لحوحة في البكاء... لكن عينيه البكاءتين قد خانتاه تلك المرة، فظل واقفًا بين الرجلين الغاضبين عاجزًا عن الكلام، عاجزًا عن البكاء، عاجزًا حتى عن الهرب، كان مخدرًا، مشدوهًا، مسلوب الإرادة تمامًا، كان منسلخًا من كل طائفة، منبوذًا من كل فرقة، مذبذب كالمنافقين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وتمنى في تلك اللحظة لو كان ترابًا، لو كان عدمًا، لو كان شيئًا لم يكن...

وظل خيسيه على حالته تلك دهورًا متواصلة، تراوده الكوابيس أينما ارتحل، وفي لحظة تغفل عيناه فيها عن

الحقيقة القاسية، تأتيه الكوابيس بخيزرانة أوزريانو ومسبحة قسورة تؤدبانه؛ فخاصم النوم، ورافق الأرق، وجافته الدموع فلم يُرَ باكيًا بعدها أبدًا...



(٤)

أغنيات إلياسين

عاد العم نجم يلهث بشدة، بالكاد يلتقط أنفاسه...

هرعت نحوه دولسين الجميلة تنظر ماذا هناك، كانت تعرف أن الغريب استوقفه وقاده نحو جولة ليتحدثا، رأت كل ذلك، ولم تشأ أن تمنعه أو تتطفل عليهما، وعادت للبيت وحيدة تعبث بحصى الطرقات، تعصف بذهنها المواقف والأحداث والأصوات، تتذكر ذلك الصوت الحنون الدافئ، تلك اللمعة التي لم ترها في أعين سوى تلك الأعين الرمادية، تلك البسمة الخجولة، أصابعه الرقيقة حين يداعب بها الأوتار ليغني وهو بجوارها أعذب الأغنيات، لأول مرة تتذكر دولسين تلك المواقف والذكريات واللحظات فترى فيها شيئًا مميزًا، تشم عطرًا غريبًا تسلل نحو المواقف، بريق شمعة في خلفية المشهد أضفى عليه عذوبة ما ورقَّة غريبة، لأول مرة تشعر أن غِناءه كان لطيفًا، وابتسامته كان بها شيء يميزها، وبراءته

في التصرف والحديث بالرغم من تذمرها مرارًا فإنها رأتها نقية ومثيرة، كأنما ترى كل شيء من زاوية أخرى!

انقضى بها الطريق بسرعة مدهشة، تمنت لو كان الطريق أطول من ذلك، لكنها أخطاب على أية حال، لم تكن أبدًا كما يرتجى منها!

حينها دلفت نحو غرفتها الصغيرة، وتوقفت أمام مرآتها المكسورة، وحلَّت عن شعرها تلك العقدة التي تحافظ على تصفيفتها ثابتة، التصفيفة التي تتوارى من تحتها أذنيها، اللتانِ تشبهانِ أُذنا أرنب لطولهما ولطرفهما المدبب... كانت تخجل منهما أيما خجل، حرصت كل الحرص على ألا يراها الفتى أبدًا، ألا يستقبحها أو ينفر منها، كانت تحب أن يراها جميلة، كانت تعلم أنه على فطرته، وأنه لن يسكن إلا لمن هو شبيه له، وهو لا يمتلك تلك الأذنين الطويلتين المدببتين، فلا هو منهم ولا هم منه؛ ولذلك حرصت دائمًا على ألا يراها الفتى أبدًا، ولكن... أين الفتى الآن على أية حال يا دولسين؟

تنهدت بعمقٍ واستغرقتها نوبة بكاء حارة، وغرقت في دوامة من الأمواج المتلاطمة، مشاعر مختلطة، وأحلام، وأوهام، وظنون، وعبارات حملتها الأيام وذهبت بها بعيدًا بعيدًا، حينما صرخ بها متسائلًا عن سر الجفاء «ألأنني أحبك؟» تساءل فكان ردها كالسوط في شدته: إنك لا تحبني!

تنهدت بعمق، ومن الأعماق تأسفت، ومسحت بأناملها دمعة تسللت خلسة، ثم استفاقت على صوت الباب وصدى أنفاس العم نجم، تعجبت من لهاثه، ولكنها تعجبت أكثر في انقضاء الوقت بتلك السرعة!

- أنت بخير؟

لم يجبها، وظل صدره آخذًا في الصعود والهبوط، فهرعت نحوه بكوز ماءٍ فأمسكه برفق وأخذ يتأمله ببطء، وينظر إليه بشكل غريب، تعجبت دولسين الجميلة، وتساءلت مازحة:

- كأنك لم تره منذ أمد بعيد!

فتنهد بأسى وقال...

- لعلِّي لن أراه مرة أخرى...

أُخذت دولسين من الرد الغريب وأصابها أفول حاد، ما ذلك التشاؤم الذي أصاب العم نجم الذي كان طوال الوقت قنديل الناس في أحلك الأوقات! ما الذي قاله له هذا الغريب؟ ومن هذا الغريب في الأصل؟ كل تلك التساؤلات راودت ذهن دولسين، وكأنما قرأها نَجم على وجهها فلحقها...

- إنه برَّاق...

- الغريب؟ صاحب العربة الملعونة التي سرقت مننا الرواد!
- إنه عمكِ برَّاق.
- عمي!

أحست بغرابة شديدة فأمَّن على مقولتها:

- إنه أخي الأصغر، لكنه طائش مذ وُلِد، طالما استهوته الشياطين وسبل الضلال، عشق المغامرة وهوى النفس، وتبِع ظله حتى ضل عنا وعن سبيلنا، ثم تركنا ورحل...

لم يثرها الفضول كثيرًا كي تنخرط في تفاصيل الرجل، فهي تشعر بنفور فطريٍّ نحوه، وجزعت عندما علمت بوجود صلة قرابة تربطهما، لكنها تساءلت:

- تبدو غير مرتاح لرؤيته، ما الذي أتى به الآن؟
- لم يأتِ لأخطاب من تلقاء نفسه، بل قذفته نحونا بليَّة ستحل بنا عما قريب...

لم ترتح يومًا لتلك الكلمات، فتساءلت وصبرها على وشك النفاد:

- تكلم أرجوك، أية بليَّة؟!
- إن الوالي قد دعاه خصيصًا كي يقوم بإنشاء مشروعه الخاص، إنهم يريدون ردم النيل!

دارت الكلمة في ذهن دولسين فلم تستسغها، ولم تفطن للأمر جيدًا، وألحت عليها عشرات الأسئلة، قال نَجم مستطردًا بأسفٍ وتعجب:

- أعلم أن مياه النيل ملوثة، فالناس همج لا يلقون له بالًا، ولا يعتنون به، ولا يقدسونه كما يستحق، يلقون فيه بأقذارهم، ويقضون فيه حاجاتهم، ويغتسلون فيه من أوساخهم، حتى استحال الصفاء عكارًا، والشفاء ضررًا، والبلسم سمًّا قاتلًا... لكن أيكون جزاء النيل منا ردمه؟ أجزاء المريض قتله؟ أم مداواتهِ! ومن أين لنا بماءٍ إن ردمناه؟ وأنَّى لأخطاب أن تزرع وتحصد وترعى كعهدها... إنه الخراب يا أخطاب!

شعرت دولسين بالخطر، بثقل الحمل الواقع على ظهورهم، وراودها سؤال:

- وما علاقة برَّاق بردم النيل...؟
- إن آل أخطاب سذج حمق، ولكنهم بالرغم من ذلك إن تجمعوا على أمر صار نافذًا لا محالة، والوالي يخاف كلمتهم الواحدة، ويخشى أن يرفضوا ردم النيل؛ فيصيبهم العطش وتموت حقولهم ودوابهم، ولهذا... أرسل في المدائن حاشرين يأتوه بكل ساحرٍ عليم،

وجاء من أقصى الكون برَّاق بعربته السحرية، يرى الناسُ فيها أخطابًا بلا نيل، كجنة الفردوس، يرونها آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان...

- ولكن هذا كذب وخداع، من أين يأتي الرزق إن لم يكن هناك ماء النيل؟ لن يكون سوى العطش والجفاف!
- إنهم لا يرونها كأخطاب، بل يرى كلٌّ منهم هيئته الجديدة بعد ردم النيل وإنشاء مشروع الوالي، بناء الحلبات للقتال، ومسارح لصراعات الديوك، وتوزيع ما تبقى من الأراضي على من يمتلك مالًا للشراء، يرى الناس أنفسهم في عربة برَّاق كملَّاك لتلك الأراضي، فيرى البائس الفقير نفسه كوزير البلاد، ويرى تعيس الحظ ديكه وهو يصارع في الحلبات، وينتزع بمنقاره النصر فتفوز أوراق اليانصيب خاصته! ينظر كل منهم أسفل قدميه فقط... ولا يكلف أحدهم نفسه عناء النظر للأمام شبرًا واحدًا!

ظلت دولسين الجميلة صامته، خطفتها يدٌ مرعبة، أسلمتها لأطياف الفزع وأشباح المستقبل المظلم، وظلت تتخبط في سراديب الأسراب والأوهام؛ حتى أصابها غم وحزن عميق، نظر إليها أبوها فأشفق عليها، تسلل بأنامله نحو كفها النديِّ فمسح على ظهره برقَّة بالغة، وجذبها بحنوٍ فعانقها عناقًا كان لا بد منه، فهدأت وتوردت وجنتاها، وشعرت بالسلام

على كتف أبيها؛ فأسلمته راحتها، واطمأنت حتى كاد يغلبها النعاس، غير أن سؤالًا مزعجًا لاح بخاطرها فتساءلت:

- لا جديد عن إلياسين...؟

تبدلت ملامح وجهه وتعكرت، قال بغضب مكتوم:

- إنه معهم...
- مع من؟
- برَّاق... وابنتيه.

فجأة انسحب التورد من وجنتيها وساد الشحوب، واكفهر الوجه الصبوح، وتلاشت كل رايات السلام، وتفجرت في أعماقها حرب أعتى من كل حروب بني الإنسان، قالت بغيظ شديد:

- لم يكن يومًا منا ولن يكون، فليهنأ بصُحبتهم إذن!

***

بصوتٍ ثابت يمتلئ يقينًا، قال:

«ألسنا أحرارًا؟ ألسنا نحن عمل الرب بيديه وصنعته المكرمة؟ أليس لنا حق أن نأكل وأن نشرب؟ أليس لنا حق

أن نتخذ زوجات ترافقنا؟ كما يفعل الأغنياء والعامة وآل الشمال؟ أم أن عمَّال السكة الحديدية وعمَّال المناجم وحدهم لا حق لهم أن ينقطعوا عن العمل؟!

أي جندي يذهب إلى الحرب على نفقته الخاصة؟ وأي مزارع يزرع كَرمًا ولا يأكل من ثماره؟ أم أي راعٍ يرعى قطيعًا ولا يشرب من حليب القطيع؟ أتظنون أني أتكلَّم بهذا بمنطق البشر؟ كلا، أوما تعلمنا في مدرسة المعلم بنيامين قديمًا أن شريعة من كان قبلنا كانت توصيهم بالعدل، وكانت تفرض عليهم زكاة بالإجبار، وصدقة بالتطوع، ووقفًا بالإحسان؟ ألم يعلمنا بنيامين بأنه مكتوب في شريعة موسى: «لا تضع كمامة على فم الثورِ وهو يدرس الحنطة «تُرى، هل تهمُّ الرب الرحيم الثيران، أم يقول ذلك كله من أجلنا؟ نعم، فمن أجلنا قد كتب ذلك كله، لأنه من حق الفلاح أن يفلح برجاء، والدرَّاس أن يدرس برجاء، على أمل الاشتراك في الغلة».

تساءل أحدهم مندهشًا بصوتٍ خافت:

- أهو حق لنا يا حُسين؟ وكيف نصل إليه؟

وهمس آخر وهو يلتفت عن اليمين واليسار:

- لكنهم لن يدعونا وشأننا، إن علا صوتنا بحقوقنا أخرسونا، وإن توقفنا عن العمل أهلكونا، إنهم لا يعترفون إلا بمصالحهم!

وهمس ثالث بكآبة...

- إننا في غابة الموت أيها الرفاق... لوراسيا!

وصاح آخر:

- لقد أفسدوا عليَّ معيشتي، ما عدت أعرف إن كنت أعمل كي أعيش أم أعيش كي أعمل!

كان الحُسين بين العمال كالياقوتة وسط اللؤلؤ، في قلب الغابة الكئيبة، تحت ستار الليل المدلهمِّ، وعلى ضوء قنديل مرتعش، تم أول اجتماع بين الحُسين ورفاقه المكافحين، من عمَّال السكك الحديد وعمَّال المناجم الكادحين، انتصب عوده بينهم، وتلا عليهم كلماته التي كانت إنجيلًا للصدور، تحيي أملًا، وتوقظ حلمًا، وتضفي سكينة على قلوب مضطربة قلقة، يتخفى شَعره وراء وشاحٍ أسود إلا خصلات تسللن منسدلاتٍ على جانب جبهته؛ فزادته حلاوة ونورًا، وبعصاةٍ هزيلة يشير بها روَّض القطيع وقاده، ثم التفت إلى صاحب السؤال الأولِ، وقال باسمًا:

- إن الرب الرحيم لم يخلق الإنسان على طبقاتٍ عليا ودنيا، بل خلقنا جميعًا من كفِّ تراب واحدة، ومن نفخة روح واحدة، ومن أبٍ وأم أتينا جميعًا، سواسية، كأسنان مشطٍ عادلٍ، لا فضل لأحمر على أسود، ولا

لشمالي على جنوبي، لا فضل لغني على فقير، ولا لمالكٍ على عامل، جميعنا سواء، والمال مال الرب الرحيم، وتلك حر مشيئته العادلة، يستخلف من يشاء، فما من أوتي المال بغني، وما من حُرم المال بشقي، كلنا في الأمر سواء... مختبرون... ممتحنون، يبلونا أنصبر أم نكفر، نشكر أم نجحد، ولكنهم جحدوا بنا، واستأثروا بما ليس ملكًا لهم، وأكلوا أموالنا، وهضموا حقوقنا التي كفلها لنا الرب الرحيم، ومزقونا كل ممزق... حتى لم يبقَ لنا لذة من الدنيا سوى الأحلام! يا إخوتي... إنها حياتنا كما هي حياتهم، لا فضل لهم علينا حين يعطوننا حقوقنا التي كفلها لنا الرب الرحيم، ولا عذر لهم حين يأكلونها جهارًا، ولا لوم علينا حين نناشدهم بها...

ثم التفت نحو الثاني وقال ملاطفًا:

- إن كانوا لا يعترفون إلا بمصالحهم؛ فليعلموا إذن أن حقوقنا عين مصالحهم.

في تلك الأثناء رفَّ من فوق الخمائل غراب يعرف الحُسين ويألفه، إنه الغراب العاشر، الذي هبط من علٍ فورما اشتم رائحة الحسين النادرة، ووقف بمخلبيه السوداوين على كتف الحسين، فوق وشاحه الأسود، وظلَّ يمسح بمنقاره الوشاح

الأسود ويتأمله، فابتسم له الحُسين ابتسامة مضيئة، وقال له بعفوية وطفولة:

- نعم يا رفيقي، أنت مني... وأنا منك.

نعق الغراب بأسى غير مناسب للموقف، ثم استدار برأسه مرات عدة وكأنما يتفحص بعينيه تلك الأشباح الواقفة حول صاحبه، فقال له:

- وهم كذلك...

فخرج صوت عيينة صديق الحُسين مازحًا:

- نحن غربان الحسين.

كان يقصد المزاح، لكن الجمع لم يضحكوا... بل هاجوا، وثاروا، وهتفوا بحمية وحماس شديد «نحن غربان الحسين... نحن غربان الحسين»، حينها رفَّ الغراب بجناحيه، وحلَّق فوق الجمع مرات عدة، قبل أن يعود إلى الكتف المألوفة لديه؛ ليستمع إلى صاحبه وهو يقول بوعظ حماسي:

«تذكروا أيها الرفاق، ثورتنا ليست من أجل الطعام والشراب كثورة الأسطى زيان، بل من أجل الكرامة والإنسانية، ثورة من أجل العزة والأنفة، ثورة للتذكير بالحقوق الضائعة...

إننا حين نطالب بالنظام والترتيب في العمل فإننا لم ننحرف عن الأخلاق، ولم نطلب غريبًا مستهجنًا، وحين نطالب

بمواعيدٍ رسمية للدوام، وأيام راحة وعطلات، وتأمين من المخاطر والإصابات التي تصيبنا وتصيب إخواننا في المناجم كل يوم، بل كل ساعة، فإننا لم نخرج عن ناموس الكون، ولم نتجرأ على شريعة الرب...

إننا حين نطالب بأجرٍ عادل، والمشاركة في الغلة التي نصنعها نحن، بأيدينا ومناجلنا ومطارقنا، فإننا لا نحمل حقدًا على الأغنياء، ولا نسرق من أموالهم، بل إننا ننشد الفطرة التي فطرنا الرب الرحيم عليها، والتي أوصى بها الأمم الذين جاءوا من قبلنا في شرائعهم...

يا رفاقي، إن في الصدور نارًا من الغضب والحنق والاعتراض، إنها نيران حق، إنها برهان عدل، إنها نور العدالة في غياهب لوراسيا وظلمات العساكر، لا فضل لشمالي على جنوبي، ولا لمالكٍ على عامل، أشعلوا بنيران غضبكم قناديل الطريق، ولتكن ممهدة ومعبَّدة لنا ولأبنائنا من بعدنا...

ألا لا خير فيكم والجبن شيمتكم...

ألا لا خير فيكم والذل مسلككم...»



(٥)

بعد أيامٍ من استدعائه بشكلٍ طارئ... أتى!

استيقظ رمَّاح الهوزي على صوت الخادم الموكل بحراسة خيمته وهو يقول:

- مولاي رمَّاح... الأدميرال فيدل في انتظار مجيئك.

كالأطفال فرك عينيه بكلتا يديه ليمحي أثر النعاس، وازدرد من قنينة الخمر بجواره ما سقط نحو أمعائه مباشرة، ثم أشار للخادم بلا اكتراثٍ قائلًا:

- دعه ينتظر في خيمة الضيوف حتى آتيه... ولا تقدموا له شيئًا.

مرت ساعات وانقضى نصف النهار ولم يأت رمَّاح للخيمة بعد! كان الأدميرال يطهى على نيرانٍ هادئة... حتى نضج لحمه واستوى، وغلى دمه وثار، وهمَّ أن يصرخ في الخادم الموكل بالضيافة، ولكنَّ مجيء رمَّاح أخيرًا باغته فكتم

صراخه وابتلعه، ورسم ابتسامة على وجهه زائفة، ثم قال معاتبًا بأدبٍ جمٍّ:

- طال انتظاري لحضوركم... صاحب السمو.

كأنه لم يسمع شيئًا، دلف رمَّاح لجوف الخيمة مزدانًا في ثوبه الملكي المزركش، متأنقًا كما هي العادة، تفوح منه روائح الملكية والرغد، ثم اتكأ على النمارق المدللة وقطف عنقود عنبٍ من آنية الفاكهة الذي دخل به الخادم توًّا، وبدأ بأكل حباته على مهلٍ وهو ينظر للأدميرال في صمت مريب، ثم لاعب لحيته المهذبة بدقة وهو يقول دون أن ينظر لعيني الأدميرال:

- أرسلنا في حضوركم بشكل عاجل... منذ أيام... ما تعريف الشكل العاجل في الأرض التي جئتنا منها؟!

ازدرد الأدميرال فيدل ريقه بصعوبة وأحس بشعورٍ لم يراوده أبدًا مذ كان في الأرض البعيدة مستضعفًا! لم يعهد تلك النبرة عل لسان أحدٍ من الأهواز قط، كان قسورة قطًّا أليفًا، وصخر على الرغم من أنه كان وغدًا ومعتوهًا فإنه كان بغير نابٍ يمزق أو مخلب يجرح، وكان رماح من بينهم ظلًّا، أو طيفًا لا يرى، ما كان يدري أن يشعر أمامه بتلك الرهبة...

أحس فيدل بأن ليس من الحكمة أن يرد السؤال، ولا حتى أن يستأنف في نفس الموضوع؛ فأدار دفة الكلام، وتساءل مستهجنًا بلطف زائد:

- كيف حال مليكنا؟ سرى إلى سمعي بأنه قد تفرغ للتعبد، واعتزل الملك تاركًا إياه في قبضتكم القوية الحكيمة...
- ما سمعته صحيح... لقد أحس بأن روحه الأليفة تنفر من مسؤوليات البلاد والعباد وتتوق لحضرة رب الفؤاد... وليس له من وريث بعد الشهيد صخر إلا رمَّاح!

فقال بتملق لم يَرَ منه من قبل:

- نِعم الوريث والخليفة... ولكن (وبنبرة ثعلبية تساءل) كان القدير يتعبد دومًا في خيمته المقدسة، وكنا نمر عليه ونطمئن... مالي أرى الخيمة خالية؟!
- إن القدير قسورة قد اعتزل الناس، واتخذ لنفسه في أعلى قمم الجبال سِردابًا خفيًّا يتعبد فيه بخشوع وإيمان، وهو حينما يأتي الأوان عائد لنا، يمتلك زمام الأمور والحكم مرة أخرى... وإلى أن يأتي ذلك الوقت فأنا خليفته المستأمن على البلاد وعلى شؤون العباد.

ثم بنفس النبرة الثعلبية قال وهو ينخر بنظره في أعين رمَّاح وقد بدت عيناه كأعين ثعبان:

- هلا عرفنا موقع السرداب، لنرسل بين الحين والحين من يطمئن على القدير ويمده بما يعينه على العبادة... من ماء وطعام!

كان داهية، وكان رمَّاح أدهى، ضحك ضحكة مجلجلة وهو يتساءل:

تريد أن تعرف موقع السرداب؟ حسنًا.

ثم بصوتٍ جهورٍ نادى خادم الخيمة وقال:

- يا ولد... مُرْ وزيرنا خيسيه أن يحضر فورًا.

ازدرد الأدميرال ريقه وأحس أن شيئًا ما يدبِّر من خلفه، وحاول أن يتراجع عن سؤاله، ولكن رمَّاح أشار إليه بأصبع منه فانحشرت الكلمات في جوفه، حتى أتى خيسيه وعندَ خصره سيف في غمده مستريح:

- يا وزير مملكتنا... يريد الأدميرال فيدل أن تقوده بنفسك نحو سرداب القدير قسورة.

هنا تيقن فيدل بأن موازين القوى قد اختلفت، او اختلَّت، وبأن ما تنعَّم به في عهد قسورة لن يجده في عهد ذاك الفتى، وبأن عليه الحذر أكثر... علم أن المُلك بيد فتيان طائشين، وبأن دماءه بخس لديهم، وبأن روحه في خطر شديد، وأحس

ببساط التمكن يسحب من تحت قدميه بخفة شديدة، وقبل أن يقبض خيسيه الواجم على ذراعه بعنف قال متوسلًا:

- لا... لا أريد زيارة سراديب ولا مغارات... كنت فقط أريد أن أطمئن على القدير... وقد اطمأننت...

استغرق رمَّاح في نوبة ضحك شديدة، وغمز خيسيه فتركه، ثم قال بنبرة الواثق المتحكم:

- اجلس يا فيدل...

وأشار لخيسيه فاقترب وجلس بجواره... ثم قال بلهجة الآمر الحاسم:

- لقد دقت طبول الحرب!



اللوحة الرابعة

النيل نجاشي...!

والعواف ع اللي بينده

قالها: «حي عـ المواعظ»

بس لاحظ...

الصمم سدّ الودان

أو كما قال المثل: «كل وقت وله أدان»

والزمن ده يابن والدي

مش زمن أحكام وعبرة

شدّ عوده وقال بنبرة

فيها حزن وضيق وشفقة

للي قاعد... واللي ماشي

«النيـل نجاشي»

من قصيدة «النيل نجاشي»

للكاتب: محمد البشير

(١)

لوراسيا تشتعل...

أُعلنت حالة الاستنفار العام، والطوارئ القصوى، ودقت طبول الحرب، ونكست أعلام البلاد، وارتفعت الرايات الحمراء منددة بغزوٍ ساحق لا محالة!

توقفت مناجم الذهب والنحاس، وأحيل كل العمال إلى مناجم الفحم ومصانع الأسلحة، وتم العمل بها على قدم وساق ليل نهار، لإنتاج أكبر قدر من الذخيرة والمدد، وتوقفت حركة القطارات بين المحطات في القرى والبلدان، وتم تكريس كافة القطارات لنقل الجنود والذخيرة صوب الجنوب، وتم حظر وجود العامة في المحطات، الأمر الذي بالطبع أشعل غيظ اللالوراسيين في الشمال وأثار اشمئزازهم...

أطلق الأهواز على المعركة «فتح الجنوب»، بينما أطلق الإلياسيون عليها «حرب الرفيقين» لكون طرفيها هم رفاق

الأمس الذين تكاتفوا مع الرب إلياس في رحلته المقدسة، ولكن شتان بين فرعين قد جمعهما يومًا غصن واحد!

في الجنوب...

علمت أعين الحواري المقدس وجواسيسه في غرب وشمال لوراسيا بأن الحرب قد أزفت، لكن لم يستطع تحديد توقيتها بالضبط؛ إذ لم يوضع لها من الأصل توقيت!

انتهى الإلياسيون من حفر الخندق العظيم... لم يكن حفره بالأمر الهين؛ إذ استنفذ الحفر من قواهم وطاقتهم ما استنفذ حتى سقط من بينهم موتى كثر، ولكنها الحرب المقدسة، والموت في سبيل الحواري المقدس، والرب الرحيم، فإن كان الثمن روح المرء فإنه لثمن بخس!

كان الخندق مميزًا؛ إذ كان على بعد أمتارٍ من الجدار العازل الحقير، وبين متاهات الأشجار الملتوية المضللة، يتوارى من بينهم لا تكاد تميزه عين لم تألفه من قبل، يمتد ويمتد عنيدًا صابرًا ذا اتساعٍ معقول حتى يتقابل ويتوازى بمدخل بوابة من البوابات الكالحات الثلاثة؛ إذ لم يحفر من أمام البوابات شيء، وظل الطريق على حاله؛ ولذلك حكمة؛ إذ كانت الفكرة أن يكون الخندق هو خط الدفاع الأخير والورقة الرابحة في حال اقتحم الأهواز الجنوب عابرين من البوابات، فإذا عبروا منها

اختنقوا من الخنادق وتزاحموا، وإن هم سقطوا في الخنادق فإنهم فريسة سهلة للرماة فوق الخمائل...

وكانت الخنادق متصلة بالأنفاق التي بُنيت على مدار السنوات للتحرر من حاجز الجدار والفرار نحو حرية لوراسيا، فكان التجار والمهربون يستخدمون تلك الأنفاق لتبادل السلع والمؤن سرًّا! وأُعدت تلك الأنفاق للحرب كوسيلة مخادعة!

كانت الخطة من وحي الفتى جاك - أوزريانو الثاني - وكانت الوحيدة بالرغم من سذاجتها وكثرة معايبها فلم يكن بدٌّ من تنفيذها، وعلى ما فيها من تعب ومشقة شديدة أرهقت الجنود واستنفذت من جهدهم، لم يتوقفوا عن العمل لحظة، ولم يسأموا من التدريب أبدًا، كانت أرواحهم مشحوذة بقوة الإيمان، كانوا مؤمنين بأن الرب إلياس سيشهد على شجاعتهم، وسيشاركهم بأسهم كما شاركهم أول مرة، وعمِل الحواري المقدس على المحافظة على تلك الروح الإيمانية مرتفعة، فكان إذا دخل الليل عليهم جمعهم في ملأ كبير، وتلا عليهم من آيات الرب الرحيم ما يقوي عزيمتهم أكثر ويحرضهم على القتال، ويتلوا عليهم ما يطفئ فيهم حب الدنيا وكراهية الموت، فقال لهم ذات مرة عاتبًا على لسان الرب:...

يا أبناء الرب الرحيم ومصطفيه ...

يا أخلاء إلياس الطاهر وشاهديه ...

إنها دنيا الغرور والخديعة، إنها حرب على نفس وضيعة

إنهم أعداء ربٍ وشريعة ...

إنها أيام لهوٍ فانية، وكروب دروب واهية، وخراب نفوسٍ خاوية ...

يقول لكم الرب الرحيم مذكرًا:

«ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر *كلا سوف تعلمون *ثم كلا سوف تعلمون *

كلا لو تعلمون علم اليقين * لترونَّ الجحيم * ثم لترونَّها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم ...»

ليرَ عدوكم منكم غِلظة لم يرها من غيركم، ليرَ عدوكم منكم حميَّة تحكى في الأساطير وعلى أنغام القيثارات، يقول لكم ربكم الرحيم:

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل، ترهبون بهِ عدو الله وعدوكم»

فيا أحباب الرب ...

لا تموتوا قبل أن يشهد الرب الرحيم إخلاصكم، لا تموتوا قبل أن يشهد الرب الرحيم على ثأركم ممن باع دماءه بثمن بخس، لا تموتوا قبل أن تثلج نيران صدوركم بدماء عدوكم وعدو ربكم الذي خانه من قبل ولم يوف له بالوعد،

ولا تخافوا يا أحباب إلياس الطاهر، إن الرب الرحيم سيقاتل معكم كما قاتلتم معه من قبل ...

يقول لكم ربكم الرحيم:

«فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى ...»

كان لوقع الآيات صدى شديد في نفوس الإلياسيين، ولخشوع الحواري زيان الصادق وابتهاله ولمعة عينيه بالدموع أثناء موعظته أثرها النافع، وكان للفكرة العظيمة التي ابتدعها لهم الحواري - بوحي من الرب - فضل كبير للحفاظ على تلك الهالة المقدسة من الإيمان تحيط بهم في كل وقت؛ إذ تقرر إنشاء جوقة موسيقية تتألف من يافعات الجنوب الناهدات، يحملن قيثارات ونايات وطبول، وينشدن في عذوبة وملائكية ألحان إلياس الطاهر وأناشيد الرفاق الجدد...

فكانت الأناشيد ترن في آذانهم بشكل متواصل حتى تردد صداها العذب في الأعماق المترسخةً بمحبة الرب الرحيم

والحواري المقدس، فصارت الأناشيد دافعًا قويًّا للعمل وتحمل المشقة والسعي نحو المزيد.

وفي الغرب...

علم الشعب الهوزي بأن القدير قسورة قد لجأ إلى معبوده في سردابٍ خفي في إحدى مغارات الجبل الأبيض، لجأ إليه ليستعين به على مصيبته التي ألمَّت به فانطفأ من ظلمتها مصباح صدره ونور بصيرته، فكان لا بد من عزلة، ولا مناص من خلوة، فارتحل مودعًا، وتركهم أمانة بين يدي وريثه اليافع رمَّاح ووزيره المخلص خيسيه، وترك بين أيديهم جميعًا لوراسيا أمانة سيحاسبهم عليها أشد حسابٍ إن هم أضاعوها أو فرطوا فيها...

هكذا آمن الناس وصدَّقوا حين وقف رمَّاح بين ظهرانيهم فجأة ذات صباح، مرفلًا في ثوب جديد غير ثياب الأهواز، يرتدي بذلة عسكرية كالتي يرتديها الأدميرال فيدل غير أنها سوداء، لها شرائط ذهبية أعلى الكتفين، تتدلى باعتزاز ناحية صدره، وبالرغم من نفور الناس من خروج رمَّاح عن زي الأهواز المعهود فإنه بدا لهم في ثوبه أكثر نضجًا وجاذبية، وأكثر فروسية وشجاعة، وحين صرخ فيهم صرخته الشهيرة كي يعلن لهم سطوته وشراسة طباعه؛ ثارت حماستهم وهتفوا من خلفه بالثأر الحتمي للشهيد صخر!

تولى المخلص خيسيه زمام الحملة العسكرية على الجنوب وقادها، فأمر أول ما أمر بجمع رجال الأهواز ومحاربيهم، وأعطى كل محارب بندقية وحزامين من الرصاص يتقاطعان حول الصدر، وشرح لهم بالتفصيل كيف ستسير بهم الأمور، وكيف سيقضوا على ذلك الضلع الأعوج، وكيف ستكون لوراسيا من بعد حربهم المجيدة وفتحهم المبين ممهدة للأهواز ومطية لهم!

وأما الشمال، وما أدراكم ما الشمال...

كان الأدميرال يشتعل غيظًا وخوفًا في الوقت نفسه، امتطى ريحانة في غير عادة وبطش بها، كان حقده الدفين جليًّا لها، وخوفه الوضَّاح تشي به ارتعاشة أصابعه، وفي اهتزاز صوته خير دليل على أنه تفاجأ بما يدور من حوله، يبدو أن التعنيف لم يرق له تلك المرة؛ إذ كان مباغتًا، مفاجئًا، ومخيفًا، فكانت من تحته تصرخ، وكان ينهال عليها من كل اتجاه، حتى تحول الأمر من ممارسة عنيفة للجنس إلى ضرب مبرح، انهال على رأسها ووجهها بكلتا يديه، وكانت كلما صرخت مستنجدة زاد عنفه وبطشه، كأنما يستشعر قوته بضعفها وصراخها، كأن في توسلاتها له راحة دفينة تسكت صوتًا يهمس في أعماقه بالضعف والجبن والخضوع والخسة، كانت دموعها الغزيرة تطفئ شعلة في صدره لاح بريقها في كلتا عينيه! وظل الأدميرال على تلك الحالة حتى أغشي على ريحانة من هول ما لاقت،

والغريب... أنه لم يفزع حين انعدمت فجأة مقاومتها، وحين انخمد صراخها، لم يطرف له جفن حين رآها كالجثث هامدة، وكأنها نتيجة قد تمناها!

في الصباح أصدر الأدميرال أمره بجمع قوات الشرطة جميعهم، والتسلح بكافة ما لديهم من سلاح وذخيرة والمجانيق العملاقة وما يلزمها من حجارة، والاستعداد التام لمآزرة محاربي الأهواز في الحملة العسكرية على الجنوب...

وفي الموعد الذي أشار عليه خيسيه، في غياهب ليل مظلم وكئيب، أتى القطار المنتظر من الشمال يحمل عناصر الشرطة في كل العربات عدا الأخيرة كانت مخزنًا للذخيرة، ومن خلفه أتى قطار آخر فارغًا، استقله خيسيه ومحاربيه الأشاوس بعدما خصصوا العربة الأخيرة أيضًا لصناديق الذخيرة...

توقف القطاران عند المحطة قبل الأخيرة، على مسافة من الجنوب لا تفضح أصواتهم ولا ترهقهم بالمسير، ومن هناك كانت العربات الخشبية الضخمة ذات الخيول تجرها في انتظارهم؛ لنقلهم حتى الجدار العازل...

وكان خيسيه قد أمر بأن يتم تكليف نفرٌ من الجنود لنقل الذخيرة من القطار إلى أرض المعركة، ونفرٌ آخرون للمؤن، وآخرون للإبلاغ عن حاجتهم للذخيرة إن أوشكت على النفاد، وكان الأدميرال فيدل في الشمال يشرف على المصانع

والمناجم إشرافًا شخصيًّا لم يُعهد عنه من قبل، ويتولى بنفسه مهمة شحن القطارات بالذخائر والسلاح والمؤن ومدِّ المحاربين بالمدد...

وهكذا كانت الدولة الهوزية بأكملها قد كثفت تركيزها من أجل معركة الجنوب...

ومع أول نسائم الفجر، وأول بشريات الصباح أطلقت أول رصاصة...

وبدأت المعركة!



(٢)

أغنيات إلياسين

«عند أبواب المدينة...

ينتهي النسيان!

وأنا والليل... أنا والقرصان

والمحبون على أرصفة البحر بحار من سكينة...

تركوا الشارع يبكي، تركوا الأرض الحزينة

والمصابيح الحزينة...

أبحروا...

أبحروا...

أبحروا، صاروا سفينة!

أترى نحن «هربنا»

أم تراها هربت فينا المدينة؟!

يا حبيبي... كلُّ ما في الصمت نادى!»[1]

كان يرقب غناءها، كانت تتوهج، ولم يكن يدري أنها لحظت وجوده، وبالرغم من ذلك فلم تتوقف عن الغناء، وهي الصامتة طوال الوقت أمامه، الغامضة حد النفور، حد الوحشة والخشية، عكس أختها التي تمنى لو تصمت قليلاً، إنهما توأم، ولكنهما كالشرق والغرب، لا يجمعهما خُلُق ولا حتى خصلة واحدة!

لمحت طيفه اللطيف على الأرض الخشبية للمسرح الهزيل، طيفًا رقيقًا كصاحبه، يتمايل بين خشبة وأخرى وينكسر في خجل، ثم يتسمَّر في مكانه، حينما التقطت الأذنان ذات الهيئة البشرية لحنًا مسَّه، وصوتًا حرَّك فيه ساكنًا، وكلمات لها في الأنفاس صدى، تخللته بإحساسها الخلاب النقي، وعبرت معه بصوتها كل الدروب، وأوقفته عند بابٍ جاهد أن يغلقه، وظل مواربًا، اقترب صوتها الحنون من الباب ففتحه على مصراعيه، وقال له الصوت بما يحمله من عبق الذكريات وبما أيقظ من مشاعر: ادخل... فدخل مسالمًا مستسلمًا، ورآها من جديد، تلك التي قَيَّدته بحسنها وبرقة

(1) لقائلها ولقائلها السلام.

يديها الندية، دولسين الجميلة، تتزين في ثوبٍ رقيق مثل وجنتيها الناعمتين، وتتأرجح فوق أرجوحة من الورد ببطء ناعسٍ كعينيها السوداوين، تبتسم ابتسامتها المعهودة ذات الأثر المعهود على قلبه الذي كاد يذوب من فرط اشتياقه لها...

«والمحبون على أرصفة البحر»

تتردد الكلمات في أذنيه فينتشي، يشتمُّ في كل حرف عبيرها الفوَّاح، وينهل مع كل نغمة عذبة من جمالها الأخَّاذ...

وأما الأخرى، ذات الصوت الساحر، والأغنية الرقيقة، تلك التي لا تبادله أي مودة أو إحسان، جلفة الطباع، منغلقة، معزولة عنه كأنهما الليل والنهار، تلك التي تضن عليه حتى بالابتسامة أثناء وجوده، والتي لمحته في كالوس المسرح الصغير ينصت لغنائها في خشوع، وقرأت في عينيه الرماديتين آيات الغرام، وعلى عكس ما هو كائن... ظنَّت أن الغرام لها، ولم تدرِ أن الملامح لا تشي بكل ما في الأعماق من أسرار، فمسَّ ذاك الخاطر خاطرًا قد دار بذهنها ذات مرة مستحيلًا فاستهجنته وصرفته، ولكنه الآن بدا لها واردًا ممكنًا، بدا لها مستحسنًا، بدا لها رائقًا جميلًا، لامس الشرود في الأعين

الرمادية شوقًا في الصوت الرقيق، فتلجلج الصوت واختل اتزانه، وارتجفت الأطراف مما بدا لها؛ فخرج لها حينما أيقن بأنها أحست بوجوده:

- سأخرج حالًا...
- لا (قالتها باندفاع كأنما تعاجله، ثم بروية)... ابقَ قليلًا.

ابتسم إلياسين واقترب منها، كانت تجلس في وسط المسرح الخشبي العتيق، تحت دائرة الضوء بالضبط، ومن حولها الظلام المدلهم يلتهم الجميع، تتوهج في فستانها الفيروزي البسيط، ولأول مرة رأى أعينها الفيروزية مزدانة بالكحل! كانت ساحرة، جميلة، فتَّانة... رزان اسمها، ومن اسمها جاءت طباعها الحامية الصارمة، لا تضحك، لا تبتسم، لا تبادر بالكلام، لا تبادر بالسلام، لا تبالي بالأعين الرمادية ولا بالصوت الدافئ الحنون، لا يثيرها إن كان محدثها أغنى الأغنياء أو أشجع الشجعان، لا يثيرها من كل ذلك شيء، وإن سألتموني عن الذي يثير رزان ويخطف ناظريها، فلن أجيبكم؛ إذ إنني في الأصل لا أعلم، قد احتار الرجال في فهم نساء الإنس... أفأقدر أنا على فهم نساء ذاك الصنف من المخلوقات؟!

وبالرغم من حرصها على صرامة التعامل والجدية المفرطة، فإنها رغمًا عنها قد راقها الصوت الحنون، ووقعت

في سحر الأعين الرمادية... ليس لأنهما أعين رمادية وحسب، فهي ليست بتلك السطحية والسذاجة، ولكنها قرأت خلفهما أغنياتٍ حزينة، وقصائد مبتورة، وأحست أن الصوت الدافئ ليس دافئًا... بل متهدجًا يميل للبكاء، هو ليس غناءً، بل نواحًا راقيًا!

وأما إلياسين فأثارته بغموضها من اللحظة الأولى، وأحس في البدء ببعض النفور لغلظة المعاملة، ثم بالتدريج التمس فيها شيئًا من الوداعة والبراءة، وأحس بأنها تحتمي خلف تلك الطبقة من الصرامة، كقطة أليفة تقلد صوت فهد!

- أعجبتني كثيرًا تلك الأغنية...

ابتسمت، ولم تعقب... فتساءل:

- من كتبها... برَّاق؟!
- بل أنا كتبتها...

قالتها بحماسةٍ كمن يريد إثارة إعجاب محدثه، وقرأ إلياسين ذلك في صوتها وبريق عينيها، فأبدى اندهاشه الشديد باتساع عينيه وفغر فاه! ثم صفق بحرارة لها وهو يحييها بشدة؛ فابتسمت رزان ابتسامة لم يَرَ إلياسين مثلها قط! ابتسامة أنارت ما بين المشرق والمغرب... ابتسامة كتلك التي تبتسم تلقائيًّا حين تراها لنقائها ورقتها، كابتسامة الأطفال العفوية، وقال

لها بتلقائية صادقة وهادئة:

- إن بابتسامتك حياة!

ابتسمت قليلًا، ثم قالت بشيء من الجدية:

- ما أنت إلا مجامل.

فعاجلها:

- بل صريح...
- إن لجِنان نفس تلك الابتسامة، إنها نسخة مني، لها نفس ملامحي وابتسامتي، وهي تضحك ليل نهار، ولم أسمعك مرة تثني على ابتسامتها كما تفعل الآن!

كانت حامية بعض الشيء، فأُخذ منها قليلًا، ثم بهدوء قال باسمًا:

- لأن في عينيكِ بريق نقاءٍ ليس بعينها!

كانت الكلمة على قلبها ككوز ماء باردٍ صُبَّ على معدنٍ ملتهب... فانطفأ، وخمد لهيبه، ونعم بالسلام والهدوء، كما نعِم قلبها ببعض السكينة، ودون أن تشعر رزان... مالت إليه، بقلبها وبعقلها وبذهنها، ثم تساءلت:

- مِمَّا جئتنا هاربًا يا إلياسين؟

اقترب منها إلياسين، وجلسا ظهرًا إلى ظهر تحت دائرة

الضوء الهزيلة، وتأمل في الظلام حوله وهو يجيب...

- لم آتِ هاربًا... بل باحثًا.
- عَمَّ تبحث؟
- عن نفسي... وعن راحتي، وعن أنسي... عن السكينة يا رزان أبحث!
- أحببت من قبل؟

باغته السؤال، وآلمه... فقال:

- جئت أبحث عنه...

أحس إلياسين بقلبها ودقات طبوله تدق جدار ظهره من شدتها، وأحست رزان بأن كلماته قد اخترقت كل حدودها وجدران حمايتها الخاوية، وأحست بأنها في أشد الحاجة إليه، فتسللت بأناملها نحو يديه... فتلامسا بلطف، وتخللت بأصابعها أصابعه، وارتخت الأنامل في عناقٍ حنون، وأحس إلياسين بالرهبة، وأحست رزان بالأمان، وبأن الكون على اتساعه ضيق، فقامت فجأة من مجلسها وطرقعت بأصابعها في الهواء، فأضاء المسرح من كل مكان بألوان البهرجة والزينة والفرح، وطرقعت بأصابعها في الهواء مرة أخرى فتبدل ثيابها الفيروزي المتواضع بآخر أزرق كموج البحر ساحر، وطرقعت ثالثة فإذا بإلياسين يتزين في عباءة حريرية سوداء لم تُخلق إلا له، ولمعت عيناه الرماديتان بابتسامة فجذبت

رزان نحوه بشوق مكبوت، فتعانقا، ودارت بهم الأرض وهما يتراقصان على أنغامٍ أتت من كل اتجاه، واستأنفت رزان غناءها... لحبيبها...

«يا حبيبي... كل ما في الصمت نادى!

ومضى الموج وعادَ

وأنا في موج عينيك شِراع يتهادى

يا حبيبي... سقط الليل عليَّ وتمادى

كاد أن يجعلني الليل سوادًا...!

يا حبيبي... كل ما في الصمت... نادى!»

***

في بيت الرفيق عيينة، كان العشاء الأخير...

ليلًا تحت سماءٍ بلا قمر تسلل الرفاق واحدًا تلو آخر نحو بيت الرفيق عيينة، من مناجم النحاس والذهب، ومن مناجم الفحم ومصانع السلاح، ومن محطات السكك الحديد ومن كل فج عميق أتوا ليشهدوا منافع لهم، كالغيث كان اللقاء، قطرة تلو قطرة حتى سال الوادي، وقبل أن يوشك الجمع على الاكتمال، وبعدما ازدحم الكوخ الخشبي عن آخره أتى الحسين متشحًا بوشاحه الأسود المميز وعينيه الكحيلتين...

ولج بين الجمع كالنبي بين التابعين، يحيونه ويمجدونه ويقدسون خطاه، وهو في أوج العظمة لم يزل متواضعًا رفيقًا بهم، يصافح هذا، ويداعب هذا، ويمازح آخر، حتى توسطهم، واقترب من عيينة فحياه التحية المتعارف عليها رافعًا سبابته والوسطى وخنصره نحو حاجبه الأيمن فأجابه الحسين بمثلها، ثم أحنى ظهره وقال معلنًا الولاء: نحن غربان الحسين.

ارتقى الحسين المنضدة الخشبية في وسط الردهة حتى يراه الجميع، ثم أشار إليهم بالتحية المعهودة في بادئ الأمر محيِّيًا الرفاق، فبادلوه التحية متحمسين وهتفوا بحرارة: نحن غربان الحسين... نحن غربان الحسين!

ضم الحسين قبضته فعمَّ الصمت الجميع، وجلسوا له منصتين، خاشعين كأن على رؤوسهم الطير...

خطايانا بلا غفران...

وممن نسأل الغفران؟!

وكلٌ يسأل الغفران!

خطايانا على أكتافنا صلبان...

ولكن فيم أذنبنا؟!

لماذا دونما ذنبٍ تعذبنا...[١]

تمتم أحد الرفاق بجزع وفي ملامحه بؤس مطبوع مع قسوة الأيام:

- تعذبنا... تعذبنا... تعذبنا!

وهتف آخر للحسين:

- سامونا سوء العذاب، ذبحوا حريتنا، واستحيوا كرامتنا... فأين الخلاص يا حسين... وكيف الخلاص؟!

قال الحُسين:

من أعجب الأشياء - يا بيرون - في كل عصر...

أن الذين يولولون على القتيل

هم قاتلوه!

قتلوا المسيح وعسكروا حول الصليب...

يبكون من أجل «المخلص»!

يا ليت كانوا خلصوه![٢]

(1) نجيب سرور لزوم ما يلزم.

(2)نجيب سرور لزوم ما يلزم.

قال عيينة:

- غاب عنَّا من عاون الأهواز وشرطة الشمال في حرب فتح الجنوب، نقلوا الذخائر والجنود، وتعاونوا معهم ونسوا الميثاق والعهود!

هنا ثار الجمع غضوبًا مزمجرًا، واختلف الرفاق ما بين آسفٍ وبين لاعنٍ وبين ملتمسٍ لعذر، بصق أحدهم على الأرض وقال:

- يا للتماسيح الخبيثة!

وعقب آخر حانقًا...

- إن مسَّنا ضرٌ قالوا لم نكن معهم، وإنا جاءنا النصر قالوا هتفنا مثلكم ونحن رفاقكم... يا للذئاب!

وظلت عبارات الكراهية والغيظ تسري حتى قال لهم الحسين:

«أنا لست أخشى الذئب ذئبًا إنما، أخشاه في جلد الحمل...

رعبي عدو لا أراه

أو لا أراه... إلا إذا فات الأوان!»[1]

---

(1) نجيب سرور لزوم ما يلزم.

- لا تكرهوا إخوانكم... إنهم منا ونحن منهم، ولعل جذوة الغضب بجوفهم لم تشتعل، أو أنها خمدت من صقيع الخوف ورهبة المواجهة، غدًا يوقد لهيبنا جذوتهم، ويدفئ جمعنا صقيع وحدتهم، وتذهب كثرتنا رهبتهم، غدًا نقول كلمتنا ويرددها إخوتنا في كل مكان...

التفَّ الحُسين ومن حوله غربانه حول الطعام، خبز وزيتون وحساء دافئ وخمر الشعير، أكلوا وشربوا وتضاحكوا وكأنما لم يبقَ في الدنيا غد يحملون همَّه ويذيقهم عناء ما يخفيه...

وضع لهم الحُسين خطتهم، كيف ستبدأ ثورتهم، ومنهجهم الذي سيسيرون عليه ومطالبهم المشروعة وكل شيء، ظل الحسين يحدثهم حتى انتصف الليل، وقبل أن ينفض الجمع الغفير المتأهب لغده المنشود، نظر إليهم الحسين نظرة أخيرة، أمعن النظر في كأس نبيذه الذي أوشك على الانتهاء، ثم ارتشف ما تبقى من قطراتٍ وتأمل الوجوه من حوله في هدوء وسكينة...

تناقلت الأنظار من عينٍ لأخرى، وتمعن الجميعُ في الجميع، ودار حوارٌ لم تنطق به الألسن، ولم تلتقطه الآذان، بل كان

من سريرة نفسٍ إلى أخرى، ومن ذهن الحسين بدأ الحوار، وعيونهم الصامتة تأتيه بكل جواب!

غدًا أكون على الصليب
أنا العريس...
= نفديك بالدم يا مُعلم... بالنفوس...
لا تكذبوا، فلسوف يسلمني الذي منكم يشاركني الغموس!
= أأنا أخونك؟!
أنت قلت!
= وأنا؟!
ستنكرني ثلاثًا قبلما الديك يصيح...
= إنا لنقسم يا مسيح...!
لا تقسموا...
فغدًا أكون على الصليب...
وغدًا لناظره قريب![1]



(1)نجيب سرور - لزوم ما يلزم.

(٤)

أغنيات إلياسين

ليلة العرض المهيب...

ازدحم الناس، والتف الحضور حول العربة الخشبية الهزيلة يرقبون في حماس خرافي ظهور القزم المضحك وهو يتهادى فوق خشب المسرح المنخور، لتصدر عن خطواته صريرًا ملحوظًا برغم الطبول في الخلفية، وتبدأ شقلباته في الهواء، وحركاته البهلوانية تجذب الأنظار أكثر، وتخطف أعين الصبية والنساء، وبدأ الحماس والتشويق يتملكهم أكثر كلما حدثهم القزم عن العرض السحري الخاص الذي يقدمه الليلة الساحر العظيم برَّاق وفرقته الخاصة...

حمل القزم قبعة رأسه بين يديه وبدأ في جولته المعتادة بين سيقان الحضور يبيع لهم التذاكر مقابل عملاتهم المعدنية، وبدأت الصفوف تتكون، والانتظار يتملكهم والتشويق

يسيطر عليهم، ثم بدأت الأعداد المهولة في دخول الغرفة المغلقة واحدًا تلو الآخر، لا يدخل أحد إلا بعدما ينتهي مَن في الغرفة من تجربته التي لا تستغرق أكثر من خمس دقائق، ولكنها تمر عليه كأنها نهار وليلة!

وأثناء الانتظار كان القزم وجِنان يعملان على ترفيههم وتسليتهم كي لا يملوا ويرحلوا، وبالداخل كان برَّاق يدير العرض بأكمله ويرسم تفاصيله من مخيلته الواسعة، وكان إلياسين ورزان يتبادلان الأدوار تِباعًا حسب نوع المشاهد إن رجلًا شاركته رزان، وإن امرأة كان إلياسين رفيقها!

ما هو العرض...؟

كانت الغرفة الصغيرة التي يلجها صاحب التذكرة والحماس يلتهمه لا تزيد عن ردهة صغيرة مظلمة، تنقلك مباشرة نحو غرفة تشبه متاهات المرايا، فتتناقلك المنعطفات وانعكاساتك اللانهائية على المرايا حتى تجد نفسك فجأة في أرض مهولة واسعة وجميلة...

لا شك في أن كل ذلك عبثٌ وضربٌ من ضروب خيال برَّاق العجوز، ولكن ما أدراهم بذلك، إن الممتع في الأحلام هو أنك لا تدري أنها أحلام على كل حال؛ ولهذا يندفع المشاهد بكل حماس لاكتشاف ماهية الأرض الجميلة التي تخطوها قدماه لأول مرة بالرغم من أنه ليل نهار يخطو فوق ترابها... نعم... إنها أخطاب! ولكنها أخطاب غير التي عاشوا في

أكواخها المتهالكة، وشربوا من نيلها الملوث، وخطوا فوق شوارعها المكتظة بالروث والوحل...

إنها أخطاب أخرى...

إنها الفردوس...

الطرقات الممهدة بالبلاط الملون تخطف الأنظار بالرغم من اصطفاف الأكواخ الرائقة على جانبيها في نظام لم تعهده أخطاب من قبل، وقبالة كل كوخ ثمة شجرة لها ثمار مميزة، شهية حتى قبل استوائها، والصبية في الشوارع يركضون في سعادة ومرح لا مثيل له وهم يلعبون بملابس لن تتسخ أبدًا؛ لأنه ليس ثمة روث أو وحل يصيبهم بقذره بعد الآن، وذلك الرجل المميز الذي يمر أمام كل بيت وعلى وجهه ابتسامة ودودة يلقي التحية على الناس وهم يردونها في ودٍّ شديد، يحمل على ظهره قربة رطبة على ما يبدو أنها تحمل في جوفها ماءً...

وعلى مرمى البصر، بعيدًا بعيدًا، ثمة جمع غفير من الناس، يهرع نحوهم المشاهد المتشوق لمعرفة ما سيراه، فإذا به في مكان مألوف، وبرغم ألفته غريب! يتساءل في ذهول وعصر للذاكرة:

- ألم يكن هنا مجرى النيل؟!

فيجيبه أحد الوقوف بلهجة ساخرة:

- النيل! من أي عصر قديم أتيت يا هذا!

فيتعجب المشاهد في البداية، ثم يضحك من نفسه ويسألها: نعم... من أي عصر قديم أتيت يا أنا... انظر حولك جيدًا... أمعن النظر وتأمل... إنها أخطاب المستقبل... التقدم... والغد السعيد، لا مكان فيها لمجرى ماء ملوث!

ثم تحدث تلك الجلبة الشديدة وسط الجمع الغفير، وصياح الشباب، وهتافات الفتيات بالإعجاب والبطولة، ويبدأ موكب الوالي في الظهور، الحرس في كل مكان، والوالي في المنتصف من بينهم يتفادى في تواضع شديد أذرعهم التي شكلت حاجزًا بينه وبين الجماهير الغفيرة العاشقة لطلته البهية، ويبدأ في إلقاء قبلاته في الهواء هنا وهناك، والإشارة لهذا وذاك، في تواضع ومحبة شديدة منه لشعبه المحبوب، ثم يزدحم المشهد بتلك الفرقة الغنائية الطريفة ذات الملابس الزاهية المضحكة، التي تحمل جميع الآلات الموسيقية، ويتزعمها ذاك الفتى رمادي الأعين ذو الصوت المليح وهو يغني للوالي بكل محبة وبهجة:

حيلته قليلة وشيلته تقيله

ولا مره سمعنا المواويل

قال خدَّامكم إيدي فإيدكم

تسلم ياللي ردمت النيل

خلصتـــنا من كــل أذاه

علشان كده إحنا اخترناه

واتفرج ياللي عليك غيمة

كله براءة، شهامة، وعزة

لما غِرقنا وقولنا الحقنا

مرملناش عوامة بـ وزة

شمَّر كمُّه وسمَّى الله...

علشان كده إحنا اخترناه

قالنا أردم؟ قولنا فداك

وابني مصانع هنا وهناك

هيفيدنا بإيه النيل يعني؟

عايزين فندق، كازينو، تِراك

وجرى وجرَّى الشعب وراه...

وعلشان كده إحنا اختارناه[1]

---

(1)محاكاة لأوبريت «اخترناه» الشهير للمؤلف محمد البشير.

كانت أغنية ظريفة مبهجة، وتفاعل معها الحاضرون بشدة، وأبدى الوالي إعجابه الشديد بألحانها المرحة وكلماتها الطريفة المعبرة، بل إنه قام بالتصفيق أيضًا مع الجماهير بعدما انتهى رمادي الأعين من غنائها...

وفي تلك الأثناء تظهر تلك اليافعة ذات الخصر المذيب للعقل، والنهد المصلِّب لكل شرايين الجسم، والأعين الفيروزية الساحرة كالمجرات، تصطحب صاحبنا في جولة فيتبعها وهو مخدر تمامًا، مسحور بآلة الجمال التي تقوده من كلتا يديه بدلال ومرح، ثم تأخذه في جولة إلى أن تقف به أمام كوخ بسيط ولكنه غاية في الجمال، تقف على عتبته وتثني ركبتيها وهي تبتسم وتناديه، فيسألها...

- كوخ من؟
- كوخنا الجميل يا حبيبي...
- حبيبـ... أنا؟!

فتضحك وتعود نحوه في دلال ومرح، تقوده نحو باب الكوخ الخشبي، وتدفعه نحو الباب ضاحكة فيستجيب لها ويدخل...

وما إن يدخل الكوخ حتى يجد نفسه في عالم الواقع، حيث أخطاب تتألق في روثها ووحلها، والنساء ذوات التنانير

المتواضعة البالية، والأطفال أشباه أطفال المجاعات، وعشوائية الشوارع ما زالت باقية، والسوس يرتع في خشب الأكواخ يأكل منها هنيئًا مريئا، والنيل... ذلك الذي يلقي عليهم بكل وباء وآخر وما زال باقيًا في مكانه مذ خُلقت الأرض!

ورغم كل ذلك تصيبه نشوة عارمة، وشعور طاغٍ بالبهجة والسعادة، وأعين المنتظرين في الطابور تكاد تأكله وهي تنظر إلى ملامحه المفعمة بالحيوية والحماس وترسم في ذهنها ما عساه رأى؟ أي سحر هذا الذي أتانا به صاحب تلك العربة الصغيرة من آخر الكون؟!

ويتآكل الطابور واحدًا فواحدًا حتى ينتهي العرض، وتنتهي الليلة العارمة المكتظة بالحضور، ويعود كلٌ إلى بيته وقد رسخت في ذهنه فكرة واحدة:

ردم النيل... أول خطوة نحو أخطاب المستقبل!

***

انتقلت الفكرة الملعونة من عقل لعقل، وعلى لسان الجميع سرت كتمتماتٍ في بادئ الأمر يتهامسون بها، ثم عيانًا جهارًا وفي كل مكان، في الحانات والخمارات والمناجم ودور العبادة

وفوق أسطح الأكواخ وعلى النواصي! أصبحت الفكرة رأيًا عامًّا يتناقش فيه حتى الصبية المتسخون بالوحل... يتناوشون ويتصارعون أيهم يبني له بنيانًا أكبر على الأرض التي ستحل محل النيل بعد ردمه!

وبطبيعة الحال... وصلت الفكرة التي شغلت أذهان الناس ولاقت استحسانهم إلى العم نَجم، واليوم يوم أحد، والحانة مكتظة أخيرًا، والسكارى مرصصون فوق مقاعدهم المتهالكة يعتصرون كؤوس الجعة حتى آخر قطرة فيها، ويدور بينهم الحوار مخلوطًا بمسحوق الأحلام الوردي، فتراهم يرسمون أخطاب التي يحلمون بها، والتي وعدتهم أوهام العربة السحرية أنها ستأتي فقط بعد ردم النيل!

انطفأت الأنوار كالعادة عدا تلك الدائرة في وسط المسرح، لم يلحظ السكارى وجود دولسين الجميلة في خلفية المسرح إلا بعدما صدرت عن طبلها دقات إيقاعه لينضبط مع الألحان القيثارية التي بدأ العم نجم تحت دائرة الضوء بعزفها بكل روية وتمهل وهو لا يكاد ينظر لأحد...

الطيور على شطّه صابرة عـــا لآلآم والكلام

واللي خايف مالجبابرة يدعي رحمة عالسلام

واللي يرمي همّه بذرة   والبـــــذور تطرح غرام

والحمام داير يغني   والغنى مهواش حرام![1]

التفت نحوه السكارى واستفاقوا من إغماءتهم قليلًا، جذبهم اسم الغنوة الجديدة التي يعزفها العم نجم لأول مرة «النيل... نجاشي»، وتساءلوا، ماذا الآن أيها العجوز الطيب؟! أحتى ذلك الحلم ممنوع ومحرَّم علينا؟! ما بالك تغني للنيل كأنه من أنهار الجنة؟! إنه ملوث على أية حال، يستحم فيه الناس والأنعام، وترمي المصانع فيه مخلفاتهم ويغوط الناس فيه ويتبولوا! فما المقدس فيه حتى تعاند الطوفان الساري بقوة بين الناس بالتخلص منه وردمه!

وأكمل نجم بصوتٍ حنون:

السمر فوق الضفاف   بالعفاف يحلى الكلام

فالمنام من فيضه أشرب   خضَّروا سنيني العجاف

والعواف عاللي بينده قالها: حي ع المواعظ!

ولم يكمل نَجم أغنيته الجديدة إلا وصوت في آخر الحانة يصرخ فيه بكل حزم وعنف: «هسسس... بسسس»!

(1)من قصيدة: النيل نجاشي للكاتب: محمد البشير.

انتفض السكارى من سكرهم، واضطربت ملامح نَجم وأصابه وَجم مخيف وتربص يستنزف الأعصاب... وظهر من غياهب الكون الفسيح ذاك الجسد الممتلئ حتى تدلى من كل جانب بالدهون، والشارب الذي يقف عليه الطير دون عناء أو مجهود، والأعين الجاحظة الناطقة بكل شر وحقد، وتلك الشارات على كتفيه تنطق دون كلام بأن صاحبها «شاويش» الوالي، أي محصن وله كلمة ولا بد مسموعة، وتلك الهراوة التي لا توحي إلا بالشر المحتم!

احتمى السكارى بكؤوسهم فتجرعوا مرارتها مسرعين، ثم تقوقعوا داخل جحور نفوسهم الجبانة، وتركوا العم نجم يواجه عاقبته وحده... اقترب الشاويش بخطى لها على الأرض الخشبية وقع وصدى يسمع، ثم صرخ في نَجم وقال:

- ألم تَنْهَكَ الحكومة عن تلك الأغاني!

ازدرد العجوز ريقه وقال بشجاعة متوارية في ثوب لطف:

- النيل يا حضرة الشاويش سيردم ونعطش للأبد!
- أنت ممنوع من الغناء إلى الأبد... نفذ!

بُهت نجم من القرار الصادر في الحال والتوِّ، ولما لمح الشاويش سؤال نَجم في عينيه استخرج من سترته العسكرية برقية عتيقة وقال:

- يحق بموجب قانون الطوارئ الذي أصدره والينا حامي أخطاب الحبيبة أن يصدر صاحب البرقية ما يراه من أوامر تحافظ على الأمن العام وأمان أبناء أخطاب الشرفاء... دام مجدها وطال حكم واليها.

ثم كشف عن أنيابه من تحت غابة الشارب الكثيف وقال ضاحكًا:

- إليَّ بتلك القيثارة...

تسارعت نبضات قلب نجم حتى كاد ينخلع... نظر نظرة نحو السكارى، فإذا البرودة التي تملكت منهم قد تجمَّدت بفعلها كؤوس النبيذ... وتحركت من الظلمات في خلفية المسرح دولسين الغاضبة تنهر الشاويش في شجاعة لم يعهد مثلها، وتطالبه أن يتوقف عن خذلانه لأخطاب، فداهما بصفعة أردتها على الأرض دامية الأنف والشفتين حتى أشفق عليها كل من بالحانة...

واقترب الشاويش الضاحك من العم نجم البائس اليابس في محله، أصابه جمود أعاقه عن أية حركة... وانتزع الشاويش القيثارة بكل عنف من أذرع العجوز حتى كاد أن يطيح به، وهوى بها على أرض الحانة عدة مراتٍ حتى تهشمت وتفتت

إلى مائة قطعة، واقترب الشاويش أكثر من العم نَجم بخطى كالحة رتيبة، وبكل استخفاف نزع عن العجوز قبعته، وألقى بها على الأرض، ثم صفعه عدة صفعات خفيفاتٍ على خده محذرًا...

وبكل هدوء التفت الشاويش... ورحل، رحل مخلفًا وراءه كرامة عجوز مبعثرة على أرض لينة، وفتاة يافعة قهرتها يد البطش والطغيان، وسكارى عاجزون داهمتهم حقيقة عجزهم التي هربوا منها مرارًا بالسكر والطرق على الصخور!

رحل الشاويش بكل هدوء بعدما أصدر حكمه النافذ بكل ثقة وأمان...

رحل آمنًا، وفي جيب سترته يحمل وثيقة شرعية كل أفعاله وقراراته وأوامره ونواهيه... برقية كُتب في أعلاها... «بموجب الطوارئ قال مولانا...»[1].

***

من المناجم، ومن المصانع، ومن الحقول بدء الزحف المقدس...

---

(1) تم كتابة هذا المشهد بوحي من القصيدة الخالدة «الخواجة لامبو» للخال: عبد الرحمن الأبنودي.

على أرصفة المحطات!

أتى العمَّال المعارضون، الرافضون، الناقمون، الغاضبون...

على أرصفة المحطات!

يتشحون سوادًا، يحملون شموعًا، يقفون في صمتٍ عزيز...

على أرصفة المحطات!

أعلن الحُسين وغربانه العصيان المدني التام في شتى بقاع المملكة، تركوا المصانع عاطلة، والحقول تئنُّ، والمناجم تستريح من المطارق!

توحدت صرخة العمَّال في أنحاء البلاد، تجمعوا لأول مرة مذ فرقهم الموج الهوزي الأبيض، وتوزعوا في صفين متوازيين على طول البلاد وعرضها...

على أرصفة المحطات!

ارتدوا جميعًا وشاحًا أسود كوشاح الحُسين، واصطفوا كالغربان جنبًا إلى جنب، وضموا نحو صدورهم بكلتا يديهم شموعًا موقدة، وأعلنوا ثورتهم السلمية العزيزة، ونطقوا بأعلى صمتٍ ممكن عن كل ما تجيش به صدورهم من آهاتٍ وعبارات وسخط...

على أرصفة المحطات!

كان سواد وشاحهم يرمز إلى ما آلت إليه حيواتهم من قسوة الظروف ومشقة العمل، ونيران شموعهم اللطيفة تعبر عن غضبتهم... غضبتهم القادرة على الإحراق إن شاءت، لكنها وضعت في مسارها الصحيح، واختارت السلام على الحرب، والعمار على الدمار، والخَضار على اليبوسة والشحوب، واللهيب المضيء المنير الهادي لطريق الخير على النار الغضوب المهلكة القاضية على كل أخضر ويابس...

أعلن الحُسين عصيانه المدني، وترك العمل احتجاجًا على تردي الأوضاع وقسوة معيشة العمَّال، وطالب بتحسين ظروف العمل وتحديد ساعاته الآدمية، وتأمين يحصل عليه العمال نظير قسوة العمل وإصاباتهم خلاله، ومعاش يكفي من بلغ منهم سِنًّا لا يسمح له بالعمل، ونصيب من الإنتاج يتشارك فيه العمال مع أصحاب رؤوس الأموال والملَّاك...

طالب الحُسين بالعدالة، والحرية، وحد الكفاف...

طالب الحُسين بالآدمية...

طالب الحُسين بالحياة!

وأصاب العصيان المدني التام شللًا سرى في كل مصنع

سلاح وذخيرة، وكل منجم للذهب والنحاس والفحم، وكل قطار ينقل ركابًا، أو ينقل جنودًا، أو ينقل نحو الحرب المشتعلة في الجنوب ذخيرة!

وقف الحُسين وغربانه في صمتٍ مسموع، وغضبٍ مشروع...

على أرصفة المحطات!



(٥)

عند أبواب المدينة...

الأوتاد الحديدية للبوابة العتيقة مغروسة في الأرض مذ بُني الجدار، امتزجا وتآلفا حتى صارا مركبًا واحدًا، فلا البوابة تنفتح أبوابها لعابر أو طريد، ولا الأوتاد تغادر الأرض حيث انغرست... وحال الجدار بين الجنوب ولوراسيا بأسرها، جدار عريض بعرض الجنوب، له باب باطنه الرحمة، وظاهره من قِبَلِهِ العذاب!

عند البوابة الخشبية المتهالكة العتيقة نُقرت كوة أشبه بوسيلة اتصالٍ بين عالم الجنوب المعزول ولوراسيا بغربها العريق وشمالها فاحش الثراء، كوة كانت تكفي لتظهر ملامح الوجه بوضوح، كوة لا يبدو من أطرافها أنها حديثة!

على الجانب الشمالي من الكوة وقف خيسيه حذرًا، يرقب ظله، ويتوقع غدرًا في أية لحظة من هنا أو من هناك...

وأتاه النداء من الجانب الجنوبي بصوتٍ قديم مألوف بالرغم مما اعتراه من حشرجة المشيب وشجن السنوات:

- ادنُ مني يا رفيق الأمس...

أشعلت نبرة الصوت في ذهنه لحظاتٍ مضت، وذكريات ولَّت، وشعُر في قرارة نفسه بشيء من الضآلة والصِغر، بالنظر إلى ما كان عليه حين سمع ذلك الصوت أول مرة وإلى ما آل إليه الحال!

- زيان؟!
- ما زلت تذكر إِذَنْ...

لم يرفع له عينيه، شعر بالضعف أمام تلك الخطوة، فتأمل آثار قدميه، ومصمص شفاهه، وقال بلهجة غير مكترثة...

- آنت الآن أوزريانو الثاني؟!

ضحك زيان ساخرًا من جهل وزير دولة الأهواز بخصمهِ، وأتى صوت جاك المتواري في عباءة زيان لاذعًا كسوط...

- لا شك أن غياب الزعيم أوزريانو أذهب ذكاءك معه...

أنصت خيسيه للساخر المتكلم، وقبل أن يهمَّ بالرد عليه كان زيان قد نهره وعنَّفه ونهاه عن الكلام، ثم قال ملاطفًا لرفيق الأمس:...

- اقترب يا خيسيه، أرني أنظر إليك...

تأمل خيسيه وجه محدثه في الكوة وتحت ظلال الليل، تأمل التجاعيد كيف تسللت في شِعابه، والمشيب كيف استوطنه، وتلك العصابة الحريرية على العين اليسرى، وذلك الخراب الذي طال اليمنى إلا قليلًا... تَغَيَّرَ... تَغَيَّرَ زيان كثيرًا عمَّا كان في ثورة إلياس ورحلة الرفاق الجدد!

- تغيرت...
- أما أنت فلا، نظرت لك من أول لحظة فعرفتك وقرأت سيرتك!

ابتسم نصف ابتسامة وتساءل:

- وماذا وجدتني؟
- وجدتك خاويًا مجوفًا، صورةً بلا جوهر، وفرع لا أصل له، أشبه بسفينة ليس لها مرساة، وبوصلة معطوبة لا اتجاه لها...
- أنا أنتمي للـ...

وجم خيسيه فجأة، ولم يقوَ على إكمال جملته، وأحس بحاجته لمن يجيب عليه، ويهديه إجابة تشفي، أللأهواز ينتمي، أم لبني الأصهل؟!

- تنتمي للـ... أهواز؟ أم لأوزريانو؟

- انقطعت صلتي ببني الأصهل مذ مات أوزريانو... ودماء الأهواز تسري في أوردتي!
- لكن أوزريانو لم يمت...
- بُهت خيسيه، ثم عاد فتلألأ وجهه وتساءل:
- كيف؟!

حينها قبض زيان على الفتى جاك من ذراعيه، وأبداه لخيسيه من الكوة، وقال:

- انظر... تمعن... ألا ترى الشبه؟ ألا ترى وجه زعيمك؟!

كانت العيون هي العيون، والتقاسيم واحدة، وكأنما الزعيم لم يرحل يومًا، ولم تنقطع سيرته، بل اتصلت من روح إلى روح، ومن جسد إلى جسد، وتذوق خيسيه طعم الكنية التي أنكرها منذ لحظات:

- أوزريانو الثاني!
- نعم، إنه جاك... ربيبي... ابن زعيمك أوزريانو.

كان خيسيه متفاجئًا، منذهلًا، أحس بشكٍ يساوره للحظات، وطعن في عينيه ووعيه لوهلة، وتساءل:

- كيف؟!
- قصة طويلة... بدأت في ثورة تيمور والرفاق القدامى، وتحالف أوزريانو مع الثوار ضد الحكيم غازي والصُفر، وسام...

- سام؟
- الثعبان ذو الندبة... أنا من تركت تلك الندبة على وجهه ذاك اليوم ذلك الوغد اللعين.
- لا تأخذك الحماسة هكذا... إنه رمادٌ الآن على كل حال!
- أخذ خيسيه يتفكر للحظات، ثم تساءل بنبرة هادئة:
- ماذا تريد مني؟

لكن زيان استغرق هو الآخر في الصمت وكأنما يفكر، أو يتذكر، واستدار بوجهه عن الكوة، واستند بظهره للبوابة الخشبية، وبدوره أطرق خيسيه بوجهه للأسفل فلم يعد يتلاقى الوجهان...

ومرت لحظات صمتٍ قطعها غناء زيان بصوتٍ عجوز أجش:

فارق هابيل الدنيا... فايت وراه همه

أما الغراب فرحان...

يرقص على دمه!

فطن خيسيه إلى ما رمى إليه بغنائه، فقال ساخرًا...

- لا شك أنها الآن من الأناشيد المقدسة عندكم، أليس كذلك؟

ثم ضحك بسخرية فاترة، فعاجله زيان:

- علام كل هذا يا رفيقي؟ لم لا نبدأ من جديد...
- هكذا!
- بلى، هكذا... انضم إليَّ تكن حواري الرب الرحيم، ولنُعد سيرة الرفاق الجدد مرة أخرى، أنا وأنت وأوزريانو الثاني، وأتباع إلياس من الرعاة وبني الأصهل، وتعد لنا لوراسيا من جديد... من يقوى علينا؟ لن تقم للأهواز قائمة بدونك، ولن يستطيع الديك الأحمر أن يعادينا في أرضنا ويسلبنا إياها...

ضحك خيسيه بشدة، فحنق زيان:

- تضحك؟!
- بالطبع أضحك... كيف أومن بأن من شققتُ صدره برمحي هو الرب الرحيم؟!

أُخذ زيان لوهلة يستوعب فيها معنى الكلام، فعاجله خيسيه:

- ماذا... لا تقل إنك مؤمن بربوبية عازف القيثارة، أظننت أنه بعدما ثار على الأم الحنون وترك لنا لوراسيا حلق بجناحيه، وصعد نحو الملكوت، واتكأ على عرشه ترفرف من حوله ملائكته يسبحون بحمده ويقدسون له؟!
- بالطبع لا...
- إِذَنْ... فعلام كل ذلك؟!

صمت زيان من جديد وكأنما أكله السؤال، طعنه في مقتل، وقال خيسيه:

- يبدو أننا كالبوصلة المعطوبة...

ازدرد زيان ريقه بصعوبة، والتفت نصف التفاتة، ونظر بعينه المعاندة، وقال وبها لمعة وتوهج:

- لطالما ساورتني الشكوك حيال إلياس... أعلم أنه ليس الرب الرحيم، ولكن من يكون؟!
- وما المهم في معرفة ماهيته؟!
- من أين أتى؟ ولِمَ اجتمعنا جميعنا حوله؟ ولم ساعدنا في التخلص من الجنية وستيفان السكندري؟!

ثم بنبرة أكثر تعجب...

- ولِمَ رفض ملك لورسيا؟!

فقال خيسيه ببهت:

- لأنه أحمق...

صمت قليلًا بعدما امتلأت عيناه بالدموع، ثم استكمل آسفًا:

- ولأنه أحمق فقد نال ما يستحق...

فتمتم زيان خلفه آسفًا:

- نعم... نال ما يستحق!

ثم التفت زيان بغتة، واقترب من خيسيه حتى لم يفصل بين وجهيهما فاصل، وقال بحرارة ورجاء شديد وهو يلهث بالكلمات:

- انضم إلينا يا رفيقي؛ نكن قوة لا تقهر، وشوكة لا تنكسر، ونحكم مملكتنا بأنفسنا ونعيد أمجاد ما مضى!

فقال خيسيه محذرًا بسخرية:

- أرأيت إن كانت الغلبة لنا، وهو ما سيكون، فإني أرى وجوهًا من الناس خليقة لأن يفروا ويدعوك... فاحذرهم!

فأتى صوت أوزريانو الثاني من خلف الجدار يرجُّه رجًا بغضب وحنق:

- أنحن نفر عنه وندعه؟! أعضض هَنْ أبيك إن عرفته يا مجهول النسب...

فقال خيسيه محدثًا زيان بهدوء شديد متجاهلًا وغير آبهٍ بالإهانة والسباب:

- حريٌّ بك أن تفكر في أمر تلك الحرب مرة أخرى، فكَّر في العجائز والنساء والأطفال الذين لا ذنب لهم غير أنهم آمنوا بك، وصدقوا كذبتك، والتفوا من حولك طمعًا في جنة الرب! غدًا سنهدم الجدار العازل، سنضربه

بالمجانيق حتى يسقط، وسنجتاح الجنوب بأسره،
وسنهدم البيوت عل الرؤوس وننتقم من كل شقي،
ولن تحميكم صلواتكم من الرصاص والبارود...

قالها خيسيه، ثم استدار وعاد من حيث أتى، وأما الحواري المقدس زيان فجزع جزعًا شديدًا، وأخذته نوبة غضب حادة برغم محاولات أوزريانو الثاني لتهدئته والابتعاد به عن البوابة؛ كي لا يغدر به أحدهم، وظل يصرخ في هيستيرية شديدة أثناء سيره متوعكًا وهو يقول:

سيحمينا الرب الرحيم من الرصاص والبارود...

سيحمينا الرب الرحيم من الرصاص والبارود...

سيحمينا الرب الرحيم من الرصاص والبارود...



(٦)

تحت ستار الليل الساتر كاتم الأسرار...

على أطراف الجنوب المحاصر المعزول، حيث ثمة خيمة مقفرة، منبوذة مستحقرة، تموضعت على مرمى حجر من مزابل سكان الجنوب وخلائهم، وتجمعت من حولها كل الخيم كما يتجمع الذباب حول الخراء...

كانت عاهرة تدفئ فراش صاحب الأنف الكبير، صاموئيل السكندري، الذي كان منتشيًا وفي أوج تألقه تلك الليلة، متهللًا على غير عادة، وارتسمت على وجهه تعابير غريبة مستهجنة، بدت برغم قباحتها وغرابتها على الملامح التعيسة توحي بأنها... ابتسامة!

كان بصاموئيل نشاط وحركة دبت بأوصاله، فظل يقطع الخيمة ذهابًا وعودة، وظل يتمتم بكلماتٍ، ويتأمل بعينيه وتعابير وجهه ما يوحي لك أنه يرسم خطة أو سيرًا للأحداث،

ثم إنه توقف فجأة، وتوجه ناحية العاهرة المتوسدة فراشه الملآن بالبق والبراغيث، واقترب منها أكثر حتى خُيِّل لها أنه سيعيد الكرَّة مما أصابها بالغثيان، لكنه حين اقترب توغل بذراعه أسفل الوسادة العتيقة، واستخرج من تحتها ورقة مطوية صغيرة، فتحها واسترجع ما كتبه فيها بعينيه، وبدت على وجهه ملامح الرضا، فأعطاها الورقة بعدما أغلقها بالشمع السائل، وتمتم في أذنيها بأوامره؛ فأومأت برأسها بالسمع والطاعة، ثم إنه استنهضها فقامت على عجل مسحوبة من ذراعها، وتوجه بها في لهفة ناحية النفق الذي يصل بين خيمته وبين الغابة الكثيفة، وقبل أن ترتدي ثيابها قام بزجِّها في النفق، وألقى بثيابها عليها مسرعًا، وأعاد غلق مدخل النفق، وعاد أدراجه نحو الفراش وهو سعيد منتشي، حالمًا بالغدِ الذي سيأتي كما رسمه، ومتتبعًا في ذهنه مسار الورقة الصغيرة، التي قُدِّر لها أن تنتقل من يد العاهرة لربتها السيدة ليزا، ومن السيدة ليزا ليد الأدميرال فيدل مباشرةً...



اللوحة الخامسة

عِند أبواب المدينة...

(١)

ومع أول خيط للنهار...

استيقظ الحواري المقدس زيان وفتاه جاك، واستيقظ معهم أتباعهم وأنصارهم من الإلياسيين مفزوعين مضطربين، وتساءلوا في نفس واحد... ما هذا الصوت؟

لم يكن ثمة وقت للتساؤل، فباغتهم دوي الصوت مرة أخرى أشد وقعًا...

لحظات مضت، وأتى مستطلعو الحواري المقدس بالنبأ اليقين، وسر الصوت المخيف والدوي المفزع... بدأ الأعداء في هدم الجدار العازل!

على الجانب الآخر من السور وقف خيسيه يحاوطه محاربوه الشجعان في ثياب الأهواز، تنام سيوفهم في أغمادها معلقة في خصورهم، منذ عرفوا البارود والبنادق وهم لا يستخدمون السيوف إلا واجهة وتراثًا ورمزًا للأهواز. أما في

الحقيقة فإن ثقل السيوف كان يبطئ من خطاهم، واستخدامها لم يعد يروق لهم، ولم يعد أمرًا محببًا. ومع الوقت وجري السنوات، صدئت السيوف في أغمادها، ولانت سواعدهم، ولم تعد تقو على استعمال السيوف. وأما شرطة الشمال فإنهم منذ اللحظة التي خطوا فيها أرض لوراسيا مع قائدهم فيدل وهم لا يحملون سوى البنادق والبارود، حتى استخدام السيوف كواجهة لم يرق لهم!

وقف خيسيه ومحاربوه من الأهواز من حوله، ومن أمامهم كانت قوات شرطة الشمال يلتفون حول المجانيق المعمّرة بالأحجار العنيدة، يؤهبونها ويجهزونها، وينتظرون اللحظة التي يصرخ فيها خيسيه بهم أن أطلقوا: فتنطلق الأحجار غاضبة نحو الجدار في مدى محسوب بدقة لتصيبه في الموضع المحدد...

وانفتحت البوابات الثلاثة على مصراعيها، وعملت أحجار المجانيق في الجدار ما عملت، وبدأت جيوش الأهواز في المسير وزحفها المقدس لفتح الجنوب!

***

في التو واللحظة بدأ الإلياسيون في التقهقر حتى حال بين الفريقين الخندق العظيم المختفي بين دهاليز الأشجار ودوران الخمائل وانحناءات النخيل...

وانتشرت شرطة الشمال في ريعان أرض الجنوب كانتشار سيل حجزه سدٌّ خرّ منهدمًا، ومن ورائهم هرع محاربو الأهواز يحملون كل ما تبقى من صناديق الذخيرة والبنادق والبارود، ومن ورائهم أتى خيسيه وعلى وجهه تعابير متضادة متعاكسة متنافرة، نصف ضاحك مبتسم، ونصف عبوس متألم، نصف شامت متشفٍّ، ونصف مشفق حزين، كانت أمواج المشاعر تتصارع في أعماقه، وتتلاطم كأمواج المالح؛ ولذلك تباطأت خطواته، وأخفى يديه خلف ظهره؛ ليواري رعشة متسللة قد لا يكون وقعها محمودًا في نفوس محاربيه، وجاهد حتى لا يرتسم على وجهه آثار تلك المعارك القائمة في باطنه، ذلك الصراع الحاد، بين الموت والحياة، بين الغناء والنحيب، بين الملاك والقرين، وبين الرب والشيطان...

تقدم خيسيه بخطاه المتثاقلة ويديه المعقودتين من خلفه، نظر له محاربوه نظرة تستجدي إشارة من بالأمر، قلها، انطق بها يا قائدنا، فقط أشر لنا وسنوغل في الوحل، ونطيح بالسفهاء، ونجيء لك بقلب عدونا وعدوك، الذي غدر بنا من قبل وبزعيمنا وابن زعيمنا، فقط أعط لنا الأمر... ولم يتمهل خيسيه ولم يتباطأ، زمّ شفتيه في التواء حزين مشفق، ثم رفع إليهم بناظريه وأومأ لهم بإشارة من رأسه قاطعة وحادة أن انطلقوا: فانطلقوا كالجراد لا ينوون خيرًا!

شرع كل محارب وجندي في حشو بندقيته بما يكفيها من بارود، وتقدموا مسرعين زاحفين، كمغناطيس يجذبه معدن مستفز، وما إن لاحت لهم من بعيد خيام الجنوب حتى لم يمهلوا وقتًا، وراغوا عليهم ضربًا باليمين، أطلقوا الرصاص في كل اتجاه، وقاموا بحشو البنادق من جديد، وأعادوا الإطلاق في كل اتجاه، ودارت الدوائر على الجنوب وأهله، وسقط من خلف ومن أمام الجدران أعداد يصعب عدها، وخرست الأناشيد ورفرفت اليافعات محلقات نحو جِنان الرب الرحيم بكل براءة ووداعة. وتحزبت طائفة من الإلياسيين، تسعة نفر أو يزيد، لقبوا أنفسهم بالـ «حُماة». والتفوا حول الحواري المقدس زيان من كل اتجاه، وساروا به يحمونه حتى بلغوا الكوخ القديم، ذلك الذي آوى الأسرة المقدسة من قبل بين جدرانه الخشبية المتواضعة، إلياس ورقية والجد يعقوب والخالة جليلة. وأما أوزريانو الثاني، فلقد كان له موقف محمود، وصرخة تردد صداها في أنحاء الجنوب، وشحذ همة المحاربين، وذكرهم بأيام الرب المتكبر وقتاله معهم ومن أجلهم بالأمس، وأخبرهم أن عليهم رد الدين، والقتال من أجل الرب الرحيم اليوم... وعلت همة الرجال، وقبض كلٌّ على سيفه ورمحه، واحتمى كل منهم بما وجد من معدن كواقٍ من بارود البنادق، فمنهم من احتمى بأغطية الأواني،

ومنهم من احتمى بأردية حديدية ثقيلة، ومنهم من ساروا بصدور عارية وهمم عالية وأعين تفيض من الدمع حزنًا، ألّا يجدوا ما به يحتمون!

ثم إن أوزريانو الثاني كان له في ذلك الوقت العصيب قول سديد ورأي حكيم، فبعد الكلمات الملهبة وبعد الخطبة الحماسية، وبعدما تيقن من صدق عزم رجاله على الفناء والموت في سبيل الرب الرحيم وحواريه المقدس، أمر أوزريانو الثاني رجاله بالانقسام إلى ثلاثة شعاب:

الشِّعب الأول: شِعب الطوارئ، وعليهم إخلاء كل البيوت والدور من العجائز والنساء والأطفال، والسير بهم نحو أقصى الجنوب، عند أبعد مسافة ممكنة، وبأن يسيروا من خلفهم؛ كي لا يغدر بهم من خلفهم أحد، وبأن ينتظروا بعدها عند مداخل الأنفاق، وينتظروا، لا يخطون خطوة إلا بعد أن يستمعوا إلى الأمر الصريح الواضح، وإلى أن يأتي ذلك الأمر فما عليهم إلا أن ينتظروا...

والشِّعب الثاني: شِعب الرماة، وكانوا من الصبية ونحيلي البنية، وعليهم بأسطح الدور وخلف نوافذ الأكواخ وبين سعف النخيل، ما عليهم سوى التخفي كالحرابيّ، يعانقون القوس والسِهام، وينقضون في الوقت الأمثل بالموت على رؤوس الأعداء، وفي لمح البصر انتشروا وذابوا كالملح،

فانطلقوا وهم يتخافتون، ألّا يدخلنّها اليوم عليهم غير إلياسي!

وأما الشِّعب الثالث: فـ شِعب الأبطال، وعلى رأسهم كان أوزريانو الثاني، الذي تقلد وجه أبيه، وصنع صنيعه الذي سمعه عنه، سار عاري الصدر حاميًا جَلدًا، يصرخ فيهم، فتمتلأ الأوردة في كل جسده بالدماء الحامية، ويصرخ أخرى فتتقد عزيمتهم حتى يتمنى أحدهم أن يأكل من لحوم الأعداء حيًّا، فالتفّ من حوله مقاتلوه الشجعان، يحمل كل منهم سيفه المسلول في يمينه، ودرعًا عنيدًا في شماله، وساروا بحمية تشبه حمية بني الأصهل وشجاعتهم خلف زعيمهم أوزريانو العظيم، لا يهابون الموت... بل يتمنونه تمنيًا!



(٢)

أغنيات إلياسين

كالزجاج كانت روحه دومًا شفافة، نقية، ما إن تَرَ النور تضيء وتتوهج...

وكالزجاج ظلت روحه دومًا، ما إن تلقت حجرًا قاسيًا تهشمت، وتحطمت، وتفتّت، وتبعثرت في أرجاء الكون الفسيح الواسع... الذي برغم اتساعه وفساحته ضاق به وبروحه، كجنيّ عظيم في قمقم حقير!

لملمت دولسين أشلاء القيثارة بأنامل ترتعد، قلبت أعينها في أوجه السكارى فرأتهم مثلها، مرتعدين، وكلما التقت عيناها بعين أحدهم أشاح بناظريه، وغطس في كأس نبيذه هربًا من غلظة العتاب وقسوة الحقيقة العارية، الحقيقة التي تخبرهم بكل جرأة ووقاحة أنهم جبناء، ضعفاء، أذلاء، لا كرامة لهم ولا دماء، لا غيرة تذكر ولا مروءة، وهم برغم ذلك لا يستحقون العتاب، ولا الرثاء!

اقتربت منه دولسين، وحاولت أن تخفف عنه حمله، تهون عليه عِظم الواقعة وتبعث في روحه المظلمة أي بريق! ولكنه أفل، وابتلع مرارة الحزن والإهانة علقمًا ممزوجًا بريقه الذي يبس وجفّ... سحبته من ذراعه بروية البنات ودلالهم؛ كي يرحلا من تلك الحانة الكئيبة، لكنه منعها، وسحب ذراعه بلطف غير مستحبٍّ في تلك المواقف، أنت لا تحب أن تراه حزينًا هكذا، آفلًا، مستسلمًا، وضعيفًا، قد تمكنت منه الأيام، وهو الذي قد اعتادت على ضيائه وابتسامه وحيويته وعناده. إنك حين ترى تلك البسمة اللطيفة على وجهه في تلك اللحظة لا تدرك سوى أن الجبل القوي قد اندك، والثور العنيد قد ذُبح، والجدار المنيع الذي ترتكن إليه في أحلك الظروف... قد انقض!

تتمنى منه لو محى تلك الابتسامة المثيرة للحنق والسخط، ترجوه كي يغضب، كي يصرخ، كي يسب ويلعن ويزمجر ويصيح، يطيح بأي شيء ويكسر ويهدم، أي حركة تدل على أنه حي لم يمت... أي شرارة توحي بأن ضياءه لم ينطفئ... أي سبة أو دبّة تطمئنك بأن القلب العنيد لا زال ينبض بالرفض والأمل!

لكنه محا كل ذلك بابتسامته اللطيفة اليائسة المستسلمة...

وترك كل شيء خلفه وانطلق وحيدًا...

لا أخطاب يسير في شوارعها، ولا دولسين يتيه في ابتسامتها، ولا إلياسين يشاركه اللحن الجديد... لحن الوداع!

ظل نَجم سائرًا، يحمل بقايا كرامته المهدرة على كتفه، صليبًا يزيد مشقة الطريق، وشوكًا يزيد وعورة الدرب، ثم إن قدميه الهزيلتين خانتاه، فخرّ واقعًا في مطرحه قرب جدارٍ يشبهه: هزيل يريد أن ينقض، ويستر من خلفه خرابة خاوية!

وقع نَجم وافترش وحل الأرض وروثها، وظل يرقب نجمًا في أعلى عليين، نجمًا يعرفه ويألفه، قد كان يلمع فيما مضى... لكنه الآن مظلم آفل، نظر إليه نجم بأعين خاوية، جدباء لم يعد فيها دموع، تداري من خلفها حكايات ومشاهد حبيسة النفس الرقيقة الضائعة، وتسارعت نبضات قلبٍ وحيد، وتوالت عبرات ومحطات العمر تَتْرَى، بملمس أوتارٍ قيثارته المحطمة، وأعين دولسين الدامعة، وصراخ إلياسين الغاضب، وبرودة كؤوس النبيذ في أيد السكارى ونظرة الخذلان في أعينهم، وشوارب الشاويش وهراوته العنيدة...

استند نَجم بما تبقى من قوته على الجدار الضعيف وكتب عليه بالدموع كلمات متفرقات عابثة، قد تكون وصية، وقد تكون غنوته الأخيرة...

قولوا لـ دولسين الجميلة...

«أخطاب»... قريتي الحبيبة:

هو لم يمت بطلًا ولكن...

مات كالفرسان بحثًا عن بطولة

لم يلقَ في طول الطريق سوى اللصوص

حتى الذين ينددون كما الضمائر باللصوص

فرسان هذا العصر هم «بعض اللصوص»...![1]

***

في المحطة المركزية بالشمال، حيث الحُسين وغربانه في انعزال تامٍّ عن لوراسيا وما يجري على سطحها من مجريات وعبث...

ترك المندوب العسكري المسؤول عن المحطةِ المحطةَ للعمَّال وفرَّ فزعًا نحو قائده الأعلى بعدما حاول التحاور مع العمال من وراء عساكره المسلحين بلطفٍ جمّ وبأدبٍ لم يعهدوه منه قط... باغتته كثرتهم... أخافته وحدتهم... وأرعبته عزيمتهم وتمسكهم بمطالبهم ورفض البديل أيًّا كان، حاول النقاش فرفضوا... التهديد فلم يبد عليهم أي اهتزاز... وفي آخر الأمر، فرَّ محتميًا بعساكره المسلحين تاركًا لهم المحطة يرتعون فيها إلى أن يقضي الأدميرال أمرًا كان مفعولًا...

(1)الأبيات لـ نجيب سرور: لزوم ما يلزم.

اتخذ العمّال من أرض المحطة الصقعة فراشًا، وتكيّفوا على المبيت والاحتماء بها من عواصف الحياة وصخبها وجنونها، وخصصوا لأنفسهم ركنًا لإعداد الشاي والقهوة، وبدأت الحياة تجري بهم في سردابهم الآمن بلا معوقات، يتسامرون ليل نهار في تجمعات ودودة، يحتسون المشروبات الساخنة، ويتبادلون النكات الجنسية والحكايات والنوادر، ويتحاورون عن الأساطير القديمة، وحكايات لوراسيا الأولى والرفاق القدامى والجدد، حكايات ما قبل الموجة العظيمة وآيات الرب المتكبر وأنبيائه المكرمين، دارت بهم الأرض دورة، ثم دورة، ثم دورة تلو أخرى، وهم يقضون أسعد الأوقات، يضحكون حتى البكاء، وينامون ملء جفونهم، لا ضغينة ولا حقد ولا عداء، كلمة واحدة نطقوا بها، وراية واحدة تجمعوا حولها، ومطلب واحد لن يرحلوا قبل أن يتحقق... العدل!

وفي ذلك الصباح، أتى أحد العمّال مهرولًا ناحية الحُسين، تدور عيناه كالذي يغشى عليه من الموت...

- ما بك يا أخي؟!

سأله الحُسين، فقال لاهثًا:

- أوشكت ذخيرة المقاتلين في حرب الجنوب على النفاذ، والوزير خيسيه أرسل في طلب المزيد من صناديق الذخيرة والسلاح منذ الأمس...
- نحن في إضراب عن العمل.

قالها الحُسين بكل هدوء الدنيا، لكنّ نفرًا من العمّال من حوله سرى الخوف في نفوسهم، فتقشعروا مرارًا قبل أن يهم أحدهم بالحديث متلجلجًا:

- يا حُسين... خذ حذرك... فلا زال الأدميرال فيدل في الشمال ومعه قوته الخاصة... وبالطبع هم مسلحون!

وقال ثانٍ:

- إن انتصروا في حربهم فسيأتوننا منتقمين...

وهمس ثالث:

- لقد أسأنا التوقيت... أسأنا التوقيت

وهمس آخر خائفًا...

- أخشى أن تدور علينا الدوائر، لنرسل لهم الذخيرة!

فصرخ فيه الحُسين ناهرًا، فتسمّر مكانه وكذا باقي العمّال، نظر إليهم الحُسين بأعين متأملة وهدوء شديد وهو يرى

موجات الخوف تخبطهم واحدًا واحدًا، ثم قال بعدما أخذ نفسًا عميقًا أنعشه:

- من ظن منكم أن الحياة قد تمضي بغير كرامةٍ فليرحل... لا مكان له بيننا!

قلّب عينيه فيهم قليلًا، ثم عاد بنبرة أقل هدوءًا...

- من ظن منكم أن الخبز أولى من الحرية فليرحل... لا مكان له بيننا!

ثم بنبرة أكثر غضبًا:

- من ظن منكم أن كرامته ستسترد من غير ثمنٍ باهظ يدفعه أو عناء يبذله أو دم ينزفه فلا كرامة له... وليرحل... فلا مكان له بيننا!

ثم صرخ فيهم الحُسين صرخته الشهيرة، التي تردد صدى رنينها في صدورهم الخاوية، وتزلزلت بها الأرض من تحتهم، وعصفت بكل مخاوفهم، وألهبت حماسهم وصقلت عزيمتهم من جديد...

صرخ فيهم الحُسين صرخة حماسية ستظل تُذكر لأجيالٍ بعده...

قلت لكم مرارا...

إن الرصاصة التي ندفع فيها ثمن الكسرة والدواء

لا تقتل الأعداء!

لكنها تقتلنا، إذا رفعنا صوتنا جهارا...

تقتلنا، وتقتل الصغارا![1]



(1)لـ أمل دنقل.

(٣)

تقدم شِعب الأبطال بقيادة أوزريانو الثاني مهرولين كالفهود...

وتقدمت قوات شرطة الشمال ومحاربو الأهواز أمام خيسيه الواجم الهادئ...

وعِند الخندق المهول العنيد... التقى الجمعان!

ولم يمهل أحدهما الآخر وقتًا، وفورًا بدأت شرطة الشمال ومحاربو الأهواز في إعمال الرصاص فيهم دون تمهل، واحتمى الأبطال خلف دروعهم الهزيلة وخلف سيقان الأشجار، وسقط منهم الكثير، وأصيب أوزريانو الثاني برصاصة قرب عنقه أصابته إصابة ليست بهينة سقط من فوره على الأرض ينزف الدم نزفًا من رقبته في مشهد أفزع أبطاله ومحاربيه فأشفقوا عليه، وقام نفرٌ منهم بالالتفاف حوله وحمله حتى تقهقر به قرب كوخ مهجور، ثم تركه هناك وحيدًا يصارع الموت...

وابتسم أفراد شرطة الشمال ومقاتلو الأهواز، وتقدموا بالمجانيق العملاقة، فضربوا بها كل كوخ وكل دار لاح أمامهم، وتغلبوا على ذلك الخندق الغبي بألواح أمدوها من فوقه كالجسور، وعبروا من فوقها جماعات جماعات، تحتمي كل جماعة تعبر بغطاء من رصاصات أخرى، تشتت الإلياسيين وتمنعهم من الاقتراب أو المساس...

فلما عبروا جميعهم، ومن خلفهم كان خيسيه يتابعهم ومن حوله عصبة من جنوده المقربين يحمونه عن قرب وتلاصق... بدأت سِهام شِعب الرماة في السقوط عليهم من علٍ، وابل سِهام كالأمطار سقط بغتة في يوم قائظ، فأصاب منهم أعدادًا كثيرةً، وإصاباتٍ بالغة، ذاك لاج السهم في عنقه، وذاك اخترق قفص صدره، وهذا أصيب بساقه... وهطلت أمطار السِّهام تباعًا، وابلًا بعد وابل، حتى أصاب سهم منهم ذراع خيسيه الأيسر بغتة فسقط على الأرض متألمًا، ففزع الحراس من حوله ولم يصلوا إلى تصرفٍ حكيم، غير أن خيسيه قصم السهم المغروس في ذراعه، وتحامل على جرحه ونزفه ونهض مشيرًا إلى قواته ومحاربيه بالتقدم أكثر، وبالحزم والصمود أكثر، فعادوا بوابل شديد من الرصاص... يصوبون في كل النواحي، وبشراهةٍ وتعطش شديد للقتال والانتقام وسفك الدماء، ظلت الرصاصات تنطلق هنا وهناك، فوق

النخيل وفي الأكواخ وبين تعرجات النخيل، فتصيب ما تصيب، حتى أوشك شِعب الأبطال على الفناء والانتهاء، ثم إذا بصوتٍ يصرخ في هلع:

- أيها القائد خيسيه... نفدت ذخيرتنا!

وبدأت الصيحات نفسها تأتي من كل حزب كان يعيش على صندوق ذخيرة، وتكررت الجملة نفسها مرارًا ومرارًا، فنظر خيسيه من حوله كأنه لم يفهم ما قيل، ثم قال بعصبية متألمًا:

- أين صناديق الذخيرة التي أرسلوها لنا؟

فقال له أحد الجنود المقربين على خوف منه وحذر:

- إن عمَّال السكك الحديد لم يرسلوا شيئًا... يقولون: إنهم مضربون عن العمل.

جحظت عينا خيسيه الغاضب، المشتعل، الذي صرخ لاعنًا، وقال:

- المخنثون الأوغاد... مضربون عن العمل! وأين الديك الأحمر الملعون؟! أهو لاهٍ في الجري وراء العاهرات... أين صناديق الذخيرة اللعينة، إننا فريسة سهلة أمام هؤلاء المعاتيه يا أولاد الزواني!

وبدأت صيحات السباب واللعنات تنطلق من فمه دون توقف، لم يستطع أحد أن يهدئه أو حتى يقترب منه، وسرى الخوف في نفوسهم جميعًا، خاصةً بعدما خرج أحد مقاتلي شِعب الأبطال الذي لا زال يصارع الحياة برصاصة أصابته في صدره، وأشار بيديه عاليًا بإشارة ما، فانطلق سهم من أعلى النخيل في اتجاه غير الاتجاه، للجنوب وليس الشمال، يحمل إشارة بعينها، لشِعب قد أكمل نصف مهمته وبقي منتظرًا... ليكمل باقي المهمة!

وخلال برهة من الوقت انقضت في الاشتباك المسلح ومبارزات السيوف بين من تبقى من شِعب الأبطال وشِعب الرماة وبين محاربي الأهواز الذين لجأوا في الأخير لسيوفهم الصدئة كمن لا حيلة له، وكانوا كأنهم قد نسوا فنون القتال بالسيف، فسواعدهم لم تقو على حمله والمراوغة به والافتداء. وأما شرطة الشمال فظلوا ثابتين في أماكنهم، يحملون بنادق ثقيلة لا ذخيرة لها، فهم لا يجيدون حمل السيف والمقاتلة به، واحتموا ببنادقهم الخاوية من هجمات السيوف كنوع من استنفاذ الوسائل المتاحة، لكنها بالطبع لم تغنِ عنهم من الإلياسيين شيئًا!

واحتد بين الجمعين القتال أكثر، وأوشك أصحاب خيسيه على الفناء، ودارت عليهم رحا الحرب حتى طحنتهم، وزاغت

الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، ولاذ منهم بالفرار من لاذ، واستبسل منهم من استبسل وأظهر شجاعة وعِنادًا، والتفت حول خيسيه المصاب فرقته المقربة، يفدونه بأرواحهم ودمائهم، ولكن إلى متى؟ لم يمض وقت طويل وإذا بطلائع الشِعب الثالث، شِعب الطوارئ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر... من خلف الجمعان المتقاتلين، من الخندق العنيد الذي اتصل سرًّا بالأنفاق المبنية منذ بُني الجدار العازل ومنذ عهد السبي الأول... خرجوا بعدما وصلتهم إشارة الخروج والزحف المقدس وإغاثة اللهفان... خرجوا ينادون باسم الإله العظيم... باسم الرب الرحيم وحواريه المقدس... يحملون سيوفهم وخناجرهم... وعيونهم تلفظ الغضب شررًا حارقًا ومخيفًا... وفي طرفة عين وأخرى، وجد خيسيه ومقاتلوه أنفسهم محاصرين من كل النواحي، عزّل لا سلاح معهم، ومن كل اتجاه أتى الإلياسيون شاهرين سيوفهم الحامية الغاضبة، يصرخون في انتقام والدائرة لهم، ينطق سؤال واحد في أعينهم اللامعة المتشفيةً الغضوب...

لمن الملك اليوم...؟!



(٤)

أغنيات إلياسين

في ليل ذاك اليوم المخيف، يوم مات العم نجم كمدًا وحزنًا، أصدر الوالي أمرًا وفرمانًا يمنع فيه آل أخطاب، صغيرهم وكبيرهم، ذكورهم وإناثهم، جِنّهم وبِنّهم، من أن يشاركوا في توديع العم نجم وتوصيل جثمانه إلى قبره الفقير...

ثم فرمانًا آخر بإطفاء مصابيح الشوارع جميعها، وبأن تكون أخطاب الليلة سوداء مظلمة معتمة لا يرى فيها أثر، ولا يميز فيها بين أبيض وأسود!

وبين ظلمة الحزن وظلمة الشوارع... سارت دولسين الحزينة وحدها جِنازة موجعة، تتشح سوادًا، وتقطر دمًا، تحمل على ظهرها الجسد الهزيل للعَم نجم وتمشى بخطواتٍ متمهلاتٍ، تبكي تارةً وتلتقط الأنفاس أخرى...

ومن خلفها سار الشاويش ذو اللغاديد الضخمة، والشارب الذي يقف عليه الطير بغير عناءٍ يذكر، يحمل هراوته في يدٍ يخبط بها بوقع رتيب على اليد الأخرى ويمشي في تؤدة المختال الظافر، يبرق حذاؤه المصقول في غياهب الظلمات كنجم يرمز لانتصار الشر...

كانت هزيلة بطبعها، نحل الحزن وبرها، ونخر الخوف جوفها، فهي جوفاء كناي هشّة كقشة مظلمة كشوارع أخطاب...

توقفت في وسط الظلام فجأة، أصابتها ارتجافة سريعة سرت في جسدها، فخافت أن يسقط الجسد الشريف فتدنس طهارته الأرض بروثها وترابها... توقفت... وبغير قصد منها انخرطت في نوبة بكاء... بكاء العاجزين الراضخين التُبّع! سقطت على ساقيها ومن فوقها الجسد الهزيل معلقًا، زادتها الدموع ظلامًا فوق ظلام، وحزنًا بعد حزن، وظلت تبكي غير قادرة على الامتناع عن البكاء!

لكنما...

رفعت عينيها عن ظلمات الأرض على نافذة زجاجية أمامها يشعّ من خلفها لهيب مصباح صغير، أوقد لها في غيهب الظلمات بريقًا، وخلق لها في عتمة الدروب أملًا... وبرغم الألم الذي ألمّ بها والحزن الشديد ابتسمت... وبرغم النشوة التي كان يشعر بها الشاويش المتشمت من خلفها عبس!

وتلا المصباح الصغير مصابيح وقناديل، وتبعت النافذة الواحدة نوافذ الحي بأسره، فأضاءت كل النوافذ بالمصابيح والقناديل حتى أشرقت الأرض وأبصرت الطرقات، وابتسمت دولسين الجميلة برغم كل شيء، وتحاملت حتى تقف على قدميها وتتابع المسير على هدي اضواء المصابيح والقناديل...

وفي تلك اللحظة، استنهضتها يد حانية، رفعت ناظريها لترى، فإذا بإلياسين الهارب يحمل عنها عبئها، بأعين متورمة من فرط البكاء، وبأيدٍ مرتعشة من فرط الحزن، وبقلبٍ لم يبالِ بالشاويش المتشمت في الخلف، ولا بهراوته التي تتراقص بين يديه السمينتين، وبشواربه التي اهتزت فورما رآه وهو يخالف فرمانًا أصدره الوالي صباح اليوم... فتقدم الشاويش نحو إلياسين مكشرًا عن أنيابه بغضب لا ينوي كبته، وغيظ لا يرجى كظمه!

وفي الوقت الذي كانت دولسين تصرخ فيه من شدة الهلع والخوف والقلب المفطور، والوقت الذي كانت هراوة الشاويش ذي الملامح المزمجرة والأسنان الفضية اللامعة تهوي بكل ما أوتيت من صلابة وقوة على مؤخرة رأس إلياسين فانفجرت الدماء منها انفجارًا لا يبدي رحمة!

ما كان من إلياسين سوى أنه ظلّ ينظر إلى دولسين بابتسامة تشبه تلك التي ودعها العم نَجم بها...

في تلك اللحظات، تخاذلت القناديل والمصابيح الخائفة المرتعشة وأظلمت...

ولم يعلم أحدٌ ما حدث في جوف الظلام...

أشرقت شمس الصباح متأخرة...

وجد الناس دولسين الجميلة جثةً هامدة تعانق جسد أبيها اليابس في تشبث وملامح هلعة، ومن خلفهم كان الشاويش قد فارق الحياة برأس مهشم لم يتبين أحد ملامحه سوى شاربه الذي يقف عليه الطير من غير عناء...

وأما إلياسين، الذي كان يصارع الموت بضربات الهراوة المتتالية، وبالجرح العصيب خلف رأسه، فلم يعثر له في أخطاب على أثر، ولم ير من بعدها أبدًا كأنما لم يعد له في الوجود وجود...!

❀❀❀

وفي الوقت نفسه، في زاوية أخرى من الكون، عند ناصية المجهول، خلف شوارع العدم، كان الثلاثي برَّاق وجِنان والقزم يحاولون تهدئة رزان وإيقافها عن البكاء دون جدوى...

على الفراش من خلفهم كان إلياسين يئنّ بلا وعي بماهية الزمان والمكان...

- إن ما تطلبينه خطير يا رزان...

قالها الثلاثة بصيغ متباينة، فصرخت رزان في برَّاق العظيم الذي كان يوشك على البكاء من فرط إشفاقه عليهم جميعًا، فلم يكن يعرف لمن يرث أولًا، أعلى أخيه وابنة أخيه اللذين قضيا نحبهما، أم على الفتى اليافع الراقد على الفراش يصارع الموت في نزال يوشك أن يخسره، أم على رزان التي تتأرجح على الشعرة الفاصلة بين العقل والجنون، إنها تطلب منه المستحيل، تطلب منه ما هو مدرك تمامًا أنه قاتلها وهي كذلك، لكنها على كل حال تطلبه، بل وتصرخ فيه كي يساعدها على ما تريد...

قال القزم بلهجة حازمة:

- لا جدوى مما تريدينه، إنك إن نقلتِه إلى بُعدٍ آخر سيفقد كلاكما من قوته ما لا يستطيع العيش بدونه... سيموت هو... وستصبحين أنتِ فريسة سهلة في يد الجان والإنسان يسخرونها في أي وقتٍ بالتعاويذ والأحاجي!
- لن يموت...

قالتها رزان بعنادٍ وتحدٍّ، فقالت جِنان باكية:

- وأنتِ؟

ثم قال برَّاق قبل أن تجيب:

- قد لا يموت، ولكن لن يعود كما كان... أبدًا... سيعيش مسخًا... تائهًا ضائعًا سيكون ريبًا في عالمٍ كامل، لا يعرف أحدًا، ولا يعرفه أحد... في الأمر مجازفَة لا نعرف عاقبتها... دعيه يموت في سلام.
- يموت!
- الموت أرحم له من عناء تلك الحياة...

قالها القزم وهو يربت على كتفيها بحنوٍ فأبعدته عنها صارخةً، وقالت:

- لا شأن لكم بذلك، هذا قراري وحدي!

فقالت جِنان بعصبية عاطفة:

- ليس قرارك... بل قراره هو!
- أنا حبيبته...
- حقًّا... حبيبته هي التي يصارع الموت من أجلها الآن!

كان الرد صفعة على وجه رزان، رأف لحالها برَّاق والقزم، وقالت جِنان بنبرة أكثر لطفًا وروية:

- قد ينسى كل شيء يا رزان، قد لا يذكر من عالمنا أحدًا!
- سيذكرني... سيذكر ما كان بيننا... إن المشاعر لا تنسى

- الحقيقية...

قالها برَّاق، فالتفتت نحوه رزان متعجبة، فقال القزم آسفًا:

- المشاعر الحقيقة هي التي لا تنسى مهما حدث...

ظلت رزان تتلفت إليهم واحدًا واحدًا، تدور عيناها كالذي يغشى عليه من الموت وأصبح فؤادها فارغًا، تكاد تفقده خوفًا على حبيبها... إلياسين، تتوسل إليهم كي ينقذوه، كيف؟ تريد أن تعبر به بين أبعاد العوالم المتوازية، تحمله وتسافر قاطعة ما شاء خالق الأكوان والأبعاد لها أن تعبر، لكن الأمر ليس بتلك السهولة، هي وإن كانت من أصنافٍ تمتاز بقوة تجعل تسخيرها من قِبل الجان وسحرة الإنسان صعبة، فبانتقالها من بُعدٍ لآخر ثم العودة لعالمها من جديد ما يستنفد من طاقتها بشكلٍ يكفي لتسخيرها بالتعاويذ والسيطرة عليها بالتمائم!

وهو إن كان قويًّا عن صنفهم، فهو الآن في أضعف حالاته، إنه يصارع الموت، وانتقاله من بُعدٍ لآخر لا يضمن له السلامة من العواقب، قد يموت، وقد يصبح مسخًا، وقد يفقد ذاكرته، غير أنه من الأكيد... سيعاني من الوحدة!

لم يكن الانتقال بين الأبعاد أمرًا سهلًا أو معروفًا للجميع، لكنّ برَّاق العظيم كان على عِلمٍ به، وبعد طول توسلاتٍ وبكاء، خضع برَّاق لسلطان رزان، واستجاب لها، فنهضت

على عجلة من أمرها حتى كادت تتعثر، رقدت بجوار إلياسين التائه في ملكوته الأليم، يقطر دماء من الشج العميق في مؤخرة رأسه، ويصرخ بين حين وآخر من شدة الألم... اقترب منهما برَّاق وبدأ في تمتمة بعض الطلاسم التي لا يعي كنهها إلا هو، مرّ وقت ليس بالطويل ولا القصير، ولم يحدث شيء!

عاود برَّاق الابتهال، ورتّل طلاسمه مرة تلو أخرى تلو أخرى...

لا شيء!

شيء ما حدث، هناك خلل ما... التفت برَّاق ناحية القزم يسأله، ونظرت إليهم رزان بعينين مفجوعتين وقلب متصدع، تتوسل إليهم بنظراتها التي تشي بكل ما في قلبها من محبة وهلع...

قال القزم بعدما تفكر قليلًا...

- يبدو أنهما أضعف من تلك الرحلة!
- ما الذي تقصده؟!

تساءلت بجزع بالغ، فقال برَّاق:

- سيموت... قوته ضعيفة
- لا يا برَّاق، لا تقل لي هذا... اعثر على حل، إياك أن تقول أنْ ليس هناك حل...

كانت مضطربة كالممسوس، وبدأت تنجرف نحو بئر الجنون دون وعي، جزعت لحالها جِنان وتأسف عليها القزم، لكن برَّاق ظل صامتًا لوهلة يفكر، ثم تمتم بصوتٍ خافت:

- هناك حل... لكنـ... (فقاطعته بلهفة)
- لا يهمني عواقبه...

فقال القزم:

- مهلًا يا فتاة، استمعي لما يقوله أولًا!
- طالما أن هناك حلًّا سأفعله حتى ولو مِت دونه...

فقال برَّاق بهدوء متأسف...

- لن تموتي، ولكن سيرتبط مصير أحدكما بالآخر... ستعيشان البُعد ذاته إلى الأبد.

هنا صدرت عن جِنان شهقة، وقالت باكية:

- إنها رحلة بلا عودة يا رزان، آلأمر يستحق كل هذا العناء؟!
- يستحق ما هو أكثر من هذا، فلا حاجة ليّ في أرض هو ليس فيها
- ونحن؟

تساءلت جنان معاتبة، فلم تجبها، وأشارت إلى برَّاق الذي استأنف:

ستكون مصائركم مترابطة إلى الأبد، إن مات أحدكما مات الآخر في اللحظة نفسها.

واقترب منها برَّاق وفي يديه خنجر مصقول، جرحها جرحًا أسال دماء باطن كفها ثم وضعها على رأس إلياسين، حيث دماؤه لا زالت تقطر منهكة، فامتزجت دماؤهما للأبد، وابتعد خطواتٍ للخلف، وبدأ بتمتمة تعويذة أخرى، وطلاسم مختلفة... طلاسم بدت أشد قوة من سابقتها، طلاسم أحدثت في الراقدين المتعانقين ما أحدثت...

فجأة...

انقلب الليل نهارًا والنهار ليلًا... ثمة ظلام دامس يحيط بهما... رزان تشعر بصداعٍ شديد يكاد يفتك برأسها، وإلياسين يصرخ كأنما الساعة حانت... رفع جفونه الثقال بمعاناة وتمتم في ألم شديد:

- دولسين... دولسين!

ابتسمت رزان بغصة في صدرها، وقالت بمودة:

- أنا معك يا حبيبي، سأكون دومًا معك.

فقال وهو لاهٍ عن الكون والأحداث والأشخاص من حوله، قال وعيناه غائبتان هائمتان تنظران إلى ما يهيم به ويحلم:

- أحبك... لن أتركِكِ أبدًا يا دولسين.

ابتسمت رزان ابتسامة حزينة مشفقة، ودنت منه حتى قبلته في جبينه قبلة طويلة دافئة، قبلة كأنما خرجت عن حدها وزمانها، فتاه كلاهما في كوة من ظلام سرمدي فسيح، لا يعرف له أول من آخر، تفرقا، وتشتتا، وحال بينهما القدر والأيام والأحداث والأزمان والأعداء والشياطين، وفي آخر المشهد قاضٍ يضرب بمطرقته بعدما صرخ بحكمه عليهم «بُعدٌ لا ينتهي»!

وبدأت الأحداث تثار من حول إلياسين الهائم الغريب...

اقترب منه رجلان غريبان، أحدهما عند رأسه والآخر عند قدميه، فأجلساه وسأل أحدهما الآخر:

- ما للرجل؟!

فقال الآخر:

- مطبوب...
- من طبَّه؟!

فقال آسفًا:

- طبَّه قلبه، في جراءة مهلكة ومحبة منهكة!

بدأ إلياسين يتقيأ دمًا وبعوضًا أسود يئز أزًّا مزعجًا، وانقلبت عيناه الرماديتان بياضًا مخيفًا، وبدأ عوده النحيل في التشنج

والتصلب، أحكم أحدهما الجلوس عند قدميه وأمسك بإصبعي قدميه الكبيرين وضغطهما بعنف حتى تهشم ظفراهما كلاهما، ووقف الآخر على رأسه وبدأ يصرخ في هيسيريا وجنون...

إلياس لا تقترب...

إلياس لا تستمع...

إلياس لا تستجب...

وبدأ الأمر العبثي غير الموصوف، بدأت الأكوان تتداخل من حوله، وجوه ناضرة وباسرة، فاقرة وغابرة، تتداخل بشكلٍ متكرر متتالٍ لا نهائي العدد...

وجوه عديدة...

دولسين الجميلة وهي تغدو مبتعدة عنه واجمة، دولسين الجميلة، وهي تبتسم له وهما يتشاركان الغناء على المسرح الصغير، دولسين الجميلة وهي تنطفئ خلف قنديل مهشم... دولسين تبتعد... تتلاشى... تنعدم!

برَّاق العملاق في كل مكان من حوله ينظر بأعين باردة نحو العدم، يتمتم طلاسم وتعاويذ بلغاتٍ مجهولة غريبة...

المكان يزداد ظلامًا، والوجوه تتزايد من حوله وتتعدد، الصراخ يعلو حتى انفجرت أذناه، وتداخلت من العدم

أطياف حمراء وزرقاء آخذة في الازدياد والتوهج واللمعان حتى كادت عيناه أن تنطفئا...

رزان ووجهها الخشبي الحاد... رزان تبتسم... تغني... يأتي صوتها رقيقًا

يا حبيبي كل ما في الصمت نادى

ومضى الموج وعادَ

فجأة...

بدأت دوامات الظلام، أعاصير من الظلمات الدامسة، الأبيض والأسود يتمازجان ويتراقصان في ثنائية مخيفة تُشعرك بالغثيان، بدأ ينجذب إليها لا إراديًّا، هو لا يقوى على منعها، وهي لا تنفك تسحبه، تشده، تقتلعه من مكمنه، وبدأ السقوط المهيب في هاوية الأزمان والأكوان والأطوار والأبعاد... إلياسين يسقط... إلى أين؟!

الكون يدور دورة، ثم دورة، ثم أخرى، إلياسين يصرخ صرخة مهولة، كنفخ الصور يوم الساعة، يوم الملحمة، الحاقة الحاقة، الصاخة الصاخة...

ساد الصمت فجأة، وعم الهدوء أرجاء الكون، فتح عينيه ببطء، وجد بحيرة عذبة، ماؤها صافية رقراقة، لم تكن بعيدة، كان يسبح فيها، لا يعرف كيف بدأ الأمر، نظر إلى صفحة

الماء الرائقة، وجد انعكاسًا غريبًا، وجد عجوزًا ذا وجه كثير التجاعيد والعجز، صرخ خائفًا، غض بصره مستنكرًا، أنكره، ثم عاود الكرة مرة، ثم مرة، ثم أخرى، إنهما هما... العينان الرماديتان ذاتاهما... تبدوان مألوفتين... نعم... إنهما عيناي ولكن... من يكون هذا العجوز... أهذا أنا؟! متى وكيف وأين ولِم؟! أسئلة بعدد الرمال والنجوم وحبّات المطر... من أنا؟! كيف أتيت إلى هنا؟! أين كنت قبل تلك اللحظة؟! ولِم لا أذكر شيئًا!

وظل يهمس في هلع...

إلياس لا تقترب...

إلياس لا تستمع...

إلياس لا تستجب...!

أصابته نوبة خوف وبكاء، تقوقع على نفسه، واحتمى برأسه خلف ساقيه المضمومتين نحو صدره المضطرب، ظل يبكي، ظل يصرخ، ظل يئنّ حتى غفا من شدة الحزن، كان يشعر بالبرد والوحدة...

لكن صوتًا عذبًا ظل يهمس في أذنيه بلحنٍ بدا مألوفًا، دافئًا، ومطمئنًا...

فارق هابيل الدنيا

فايت وراه همّه...

أما الغراب فرحان

يرقص على دمه!



(٤)

لم يكن الأدميرال فيدل مغتاظًا من ثورة الحُسين قدر ما كان سعيدًا!

استمرت ثورة الحُسين أبية عنيدة ومسالمة، لم يسل دمًا، لم يلفظ إثمًا، لم يكسر ملك الغير، لم يعتدِ على زرع أو يلوث بئر ماء... استمر إضراب العمّال عن العمل في شتّى مواقع العمل في لوراسيا، مناجم الذهب والنحاس والفحم، ومصانع السلاح والبارود، ومحطات السكك الحديدية... ما زال الحُسين وغربانه مصطفّين بشكلٍ متوازٍ يحتضنون شموعهم الوديعة، يقولون كلمتهم بكل صمتٍ وكرامة وهيبة...

كانت ثورة الحُسين مِفتاح حرب الرفيقين، بها انقلبت الآية، وبها خضعت جند الأهواز وانهزموا، وبها علت كلمة الإلياسيين من جديد. والغريب في الأمر أن الأدميرال فيدل كان على علم بكل ذلك منذ البداية ومنذ الشمعة الأولى في شموع غربان الحسين، كان قادرًا على فض تلك التظاهرات، كان قادرًا على إرجاع العمال للعمل من جديد، وكان قادرًا

على إمداد الأهواز بالمؤن والذخيرة، كان بإمكانه التصرف، بل إن أوامر صريحة ومباشرة أتته من الملك رمّاح بن قسورة بالتدخل في الأمر. لكن رسالة أخرى سرت إليه من بعيد، من قاع الجنوب، حيث خيمة عفنة قرب مزابل القوم ونفاياتهم، سرت إليه بين نهدي عاهرة، تقول له بخطٍّ عريض «دعهم في ثورتهم... حتى حين».

كانت ثورة الحُسين شرعية، وعادلة، لكنها نمت في غير أوانها، كان الحسين كلقيمة جافة في الحلق، وغصة موجعة في الصدر، كان الحُسين شوكة مسنونة في قدم الأدميرال فيدل عطلته عن المسير لوهلة، لكنها - وبالمصادفة - أسرعت خطواته، وأنفذت مخططاته السرية التي عقد العزم على تنفيذها بالتعاون مع صاموئيل السكندري القابع في قاع الجنوب يزوده بالأخبار والتعليمات والإرشادات من حينٍ لآخر عن طريق عاهرات ليزا وجواسيسه وعيونه التي اتضح أنها منتشرة في كل مكان!

كان صاموئيل السكندري سرطانًا ينمو ببطء وعلى مهل شديد، ينتشر خطوة خطوة في كل حدب ودرب، تعالى ذكرهً وتعاظم اسمه بين الناس، وتهامسوا سرًّا بمجونه وعوالمه الخفية المريبة، بجنته وناره، وبالأسرار التي ورثها عن معلمه ستيفان السكندري، لغة الجان والتسخير، تعاويذ وطلاسم وتمائم وأحاجي، وقبل كل ذلك هناك ما هو أدهى وأمرّ... جماعته الجديدة، وحزبه النشط، وخدمه المقربون... الذين

أطلق عليهم اسم «البناؤون الأحرار»، هم خدّام القدس الأقدس، والسر الأعظم، والروح العليا، والغاية القصوى، الساعون لتحرير الأرض من قيد المادة والقيمة والماهية، الداعون لإحياء الهيكل الشريف، تحت حطام البئر العظيم، البئر الشاهد، الرامز، الدالِّ على الأزمنة المجيدة والعصور التليدة، عصور النحاس والدم، تجمعوا حول ستيفان السكندري، وأقسموا له بالولاء، وأطاعوه خاضعين متذللين، وساروا على أثر خطاه مهتدين.

البناؤون الأحرار... اسمهم الذي اقتبسوه من غايتهم، بناء عالم جديد، عالم لا ذهب فيه ولا فضة، عالم النحاس والدماء، عالم يرتفع بنيانه على أساس متين، ذلك الأساس هو البئر الثمين، بئر أبناء الرب المخلِصين المخلَصين، واستخراج هيكل الأم الحنون، وإحياؤها وبث الروح في هيكلها من جديد، لتملأ الأرض عدلًا... كما ملأته أول مرة... عدلًا ينصّ على أحقية النحاس بالظفر، عدلًا يعترف بالنحاس لا الذهب، عدلًا لا يكون ولا يُسمع إلا من أفواه السكندريين... أبناء الرب!

واليوم...

تحرك الأدميرال فيدل أخيرًا نحو محطة القطار الرئيسية، معه كل من تبقى من قوات الشرطة الشمالية، الذين تسلحوا بكل ما لديهم من ذخيرة وبارود، واقتحموا بغتة مواقع الإضراب

المسالم الأعزل، فأفرغوا فيهم ما لديهم من رصاص وبارود ولم يبخلوا...

كانت مجزرة، مهزلة، مذبحة تسطر في كتب التاريخ اللوراسي بأحرف من دموع ودماء، بدأ الغربان يتساقطون من حول الحُسين واحدًا واحدًا مضرجين في دمائهم، باسمين، حالمين، ناظرين إلى الغد السعيد، ذلك الحلم الذي راودهم ليل نهار... ساعات عملٍ آدمية وتأمين!

واختفى من حول الحُسين أصحابه المقربون... أهي الخيانة؟ لم يجزم أحد بشيء، أنت في تلك المواقف لن تغامر بدمائك في سبيل أي ما كنت تؤمن به، حتى وإن كنت أشجع الشجعان وأعتى الثوار... كان الهجوم مباغتًا، والنيران والرصاص يأتيانك من فوقك ومن أسفل منك، والناس من حولك موتى على قيد الحياة. لن تحتمل النظر، فلن ترى سوى الذين ضحكت معهم، وسامرتهم، ورافقتهم طوال الأيام والأعوام يتساقطون من حولك كالغربان غرقى في دمائهم النقية البريئة، وغريزتك تدفعك نحو البقاء والمعيش والوجود، لن تكون هذا الذي يرمي بنفسه فداء لزعيمه أو لمبادئه، أبدًا، بل ستتفاجأ كيف قادتك قدماك المصابتان بتلك السرعة بعيدًا هكذا، وكيف تدفق كل هذا الكم من الأدرينالين في عروقك حتى تخمّر وعيك وما عدت تدري من أين أتيت وإلى أين فررت...

وهكذا... وجد الحُسين نفسه محاصرًا من كل اتجاه، غربانه موتى، وشموعه مطفأة، وسلميته لم تجدِ نفعًا مع بهيمية الإنسان وهمجيته...

أكانت خيانة؟!

لم يسأل الحُسين، ولم يقاوم كثيرًا، وضعت الأغلال في كلتا يديه وقدميه، وجرجروه سحلًا وضربًا، بالأقدام والهراوي ومؤخرات البنادق...

لم يبد على الحُسين آثار خوف، أو اندهاش، أو جزع، لم يبد عليه أي مشاعر أو تعابير تشي بما في جوفه، كان ثابتًا، هادئًا، ووقورًا حتى وهو في أكثر الأوقات امتهانًا وذلًّا...

وتمتم الحُسين في سره حين ركله أحد الحراس في بطنه بعنف شديد ركلًا متواصلًا، وهو يلهث قائلًا: «ستموت كي يحيا الوطن أيها الخائن العاهر»:

نموت كي يحيى الوطن؟!

يحيا لمن؟!

مِن بعدنا يبقى التراب والعفن

نحن الوطن...[1]

---

(1) للشاعر الكبير أحمد مطر.

وابتسم الحسين فجأة، لمع سِنّه خلف وجهه المغطى بدمائه الحرة النقية، وهو يُسحل على الأرض البلاطية بالأغلال الحديدية الصدئة الثقيلة سحلًا، يتمزق منه جلد جسده وتتهشم أضلعه، ابتسم الحُسين ولمع ثغره حين حط على كتفه المنخلع في تلك الهوجة والشغب غرابًا ساكنًا ومألوفًا، يتمشى بمخلبيه متراقصًا، وينقر بمنقاره في كتف الحُسين نقرًا يداعبه به...

إنه ذاك الغراب، الغراب العاشر، الذي رفرف مقتربًا من وجه الحُسين كأنما يرحب به بجناحه الأسود ويلقي التحية والسلام، فابتسم له الحُسين ابتسامة ذات معنى، وتنهد بعدها تنهيدة عميقة..



(٥)

دُقت الطبول، وغُنيت الأهازيج والأناشيد، وأقيمت الأفراح والاحتفالات الصاخبة الجنونية، وافترِشت الأرض السمراء بالرمال وخدود الورود الملونة الزكية...

الجميع في حالة انتشاء وولع، يرقصون، يدورون، يتقافزون، يتبادلون القبلات والأحضان، يتقاذفون بالورود، ويتصافحون بكؤوس النبيذ، يلتهمون اللحوم التي ذُبحت دون ادخار أو تمهل، أقيمت ولائم ضخمة، ونفدت براميل النبيذ كلها، وظل الجنوب في احتفال مجيد حتى مطلع الفجر...

كل ذلك تحت أنظار الحواري المقدس، خليل الرب الرحيم، والملك القادم للوراسيا المستردة، الملك زيان ذو العصابة الحريرية، بعدما بارك لهم في لحومهم ونبيذهم، وتلا عليهم ترانيم الرب الرحيم في امتنان واضح وجليّ للرب الذي امتنّ عليهم بالنصر والظفر، واستمع إلى «جوقة العفيفات» كما أطلق عليهم بنفسه، أناشيد إلياس الملكوتية

المقدسة الطاهرة، بل إن جسده العجوز وشيبته الوقورة التي طالت حتى بلغت سُرَّته لم يمنعانه من مشاركة القوم رقصهم وغناءهم، فرقص كما رقصوا، ودار كما داروا، وسُرّ الناس لما رأوا ذلك، وقالوا في قرارة أنفسهم: «لن نعدم الخير من ملكٍ يرقص معنا ويشاركنا الحصار والفرار...».

وكان الفتى جاك، أوزريانو الثاني، قد نهض من فراشه بعد أيامٍ قضاها ليتعافى من الرصاصة التي تلقاها في حرب الرفيقين، والتي كانت شديدة الخطورة، وكادت تذهب بحياته، لولا مهارة ورد ابنة الجد نوح في التمريض لكان قد فارقنا ورحل نحو ملكوت الرب. لكنها رحمات الرب، لم تترك له سوى تلك الحروق التي التهمت رقبته وبعضًا من خده الأيسر مع خطٍّ تطاول حتى كاد ينال من عينه اليسرى، لكنها معيّة الرب الرحيم، التي حفظته، وسخَّرت له تلك اليد الملائكية، تبرئه من جرحه وتعينه على الألم، وها هو ذا... يتراقص مع القوم لا يكاد يشعر بأي ألم، سرت دغدغات النشوة في جسده حتى سَكر، والتف من حوله جنده المقربون وجند أبيه من قبله، «شِعب الأبطال» كما ستذكرهم الأناشيد في الغد البعيد، اقتربوا منه والتفوا من حوله وبدأت رقصاتهم الأصهلية التقليدية...

وأتت أخيرًا فقرة الحفل المنتظرة والمنشودة، فكما غُدر بالمسيح، لا بد أن يُصلب يهوذا، وكما غُدر بإلياس، لا بد

أن يُؤتى بخيسيه، مكبلًا في أغلال التشفي والسخط، مدنسًا برجس الخطيئة والإثم، يناله السباب واللعن والبصاق والقاذورات من كل مكان، لا تطوله أيدٍ إلا ونهشت من لحمه ما استطاعت. أُتي به أخيرًا بعدما ظل في الحبس الانعزالي طوال الليالي المنقضية تحت الحراسة المشددة في انتظار الحفل المهيب، أُتي به مجرجرًا بأغلاله، تدمي أطرافه، يهتز عوده الذي لم تقمه أي لقيمات مذ أُسر، وذراعه الذي شَل تمامًا بعدما أصيب في المعركة، ولم يجد من يطببه له، تجمهر الصبية من حوله وزفُّوه بالأغاني الفاحشة والأحجار، وتقدم حارسان من شِعب الأبطال من خلفه بالرماح فغرسا رمحيهما في ركبتيه فانفلقتا كالحَب. سقط خيسيه على الأرض يصرخ في ألم لا يوصف، ينظر إليهم في صمتٍ شديد، وصفحة وجه لا تشي بأي شيء، لم يقرأ عليه ندم ولا خوف، أسف أو جنون، كان هادئًا، وكأنما جدبت مشاعره، وانطفأت جذوة إحساسه منذ زمن، هو فقط لم يكن يبالي بشيء، كان يرقب كل شيء يدور من حوله بعينين زجاجيتين ووجه من خشب، تألم من قسوة الرمحين وسقط من غير إرادة، وظل وجهه هادئًا ومهيبًا...

التف من حوله بعض المحاربين يتراقصون في سخرية منه وتعالٍ، اقترب أحدهم يحمل مشعلًا في يديه، اقترب بالمشعل من لحية خيسيه الطويلة فأحرقها حتى لامست النار ذقنه...

لم يئنّ، ولم تتغير ملامحه، ثم عاود الكرة، فأحرق جدائل شعره الشائكة حتى احترقت جلدة رأسه الآدمية... سكبوا عليها من المياه ما أطفأها، وأغرقه في كأس الإهانة والتنكيل، طأطأ رأسه في الأرض، ولم ينطق بشيء، ثم حينما همّ أحدهم بفعلة جديدة استوقفته صرخة مباغتة...

لا... لم تكن صرخة من خيسيه، بل من أوزريانو الثاني، صرخة قائدٍ يأبى السخرية والتنكيل والامتهان، إن قتلت فأحسن القِتلة، اقترب بسيفه المشحوذ من الراقد الخاضع، رفع بطرف السيف رأسه المطأطأ المنكس، نظر إليه نظرة سريعة، لم تطل، لكنّ خيسيه رأى فيها كل شيء، رأى وجه الزعيم أوزريانو العظيم، تذكر عهده ورعايته، مرافقته ومحبته، تشمم عطره يهب مع النسمة المنعشة التي تسللت من بين جموع الناس فجأة، نظر في السماء نظرة لم تطل، رأى نجمًا يلمع، يغمز له، اشتمّ من النسيم عبير الزعيم، وابتسم مطمئنًا آمنًا، وأسلم رأسه لمخلصه من العذاب السرمدي، ولم يطل الأمر، بين طرفة عين وأخرى كان الرأس يتدحرج على الأرض ملطخًا إياها بالدماء، وسقط الجسد المعزول على الأرض بلا هوية!

صفق الصبية وهاجوا وماجوا، وزغردت النسوة وهللوا، وانتشى الرجال، وحملوا الرأس المنبوذ في سطلٍ صدئ،

وساروا به بين الجموع المحتفية؛ كي تشفى من رؤيته سريرتهم المشتعلة بالغيظ والكره الدفين، ثم التف شِعب الأبطال حول قائدهم المجيد أوزريانو الثاني، حملوه فوق الأعناق، وهتفوا باسمه معظمًا وبدأوا يرقصون سويًّا رقصتهم الأصهلية المعهودة على إيقاعات طبول الكاسر والرحماني، وعلى أناشيد النساء الحاكية عن شجاعته وإنجازه العظيم...

داني دان... ويا دانه

أوزريانو الثاني دانه

وداني دان

❀❀❀

جاب لينا راس الخاين

في جِدِر والهاين هاين

مهما زاد المداين

❀❀❀

أوزريانو الثاني دانه

وداني دان

❀❀❀

بالخنادق ذا حامينا

والبنادق لا تجينا

مهما كاد اللي عادينا

***

أوزريانو الثاني دانه

وداني دان

***

داني دان... ويا دانه

داني دان[1]

***

(1)من وحي الثقافة العُمانية للمؤلف محمد البشير.

اللوحة السادسة

وبالناس المسرّة

على العرش النحاسي الكبير ذي المقابض المصنوعة من عظام الجماجم جلس...

كما جلس سيده أول مرة...

على فخذيه المترهلتين وضع كتابًا عتيقًا ذا دفتين عتيقتين تضمان صحفًا صُفرًا، تحوي طلاسم وتعاويذ، تموء عليه قطتان، إحداهما ذات ساقٍ عرجاء، والأخرى بعين مفقوءة كأنها عنبة طافية...

بيسراه كان يحتسي النبيذ الشمالي الصافي المثير، وبيمناه قبض على الجمجمة المستسلمة ونهض يجر من خلفه ذيل برنسه الأسود البرَّاق...

تمشى ببطء شديد وتمهل، من خلفه المراوح الريشية تتهادى بين يدي غلمانه...

توقف عند الشرفة العظيمة، المطلة على الحدائق الواسعة، ذات الأحواض العميقة والأعشاب النادرة...

نظر صاموئيل السكندري إلى الأفق البعيد، وضحك ضحكة جهورة تردد صداها في الشمال بأسره، ضحكة تعني النشوة

والظفر، ضحكة تعني التمكن والعلو، ضحكة لا تخرج إلا من جوفٍ كان يحمل قبلها حقدًا دفينًا وغيظًا غير مكظوم...

أشار بأطراف أصابعه المثقلة بالخواتم النحاسية المزركشة مباركًا ومحييًا سبط الإسكندر المبارك المختار، الذي أُذن له بالمجيء مرة أخرى إلى الديار، بعد نفي مخزٍ وسبي مذل، تمكنوا في الأرض مرة أخرى بفضل تخطيط قائدهم الأعظم، وساحرهم المقدس، صاموئيل السكندري الوريث الشرعي وحامل العبء الثقيل عن مقدس الروح والأسرار ستيفان السكندري، شهيد نكسة العنقاء - كما أطلقوا عليه وعلى المعركة -.

ظل صاموئيل يرقب مقدم شعبه العريق من بعيد، زرافاتٍ ووحدانًا، أتوا من جوف لوراسيا وعمقها البعيد، من الجنوب، من ذيل الجنوب ومرمى نفايته، خرجوا من أجداثها كأنهم جراد منتشر، يخلفون وراءهم كل أمس ثقيل، ويحلمون بشمس الأصيل، التي تهللت وسطعت أولى بشرياتها على يد المقدس صاموئيل، يعدهم بقيام العصر النحاسي الجديد، ووحدة العالم الجديد، وبئر عتيد يشهد على ما سيكون...

رفع إليهم صاموئيل يديه محييًا، وقال والنبيذ يقطر بين شفتيه منتشيًا:

- يا شعب الإسكندر المختارين، يا أبناء الرب ومصطفيه، أيها البناؤون الأحرار، هلّم إلى أرض الموعد واللقاء، هلّم إلى عهدٍ جديد ووعد قد وعدنا الرب إياه على لسانِ بكرية ناهدة...

وتلا عليهم النبوءة الأولى، التي من بعدها بدأ سعيه ودأبه ونشاطه:

«الساعة الساعة... الصاخة الصاخة... الحاقة الحاقة...

حُطت حُطت... غاث الماء وأرضٌ مُدت

الرب سيأتي منتقمًا... والبئر يفيض وينهمرُ

وعلينا الكل سيلتهف، وبيدنا الجرح سيلتأمُ

فابنوا لي بيتًا عندكمُ...

ابنوا بي بيتًا عندكمُ... يسكنه الرب ويسترِحُ!

سيعيد البيت لنا الكرّة...

وتعود الأم المنتقمة...

سيعود الرب لنا لكن؛ في صورة «وغد»

وتعود الغلبة والكثرة

وتكون النقمة والحسرة

لقطيع لا يسمع صوتي... يحنث بالعهد»

ثم نظر إليهم بعدما تغيرت نظرته إلى الجنون، وتبدلت نبرته إلى المجون، وقال منتشيًا وهم من بعده يهللون ويصرخون ويهتفون...

- هلمَّ بنا نخرج الهيكل، ونبني البئر العتيد، بئر أبناء الرب...

***

عاد بنو الأصهل للغرب مرة أخرى، وارتحل معهم أوزريانو الثاني يقودهم كما قادهم أبوه من قبل، ليحقق معهم ما حققه أبوه من قبل، ويقضي على من تبقى من الأهواز من جديد، ولكن تلك المرة كانت أشنع وأبشع، فأفناهم أوزريانو الثاني عن بكرة أبيهم ولم يبقِ منهم أحدًا...

سالت دماء، وهتكت أعراض، واستعبد أطفال وصبايا، حدثت مجازر ومذابح لا توصف على ورقِ كتاب، يكفي ذكرًا أن المالح اصطبغ بلون الدماء من كثرة القتل، وما ذلك على الإنسان بجديد، فتلك هي النزعة الوحشية، والغريزة غير المروضة في الإنسان، والتي لم يسع في ترويضها يومًا!

ولم يعثر لرمّاح على أثر، قالوا: قتل نفسه. وقالوا: ابتلعته الأرض. وقالوا: صعد إلى جوار أبيه قسورة بن جلمود والتجأ إليه محتميًا بسردابه الخفي!

أما دلال، فوجدت مختبئة تحت أريكة من الخوص، ترتعد خوفًا، وتبكي دمًا، تتوسل الخلاص فلم تجده، أقيم عليها حفل اغتصاب استمر نهار يوم بليلته، انتهكوها وأنهكوها، حتى إذا فرغوا منها وارتووا، ونأى عنها من لم ينلها وزهدوا في لحمها، صلبوها وتركوها معلقة ثلاث ليالٍ ينهش في لحمها الطير...

***

وفي الجنوب...

الجنوب المقدس كما أطلقوا عليه، أرض الرعاة، ومنفى الأوغاد، ثم عاصمة البلاد الجديدة، لم يرغب الحواري المقدس في مغادرة الأرض المباركة الطيبة التي خطا فوق ترابها الرب الرحيم، والتي عاشت فيها الأسرة المقدسة، ولاقت ما لاقت، ظل زيان بين من تبقى من الرعاة في أرض الجنوب، واتخذها عاصمة له، وأمر بإعمارها من جديد...

وأقيم حفل مهيب...

حفل كأخيه منذ سنواتٍ عجاف، حفل يُعلن فيه مرة أخرى أن لوراسيا ستجتمع من جديد تحت راية واحدة، وتحت إمرة تاج واحد، تاج الملك زيان حواري الرب الرحيم، وأُطلق على الحقبة الجديدة: مملكة لوراسيا الإلياسية!

بدأ الحفل بجوقة العفيفات، وأناشيد إلياس الملكوتية النقية، ثم ارتقى المنصة المهولة الفخمة أوزريانو الثاني بأعين كحيلة وعطر فوّاح، يرفل في ثوب بني الأصهل المميز بسواده الأنيق، يتحلى بالخواتم الفضية وقلادة لها قلب من الفيروز المتوهج، رقص بعصاته العاجية، فهلل له محبوه من الرعاة والمخلصين من بني الأصهل، ثم أعلن للناس بصوته الأجش الفخور...

- اليوم... تعود لنا لوراسيا من جديد، تُعدل الموازين، ويُصب العدل كما تُصب الخمور في الكؤوس... للجميع!

ثم رفع كأسه الملأى بالنبيذ، وحيًّا الجماهير، وشربوا جميعًا نخب مملكة لوراسيا الإلياسية، ثم تقدم نحو الحواري المقدس، الذي تحلى بثوب حريري سندسيٍ شديد الأناقة، وعلى عينه اليمنى عصابة من اللون نفسه، يتكئ بثقله على عصاةٍ من المرمر لها رأس عنقاءٍ مدبب!

اقترب غلامان من أوزريانو الثاني يحمل كل منهما وسادة حريرية، تحمل واحدةً تاجًا ذهبيًّا ثقيلًا له ثلاثة أطراف مدببة تحت كل طرف توجد ماسة لها لونٌ مختلف، يرمزون للأمم الثلاث والوحدة الواحدة، وتحمل الوسادة الأخرى خاتمًا ذهبيًّا نقشت عليه باللوراسية القديمة «حواري الرب».

ركع الحواري زيان في تواضع شديد أمام جموع الناس الباكية، وزينه أوزريانو وكلله بتاج المملكة الإلياسية الموحدة، ووضع في خنصر يسراه خاتم الحكم الجديد، وأمره بالنهوض مساعدًا إياه على ذلك، وأُعلن للملأ بشكلٍ رسمي:

مولانا الملك زيان الإلياسي.

واستمر الحفل السامر الباذخ، لحوم للجميع، وخمور في المتناول، العاهرات هدايا مجانية، والراقصات مسك الختام...

تحدث الحواري بما تهامس به الناس، اتسعت لوراسيا كثيرًا على المنتصرين وكثرت الغنائم والأنفال، فلمن يؤول ما يؤول، وكيف ستقسم عليهم؟!

قال الحواري...

- قال لنا الرب الرحيم في ألواحه المقدسة «فكلوا مما غنمتم حلالًا طيبًا»
- إن مما ورد في شريعة الرب الرحيم وتعاليمه المجيدة، أن للرب الرحيم نصف المغانم... وما تبقى فهو للمحاربين الشجعان وذوي الشهداء.

فقال رجلٌ يتعجب...

- يا حواري الرب، نصف؟ النصف كثير!

وسأل سائل:

- وكيف سيتحصل الرب على نصفه؟!

فأجاب الحواري مبتسمًا...

- أما نصفه فللحاشية المقدسة، وأما النصف الآخر فللأسرة المقدسة.

وهمس رجلٌ في أذن صاحبه سرًّا:

- قاتلت مع الرب في حرب العنقاء وغنمنا أكثر مما غنمنا في حربنا تلك، ولم أره يأخذ درهما ولا دينارًا نحاسيًّا... حتى إنه زهد التاج والصولجان.

هنا قامت ورد ابنة الجد نوح، وقالت بأدبٍ جمّ، ولسانٍ فصيح:

- يقول المُعلم بنيامين في كتبه عن أديان الأقدمين والرب المتكبر، قال الرب المتكبر: «واعلموا أن ما غنمتم من شيءٍ فأن لله خمسه، وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل...».

واستأنفت بعدما تلت الآيات قائلةً:

- قسم الرب المتكبر الغنائم إلى خمسة أنصبة، فأما الخُمسُ الأول فهو خمسة أسهم، سهمٌ له ولرسوله الأمي يصرف في مصالح العامة، وسهم لذوي قرابته المناصرين إياه والمهاجرين معه، وسهم لليتامى، وآخر للمساكين، والأخير لأبناء السبيل... وليس النصف يا حوارينا المقدس كنصفين للحاشية والأسرة المقدسة!

فنهض أحدهم يسألها...

- وأين يذهب أربع الأخماسِ الباقية؟!

فاستطردت ورد:

- للغانمين... الرّاجل سهم، والفارس ثلاثة.

هنا سرت همهمات وشكوك، نظر الناس إلى الفتاة الأبنوسية المتحدثة بانبهار وعجب، وأدركوا أنها تعلم شيئًا ندر منهم من عِلم مثله ولم ينسه!

جذبتها أمها من طرف ثيابها بشدة، ووجهها يستعر من شدة الحرج، وأجلستها بجوارها، وكأن شيئًا لم يُقل ولم يكن، وقالت لها وهي تنظر إليها بعين محتقنة من الغضب...

- أتجادلين حواري الرب يا ابنة السوداء! ما آمنكِ أن تنصب علينا ويلات غضبه وعذابه!

كان الجد نوح من ورائهما ينظر لكليهما ويضحك مما أشعل غيظ صبارة أكثر، وأما ورد فلعبت بذهنها الأفكار والخواطر والتساؤلات، وتطلعت إلى الألواح التي معه لتقرأها وترى ما فيها من تعاليم الرب وأقاويله كما يقول، ولأول مرة نظرت إلى الحواري المقدس نظرةً أخرى...

نظرة تحمل شكًّا وريبة!

***

وشهد الحفل مشهدًا لم يخطر على قلب أحدهم، إذ تقدم من المنصة العظيمة، على مرأى ومسمعٍ من الجميع، رجلٌ بثيابٍ بيضاء ناصعة خاضعة توحي بالسلام والأمان، عرفه من رآه من قبل وكذا من سمِع وصفه: الأدميرال فيدل!

اقترب من الملك زيان وركع على ركبتيه في خضوعٍ، وقبّل يديه متواضعًا، رفع زيان رأسه بطرف عصاته، وسأله بصوتٍ مرتفع...

- ما اسمك؟

بالطبع هو يعرفه، ولكنه وكأنما أراد أن يشهد الناس على تلك اللحظة المشهودة التي ستحفر في تاريخ لوراسيا الحديث، لحظة انتصار كاسحٍ للإلياسيين:

- فيدل... فيدل أليخاندرو
- ولِم أتيت؟
- لأعلن الولاء، لملك لوراسيا الإلياسية المقدس...

أفي الأمر خديعة؟ لم يبد ذلك على ملامح أحد، وإن ساور الشك صدور الناس...

أشار المقدس إلى الناس بإشارة ذات معنى، فالتفت إليهم فيدل مبتسمًا راكعًا، فظلوا في تهليل مستمرٍّ ونشوة غامرة، وانمحت كل الشكوك والريب، بعدما سمعوا مقولته الخاشعة، وهو يشير إليهم بيديه ملوحًا:

- على الأرض السلام... وبالناس المسرة!

***

لم تقد شرطة الشمال الحُسين نحو زنزانة المعاتيه كما توهم من تبقى من غربانه...

بل إنه هناك...

في جوف جب عميق، في غياهب البيداء الكالحة، لا زرع، ولا ماء، ولا إنسان يغدو فوقها...

من حوله يطنّ العاملون طنين النحل في الخلايا، بثيابهم الموحدة الباهتة، وأعينهم القميئة ذات السواد المتراكم من حولها لقلة الراحة...

رائحة فواحة ونفاذة تنبعث من أطراف المكان، حيث تتراص الحاويات الزجاجية بدقة وحرص، تحمل في جوفها سوائل ذات ألوانٍ شتّى...

الحُسين المسكين، مجرد من ملابسه، مقيد من أطرافه في صليبٍ أفقي، مكمم الفم بخرقة بالية، وعيناه... يا ليتهم غضوا له بصره!

جسده الهزيل كان مادةً خامًّا، وفأرًا كبيرًا لتجاربٍ كيميائية يحدثها مجانين العلوم الحديثة في مكان مجهولٍ، لا يعلم من وراءهم، ومن أين أتوا، ومن وهبهم ذاك المكان وتلك المعدات؟!

تلاشت كل الأسئلة وتطايرت فور أن رأى الحسين بعينه الجازعة الجاحظة من يقترب منه مبتسمًا، ويحمل بين يديه قضيبين، أحدهما من حديد والآخر من نحاس، يتمايل بينهما خيط متوهج يئز أزيزًا مخيفًا كأنما سرقوه من برق السماء...

اقترب الضاحك المجنون من الحسين المرتعد بتؤدة وبطء، يضحك بعبث وهيستيريا مخيفة، ويحمل بين يديه اختراع العصر الحديث!



كان كل شيء مخططًا له وبدقة فائقة...

كل حركة...

كل قرار... وكل كلمة... بل كل همسة ونظرة...

لكن هذا لم يكن في حسبان أحد... أبدًا!

ظلت صواعق الأسئلة ورياحها تهب وتعصف في مخيلة الأدميرال فيدل...

كيف؟ وكيف؟!

لم ولن يصل إلى جواب يرضيه...

ظل يرقب تلك الورقة الصغيرة، التي أتته بين مخالبِ حمامة، آتية من أقصى بلاد الرب، حيث بلاد اللالوراسياَ، حيث إيفريقيانوس، حيث أتى فيدل وقدم أول مرة...

رسالة لا تحمل سوى سطر مختصر، لكنه يعنيٍ الكثير، يعني المصائب والكوارث والدمار، ظل يضرب كفًّا بكف، يخبط جبينه بقبضته، يفكر، لا شيء يمكن عمله، لا شيء، لا شيء...

ظل يتأمل الورقة مراتٍ ومرات...

رسالة كُتب فيها:

«ثار السود وسادوا...»



في ناحية أخرى من الكون...

بين أمواج متلاطمة، كانت سفينة تصارع البقاء، إنها واحدة من ثلاث، انطلقوا من الميناء الجديد، باحثين عن هدفٍ معلن للعامة: اكتشاف ملامح الكوكب وأراضٍ جديدة، وهدف غامض مبهم، أسرّه صاحبه في نفسه إلى حين، تلك السفينة التي فقدت دفتها ووجهتها وتعارضت بين طاقمها الأقاويل...

وكان ثمة رأي بينهم يلحُّ على اتجاه بعينه...

اتجاه أتته به رسالة بين مخلبي حمامة سوداء...

وبعد ضياع في اتجاهات البحر وجوانبه، لأيام وأسابيع...

وجدت السفينة ضالتها، وولت وجهها شطر الاتجاه الصحيح...

تلك الجزيرة النائية المنعزلة، وحيدة على ناصية الكون!

على تلك الجزيرة الصغيرة المهملة، بين أشجار النرجيل والموز، ثمة يافع يقتطف الثمار في نشاطٍ مشتعل، هو الآن يحمل مصيدته ويتجه نحو شاطئ البحر ليصيد غداء يومه...

لمعت في عينيه الرماديتين اللتين ورثهما عن أبيه أشرعة السفينة التي تقترب منه في الأفق البعيد...

أصابته رجفة شديدة، إنه يخشى الغرباء، ترقرقت عيناه الرماديتان، وسرت في ساقيه اهتزازات لم يتحكم بها، وانطلق خلف قدميه المهرولتين عائدًا نحو كوخه المنزوي بين الأشجار بعيدًا بعيدًا...

لم يطرق الباب، بل ضربه ضربة كادت أن تكسر أخشابه الضعيفة، كانت ضربة غير متعمدة، فزعت منها أمه التي وشت خصلات شعرها البيضاء بمشارف الشيب والعجز...

كانت تحتضن قيثارة أبيه، وتتغنى بألحانه العذبة، وتستنشق من أوتارها التي داعبتها أنامله يومًا رحيقًا يذكرها بأيامٍ معدودات... لكنها العمر بأسره!

فزعت رقية من صوت الباب، ومن منظر ابنها المرتعب المهزوز، الذي دلف مهرولًا ناحيتها، لا ينطق بكلمة، فقط... يشير ناحية الشاطئ بيديه المرتعشة، ويتشبث بأحضانها حتى بدأت تتألم!

لم تفهم ماذا هنالك، سألته مرارًا فلم ينطق بكلمة، حاولت أن تنهض لترى بنفسها ما الذي يحدث...

ويا ليتها لم تفعل!

همّت رقية بالنهوض فجذبها يحيى بقوة يستبقيها...

لكنها سقطت على الأرض من فرط قوته، واقترب الفتى منها مسرعًا يحتويها بين ذراعيه القويتين...

يعتصرها من شدة الخوف...

يحاول حمايتها من الغرباء...

بدأت رقية تصرخ فيه، فوضع كفه على فمها يخمد صوتها، ألّا ينصت لهما الغرباء...

تخشب جسد الفتى لا إراديًّا... ورقية المسكينة بين ذراعيه، تُعتصر كما يُعتصر الليمون والعنب...

كان يهتز ويضطرب ويتردد في مكانه...

كان مهووسًا... خائفًا... هلعًا...

بدأت مقاومتها تنخفض... واضطراباته وتشنجاته تتزايد...

حتى لفظت رقية بين يدي ابنها أنفاسها الأخيرة، وعلى وجهها علامات الفزع والمفاجأة!

اكتست الأعين الرمادية بالدموع السخينة، وزاد من فزعه تلك السكينة التي أصابت أمه بين ذراعيه، وتلك البرودة التي سرت في جسدها فجأة...

نظر إليها مرارًا...

تأمل وجهها المحتقن، عينيها الجاحظتين، ملامحها المضطربة الفزعة...

حاول استنهاضها... دون جدوى!

ناداها... لم تجبه!

تشنجت أوردة عنقه بسرعة مباغتة، واضطربت حركات فمه ووجهه، تفوه بكلماتٍ لم يفهمها أحد، وأحس بالكون يختلف عن الكون، أحس بالليل الذي يخشاه يقترب، وبالظلمة التي ينفر منها تعلو، وبالوحشة تملأ عمره وقلبه...

أحس بكل ما في الكون من ألم...

لكنه لم يشعر بتلك الظلال التي تكاثرت من حوله وجذبته جذبًا ناحية المجهول...



اللوحة السابعة

أغنية إلياسين

عند الميناء المتهالك القديم، وقفت رزان العائدة من رحلتها المهولة...

تغيرت كثيرًا، كما تغير هو...

لكنها لم تنسه، كما نسيها...

أصبحت أكثر وهنًا مما كانت... وأكثر ضعفًا من ذي قبل!

حول معصمي يديها أساور من ذهب، ارتسمت عليها طلاسم وتعاويذ، لم يكن تسخيرها من قبل سحرة الإنسان وهي في تلك الحالة من الضعف والوهن بالشيء الصعب، خاصةً وإن كان الساحر المسيطر عليها ساحرًا متمكنًا وذا سطوة ومعرفة مثل ستيفان السكندري...

وقفت رزان عند الميناء القديم، تحت ستار الليل المرصع بالنجوم، ترقب الأحبة والعاشقين يتبادلون الهمسات والقبلات...

ساورها ذلك الشعور الأليم بالبرد والوحدة...

تذكرته...

وتمنت أن يذكرها...

وبدأت تغني بصوتٍ متهدج حنون، ودمعها يتساقط على وجنتيها...

يا حبيبي...

إن أيامك عِطر...

وانتظاري لك خمر...

ليس بالسكر، ولكن فيهِ سُكر

ليس بـ النهر، ولكن فيه نهر

له في القلب هدير...

في الهنيهاتِ هدير...

فـ تعال...

تعال...

قبل أن ينهزم الليل وتنهار الظلال

قبل أن يحرقني برد الرمال

قبل أن أغدو محال

قبل أن أغدو محال

قبل أن أهرب من عيني حبيبي

يا حبيبي... كل ما في الصمت نادى![1]

وللحديث بقية...

(1) لقائلها ولقائلها السلام.